محمد عبد العظيم الجوهري

تأملات قرآنية

في الدعوة... والمجتمع

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الثانية

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

أميرة للطباعة

ت: ٣٩١٥٨١٧ محمول: ٠١٠١٤٥٦٠٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين .. حمداً يليق بمقامه، وعلو سلطانه، وجلال شانه وأشهد أن لا إله إلا الله ... شهادة له بالوحدانية، واعترافا له بالربوبية وخضوعا له بالعبودية.

وأشهد أن محمداً رسول الله .. شهادة له بالرسالة، وامتنانا لفضله فى الهداية، وحبًا وشوقًا وتقديراً ليس له نهاية.

اللهم صل وسلم وبارك على رسول الله، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وعلى التابعين وتابعيهم إلى يوم فيه نلقى الله.

وبعـــــد

فقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب «تأملات قرآنية فى الدعوة والمجتمع» فى شهر صفر عام ١٤١٩ هـ الموافق شهر يونية عام ١٩٩٨م، وكان بمثابة أول مولود لى فى عالم الكتابة والكتب، فهو وليد محنة تعرضت لها فلجأت إلى الله تعالى الذى كتب على نفسه الرحمة فحوَّل هذه المحنة إلى منحة هى عبارة عن هذا الكتاب الذى بين يديك أيها القارئ الكريم، ولم يكن بعسير على الله الذى حول المحنة إلى منحة أن ييسر توزيع الطبعة الأولى التى نفدت بفضل الله.

وإذا كان لأحد فضل بعد الله فى صدور الطبعة الثانية فهو لك أيها القارئ الكريم فأنت الذى أقبلت على الطبعة الأولى فنفدت. وما كان للطبعة الثانية أن تصدر حتى تنفد الطبعة الأولى.

إن هذا العصر الذى نعيش فيه هو عصر الوسائل السمعية والبصرية والإليكترونية مثل الإذاعة والتليفزيون والكمبيوتر والإنترنت وغيرها من الشرائط المسجلة المسموعة والمرئية وتراجع الكتاب عن مكانته التى احتلتها هذه الوسائل

وانخفضت أرقام توزيع الكتب وقلت نسبة المترددين على المكتبات لشراء ما صدر حديثا من الكتب. وحتى هذه النسبة القليلة إذا ذهب أفرادها إلى المكتبة فلشراء كتب التراث المجلدة والمذهبة لكى يزينوا بها رفوف مكتباتهم المنزلية لعله يأتى اليوم الذى يقرأون فيه هذه الكتب، وهيهات هيهات أن يأتى هذا اليوم للانشغال الشديد بأمور المعاش والأولاد ثم الأحفاد والأطماع الدنيوية التى لا تنتهى إلا بانتهاء الحياة.

لذلك .. كان لزامًا أن يذهب الكتاب إلى القراء لأنه حين ينتظرهم فى المكتبة لا يأتون. وهذه هى خلاصة تجربتى فى توزيع الطبعة الأولى فجعلت الكتاب يذهب إلى القراء فى أماكنهم حيث كانوا فى المكتب أو المصنع أو المسجد أو النادى أو الجمعية فكانوا يرحبون به بمجرد تصفح أوراقه أو قراءة الفهرست أو المقدمة .. كل حسب طريقته فى التعرف على الكتاب.

وكان أكثر المرحبين به هم الدعاة إلى الله، والمشتغلين بالدراسات القرآنية، وكذلك عامة القراء الذين وجدوا فيه ضالتهم المنشودة من حيث تنوع موضعاته، واستقلال كل موضوع بذاته، وإمكانية قراءة الموضوع الواحد فيما لا يقل عن خمس دقائق ولا يزيد عن عشر دقائق، مع السهولة واليسر فى العبارة والعمق والجدة فى الفكرة .. هذا هو ما قالوه وأنقله عنهم.

وهناك من شغله هذا الكتاب حتى توفر على دراسته واستغرق منه ذلك أربعة شهور وفى نهايتها كانت دراسته النقدية الرائعة للكتاب والتى نشرت فى الملحق الإسلامى لجريدة أخبار الخليج البحرينية على أربع حلقات، وسوف تحتل هذه الدراسة فصلا هاما من فصول كتابه القادم .. وأعنى بذلك الأستاذ الأديب والشاعر الإسلامى عبد اللطيف الجوهرى.

ولا أنسى هذا الدارس فى معهد الدعاة بالأسكندرية الذى طلب الكلمة فى نهاية محاضرتى عن الكتاب حيث قال لى إنه يشعر أننى لن أكتب بعد هذا الكتاب كتابا آخر. فسألته من أين أتى إليك هذا الشعور الذى أشاركك فيه. قال: لأنك أفرغت كل ما عندك فى هذا الكتاب وظلمت نفسك بذلك، لأن هذا

ليس كتاباً ولكنه عدة كتب فى كتاب واحد، فالموضوع الواحد يصلح أن يكون كتابا مستقلا . . أى ٥٢ كتابا . . وهو عدد موضوعات الكتاب . فقلت له: إن أحد أهدافى من إصدار هذا الكتاب أن يكون كل موضوع مشروع كتاب يؤلفه غيرى من المشتغلين بالدراسات القرآنية. فإذا حدث يكون ذلك مدعاة لسرورى واعتزازى . . وهذا ما استخلصه اللواء متقاعد محمد صبحى الجندى أحد أبطال حرب أكتوبر المجيدة.

كما أخبرنى الأستاذ الدكتور على جمعة أستاذ الشريعة بجامعة الأزهر والذى راجع هذا الكتاب وقدم له، أن فضيلة الشيخ/ صلاح نصار إمام مسجد عمر بن عبد العزيز بمصر الجديدة بالقاهرة والمحاضر بمعهد تدريب الدعاة بمسجد النور بالعباسية . . قد قرر هذا الكتاب على الدارسين فى الدورة التدريبية التى كان يشرف عليها.

كما يسعدنى أن أذكر الدكتور مهنس إسماعيل أبو النجاة الحاصل على درجة الدكتوراة من الولايات المتحدة الأمريكية فيما يعرف بـ« الخلو من العيوب Zero Defect» والذى أهديته نسخة من هذا الكتاب بعد حضورى لمحاضرته فى قاعة الاحتفالات الكبرى بالأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوچيا والنقل البحرى بالأسكندرية عن «الخلو منْ العيوب» وهذا أحدث اتجاه فى مجال إدارة الجودة الشاملة «الأيزو ISO» وكانت هذه المحاضرة هى بداية معرفتى به، فما كان فيه بعد ذلك إلا أن اتصل بى فى اليوم التالى لكى يشكو أننى حرمته من النوم فى الليلة الماضية . . وعندما سألته: لماذا؟ قال: لأننى كنت أتصفح الكتاب قبل النوم فأخذنى وسلبنى النوم حتى استمعت إلى أذان الفجر فقمت للصلاة ونمت بعدها بعد أن كنت قد أوشكت على قراءة أكثر من نصف الكتاب. ولا شك أننى سررت من هذه المكالمة التى تسر أى مؤلف وخاصة من رجل متخصص فى «الخلو من العيوب» أى الجودة، الجودة فى الإنتاج المادى وكذلك الفكرى، وطلب بعدها دفعات من الكتاب وصل عددها إلى أربعين كتاباً تقريبا يقوم بتوزيعها على أصحابه وأحبابه مجاناً، كان آخرها خمسه نسخ من الكتاب طلبها بصفة عاجلة

لأنه ذاهب الآن لزيارة صديق مريض ويريد أن يُهدية كتابًا بدلا من علبة الشيكولاته أو صحبة الورد .. فأعجبت بفكرته وأردت أن أثبتها هنا لعلها تنتشر وتعم.

وقبل أن أختم هذه المقدمة للطبعة الثانية من الكتاب والتى أخذت شكلا أقرب إلى «الدردشة» مع القارئ الكريم .. أريد أن أنوه بالعالم الرسالى الأستاذ الدكتور على جمعة استاذ الشريعة بجامعة الأزهر الذى لم يقتصر جهده معى على مراجعة الكتاب والتقديم له مقتطعا بذلك من وقته الثمين ومسئولياته العلمية المتعددة بل إمتدت معونته إلى شراء أول مائة نسخة من الطبعة الأولى لتوزيعها على تلاميذه وأحبائه ومريديه .. إنه العالم الذى لا يسعى لأن يكتسب بعلمه مالاً، ولكنه العالم الذى ينشر العلم ويعين غيره على هذا النشر وينفق من ماله فى سبيل ابتغاء مرضاة الله .. زاده الله علما، وجعله من العاملين العاملين وبارك الله له فى علمه وصحته وماله وأولاده ونفع به الأمة الإسلامية وأكثر من أمثاله.

ولا أنسى فى النهاية أن أشكر الصابر المحتسب الحاج وهبة حسن وهبة ناشر هذا الكتاب على ما قدمه من جهد مشكور، ونصيحة مخلصة، وعناية فائقة، لكى يظهر هذا الكتاب فى طبعتيه الأولى والثانية فى هذا الثوب القشيب والغلاف المعبر بريشة الفنان الأستاذ الدكتور يحيى عبده الأستاذ بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة.

وأخيراً أيها القارئ الكريم لا أريد أن أطيل عليك أكثر من ذلك، فهذه هى الطبعة الثانية من الكتاب بين يديك .. نفعك الله بها، ولا تنسانى من صالح دعائك .. أن يتقبل الله منى هذا العمل قبولا حسنا، ويجعله فى ميزان حسناتى يوم القيامة.

إنه سميع قريب مجيب الدعوات .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد عبد العظيم الجوهرى

الأسكندرية فى المحرم ١٤٢٣ هـ — العنوان: ١٠ شارع النصر - الجمرك الأسكندرية - مصر

الموافق مارس ٢٠٠٢م. — تليفون: ٤٨٠٩٣٧٢ / ٠٣



مقـــــدمة

بقلم الدكتور على جمعة
أستاذ الشريعة ـ جامعة الأزهر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين ، . . وبعد

فهذا الكتاب فيه رؤية جديدة ، وتأمل صادق لآيات كتاب الله ، فتح اللهُ على جامعه بتلك اللطائف والمعانى التى يحتاجها جمهور المسلمين فى هذا الزمان ، وفائدة الكتاب تشمل نوعين : فائدة ترجع إلى المنهج الذى سار عليه المؤلف والذى يحتاجه الحالّ المرتحل مع كتاب الله ، والذى لو تمسك به المسلمون لقويت علاقتهُم مع حبل الله المتين ، مع قرآن ربهم الذى جعله هدى ورحمة للمحسنين ، ولتم لهم كيفية تحويل الشعار والعنوان إلى عمل وسلوك وحياة معاشة ، وهو ما كان منهاج الصحابة الكرام مع كتاب الله وسنة رسوله فكانوا فى مكانهم اللائق من التشريف والتكليف وكانوا كما أراد لهم الله ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ و ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فاستحقوا الشهادة على الناس من القمة التى كلفوا بأن يكونوا عليها وشرفوا بوضعهم فيها ، وهذا المنهج منهج تحويل الشعار إلى عمل وسلوك أحد عناصر التمكن والشهادة الربانية .

وفائدة ترجع إلى المعلومات والنظرات التى فسّر بها المؤلف خطاب

الله تعالى للبشر ، بما يصلح أن يكون موعظة للمتقين حتى نحقق التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر عليه كما أمرنا ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

فهو كتاب نافع للخطيب ونافع للشباب ونافع لطلبة العلم الشرعى الشريف ، . . بل نافع لعموم المسلمين .

نفع الله به ، وفتح على مؤلفه ، وأعانه على إخراج صنوه ، والإرشاد بمثله . . آمين

القاهرة : رمضان ١٤١٨ هـ

على جمعة

أستاذ الشريعة ـ جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

* الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

* الحمد لله الذى خلقنى إنسانًا، وجعلنى من ذرية آدم الذين كرمهم الله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

* الحمد لله الذى أخرجنى من أصلاب مسلمة وموحدة بالله واختارت لى أحسن الأسماء وعلمتنى الدين السليم والخلق القويم.

* الحمد لله الذى أسكننى أرض مصر وأسمعنى صوت مآذنها ودلنى على طريق مساجدها، وحبب لى سماع علمائها، وجعل صحبتى مع أتقيائها.

* الحمد لله الذى حفظنى طفلاً رضيعًا، وصبيًا غريرًا ثم مميزًا، وشابًا يافعًا، ورجلاً جلدًا، وكهلاً سليمًا .. وأسأله السلامة والعافية فيما بقى من العمر.

* الحمد لله الذى علمنى ما لم أكن أعلم، وعلمنى ما ينفعنى، ونفعنى بما علمنى.

* الحمد لله الذى جعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى، وذهاب همى وغمى.

* الحمد لله الذى حبب إلىَّ الإيمان وزينه فى قلبى، وكرَّه إلىَّ الكفر والفسوق والعصيان .. وأسأله أن أكون من الراشدين.

* الحمد لله الذى استعملنى فى الدعوة إليه فى المحافل وعلى المنابر، وزادنى فضلاً بأن استعملنى فى كتابة الصفحات التى يضمها هذا الكتاب.

* الحمد لله الذى أفادنى من بعد تقواه زوجة صالحة وأبناءً وأحفادًا من البنين والبنات أطعمتهم حلالاً، وربيتهم على تقوى الله والمحافظة على فرائضه .. وأسأله سبحانه وتعالى أن يكونوا نافعين لأنفسهم ولغيرهم فى حياتى، وداعين لى بعد مماتى.

* الحمد لله الذى أورثنى نفسًا مطمئنة: توقن بلقائه، وترضى بقضائه، وتقنع بعطائه.

* الحمد لله قلتها أولاً، وأقولها آخراً، وأسأله سبحانه وتعالى أن أكون فى زمرة الذين اتقوا ربهم ويسوقهم الملائكة إلى الجنة زمراً، وأن أكون من القائلين بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤].

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وأشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* وبعد .. فقد حمدت الله إليك أيها القارئ .. حمداً خاصاً نابعاً من إحساسى الشخصى، وليس حمداً ردده الحامدون من قبلى فى مصنفاتهم، فقد تعلمت الحمد من كتاب الله عز وجل الذى يبدأ بسورة الحمد .. وهو اسم من أسماء سورة الفاتحة ويشيع الحمد فى كل سورة، كما تعلمت الحمد من مأثورات الرسول عليه الصلاة والسلام ومأثورات الصحابة رضوان الله عليهم والصالحين من بعدهم. فآثرت أن أحمد الله سبحانه وتعالى كما حمدوا، واجتهدت فى ذلك كما اجتهدوا، ولم يبق إلا أن أسأل الله جل وعلا كما سألوا أن يصعد إليه هذا الحمد مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ... ﴾ [فاطر: ١٠].

* لقد آليت على نفسى عند كتابة موضوعات هذا الكتاب ألا أتكلف فى الكتابة ولا أتصنع العبارة .. لذلك جاء حمدى لله تعالى على هذا النهج دون ابتداع أو تقليد؛ ليتضح المنهج منذ البداية .. وابتداءً من المقدمة.

* أما عن الكتاب والمنهج .. فهو صحبة مع كتاب الله عز وجل ورحلة مع بعض سوره وآياته .. أثمرت دراسات ولطائف وتأملات قرآنية فى أمور الدعوة إلى الله وأحوال المجتمع الذى نعيش فيه. . لذلك أسميته «**تأملات قرآنية.. في الدعوة.. والمجتمع**»

* **اما عن الدراسات** .. فسوف تجد أيها القارئ الكريم على سبيل المثال، موضوعات عن البركة فى القرآن الكريم، والوجوه فى القرآن الكريم، والإنسان فى القرآن الكريم، والأقسام المنفية فى القرآن الكريم، والفساد .. التشخيص والعلاج كما جاء فى القرآن الكريم، والاستغفار فى القرآن الكريم .. وغير ذلك من الموضوعات.

* **واما عن التاملات** .. فسوف تجد أيها القارئ الكريم على سبيل المثال موضوعات بعنوان .. تأملات فى أطول قسم فى القرآن الكريم، وعذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة، ماذا لو بسط الله الرزق لعباده، وأنه هو أضحك وأبكى، أرأيت الذى يكذب بالدين، إنما يخشى الله من عباده العلماء-وغير ذلك من الموضوعات.

* **واما عن اللطائف** .. فسوف تجد أيها القارئ الكريم على سبيل المثال موضوعات بعنوان .. الإنسان والجان وآلاء الرحمن وعروس القرآن، مبكاة العابدين، يوم التغابن، الافتداء والفرار من أحوال يوم القيامة، وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا، سبحان الله وتبارك الله، وأسئلة لم ترد إجاباتها فى التفاسير، تعال بنا نحاول الإجابة عليها .. وغير ذلك من الموضوعات.

* ولا يمنع هذا التقسيم أن تتضمن الدراسات .. تأملات ولطائف، وأن تتضمن التأملات .. دراسات ولطائف، وأن تتضمن اللطائف .. دراسات وتأملات، لذلك لم أرتب موضوعات الكتاب طبقاً لهذا التقسيم .. تاركاً للقارئ الحق فى أن يضع كل مقالة فى التقسيم الذى يراه مناسباً للموضوع.

* وسوف تلاحظ أيها القارئ الكريم من هذا السرد وبعد قراءة هذه الموضوعات وغيرها مما يتضمنه الكتاب ما يلى :

١ ـ أن المادة الأساسية لموضوعات الكتاب هى آيات القرآن الكريم.

٢ ـ التنوع الواضح لموضوعات الكتاب بما يضمن عدم تسرب الملل لنفس القارئ.

٣ ـ الدخول فى الموضوع مباشرة دون مقدمات طويلة ودون زيادات لا لزوم لها.

٤ ـ أن الأسلوب قد روعى فيه أن يتناسب مع القارئ العادى فلا هو معقد يصعب فهمه إلا على القلة المتخصصة، ولا هو مسرف فى البساطة بما لا يتناسب مع الموضوعات القرآنية والكتابة الدينية فهو «طلّعٌ هضيمٌ» أى يسهل هضمه وفهمه.

٥ ـ الاحتياط الشديد عند التطرق لموضوعات لم يتطرق إليها المفسرون أو عند طرح بعض الأسئلة التى لم يجب عليها الأولون، وذلك إما بتأييد ما ذهبت إليه بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث من السنة المطهرة، وإما بالاقتصار على طرح السؤال دون الإجابة عليه لعدم وجود نص يقطع فى المسألة يمكن الاطمئنان إليه ولكى يُعمل القارئ فكره فيه.

٦ ـ أن كل موضوع يتضمن جديداً، وإلا ما شجعنى ذلك على كتابته .. والجديد إما فى الفكرة، أو فى التناول، أو فى زاوية الرؤية، أو فى المقابلة بين الآيات من سور مختلفة يتولد عنها معنى لم يكن ليظهر لولا هذه المقابلة، أو بتصنيف الآيات الواردة عن موضوع معين فى سور القرآن الكريم، تصنيفًا يعين على الربط بينها مهما كثر عددها ومهما تعددت السور التى وردت بها .. وغير ذلك من ألوان الجديد.

* وأنت أيها القارئ الكريم لك ملاحظات أخرى .. إما للكتاب أو عليه، وقد استهدفتُ من هذه الملاحظات إلقاء بعض الضوء على أسلوب الكتاب وما راعيته عند الكتابة.

* وأنت أيها القارئ الكريم من الدعاة إلى الله لك منى كلمة خاصة. سوف تجد بين دفتى هذا الكتاب ما يعينك على تجديد موضوع خطبتك أو درسك الدينى لأن موضوعاته ليست تقليدية حيث إن جمهور المسلمين قد ملوا الموضوعات المعادة والمكررة، ومع تزايد الوعى الدينى فإن رواد المساجد أصبح هذا التجديد مطلبًا لهم ينبغى أن يلبى لمزيد من الارتباط بينك وبينهم، ولما لهذا الارتباط من فائدة دنيوية وأخروية لك ولهم.

* وأخيراً .. فإن كان الفضل لله تعالى في إعداد هذا الكتاب ونشره .. فإن الله تعالى يقول: ﴿ ... وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ... ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. فإن هناك أفضالاً لأساتذتى وإخوانى فى الله تطوق عنقى ساعدتنى كثيراً فى إعداد هذا الكتاب وشجعتنى على نشره فقد رأوا أن موضوعاته جديرة بالنشر لعل الله ينفع بها وحتى لا أكون من الذين ﴿ يَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴾ [النساء: ٣٧].

* أما عن الأساتذة فهم: الأستاذ الدكتور/ على جمعة محمد أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر بتشجيعه وتوجيهه وإرشاده، وفضيلة الشيخ / ياسين رشدى إمام مسجد المواساة بالأسكندرية بمعايشتى لتأملاته القرآنية وحضورى لبعض دروسه الدينية، والأستاذ / سيد حامد رئيس جمعية تبليغ الإسلام بالأسكندرية باستماعه لموضوعات هذا الكتاب وملاحظاته الحكيمة وتصويباته القيمة.

* أما عن إخوانى فى الله فهم كثير أذكر منهم: نبيل البلك، وإسماعيل حسين، وزغلول محمود، وحازم عبد الحليم، ونصر عطية، ومحمد عبد المجيد، ونبيل دويدار.

* وما دمنا فى مقام الفضل فلا أنسى ما حييت فضل من دلانى على الطريق إلى الله عز وجل.. وهما فضيلة الشيخ على عبده إسماعيل - رحمة الله عليه - وفضيلة الشيخ الأستاذ محمد حسين.. أسأل الله تعالى أن يجزيهما عنى خيراً..

وأسأل الله عز وجل أن ينتفع المسلمون بهذا الكتاب، وأن يجعله فى ميزان حسناتى يوم القيامة، وأن يديم علىَّ نعمته.. وكفى بالإسلام نعمة.

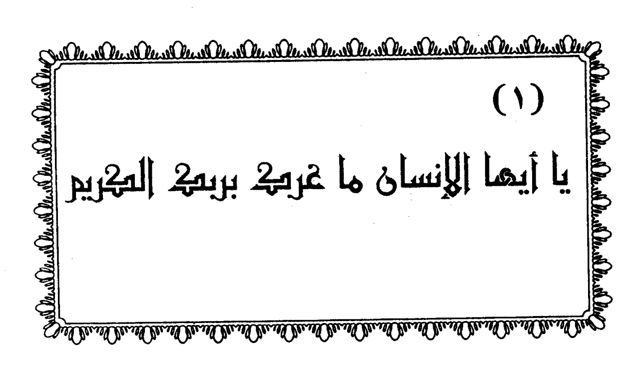
محمد عبد العظيم الجوهرى

الأسكندرية فى

جمادى الآخرة ١٤١٨ هـ

أكتوبر ١٩٩٧م





(١)

يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

تعريف الاغترار :

هو الزيغ عن حقيقة الشيء، وتصور هذه الحقيقة تصوراً خاطئاً، وينبنى على هذا التصور الخاطئ أقوال وأفعال خاطئة.

وإذا كان الاغترار اسم فإن الفعل هو غر، يغر، غروراً.

فمن الفاعل، ومن المفعول على ضوء ما جاء بآيات القرآن الكريم ؟

الفاعل .. هو الشيطان الرجيم .. فهو الغَرور.

والمفعول .. هو الإنسان .. فهو المغتر.

ولسنا هنا بصدد إعراب آية من آيات القرآن الكريم، ولكننا بصدد حصر أطراف هذا الموضوع لمزيد من الفهم والإيضاح، وبالتالى نستطيع أن نقول :

أن الغرور (الفاعل) يغر (الفعل) المغتر (المفعول به) لكى يتصور الشيء على غير حقيقته بهدف إضلاله عن الحق إلى الباطل، وعن الخير إلى الشر، وعن ما ينفع إلى ما يضر. فإذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص نقول أن الغرور يغر المغتر بهدف إضلاله عن الإيمان إلى الكفر، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن الرشد إلى الغى، وعن الإخلاص إلى الرياء .. وهكذا.

فما هى المجالات التى يسعى الشيطان أن يجعلها موضوعاً للاغترار لكى يتصورها الإنسان على غير الحقيقة ؟

أولاً : الاغترار بالله :

مصداقاً لقوله تعالى :

* ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦].

* ﴿ ... وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤].

* ﴿ ... وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣]، [فاطر: ٥].

والاغترار بالله له صور مختلفة مثل :

١ ـ إنكار وجود الله .. وهو الإلحاد.

٢ ـ أن يُشرك مع الله فى العبادة آلهة أخرى .. وهو الشرك.

٣ ـ الطمع فى ثواب الله مع الأمن من عقابه .. وهذا يتنافى مع المعرفة الحقة لله الذى عرَّف لنا نفسه فى قوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] ويتنافى مع الصورة الصحيحة للعبادة والتى تتضح من وصف الله لمن يعبدونه حق العبادة فى قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

[السجدة: ١٦].

٤ ـ إساءة الأدب مع الله :

وهو ما قاله اليهود :

* ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

* ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ... ﴾ [المائدة: ٦٤].

٥ ـ نسبة الولد لله .. وهو ما قاله اليهود والنصارى، وأنهم أبناء الله وأحباؤه :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾.

[التوبة: ٣٠].

* ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ... ﴾ [المائدة: ١٨].

والله سبحانه وتعالى هو الغيب الأكبر .. لذلك يكون الاغترار به عن طريق

الشيطان (الغَرور) مباشرة دون وسائط .. مثل الاغترار بالدين لأنه غيب أيضاً.

ثانيًا : الاغترار بالدين :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣، ٢٤].

والإشارة فى الآيات إلى اليهود .. إنهم يتولون عن حكم كتاب الله ويعرضون عنه بحجة أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودوات دون أن يكون لديهم دليل من كتاب الله على ذلك.

ومن الغريب أن من غرهم الشيطان فى دينهم يصفون من عرفوا دينهم حق المعرفة بأن دينهم قد غرهم .. إنه كيد الشيطان الذى لا يشمر إلا مع المنافقين والذين فى قلوبهم مرض .. واستمع إلى قوله تعالى تعقيباً على وقائع غزوة بدر.

* ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٨، ٤٩].

ثالثًا : الاغترار بالدنيا :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ ... فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... ﴾ [لقمان: ٣٣]، [فاطر: ٥].

لأن الدنيا ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فمن لم يستجب لتحذير الله له فى الدنيا، كان له فى الآخرة سوء العاقبة

مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٤، ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

* ولقد وصف الله لنا الحياة الدنيا في كثير من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

* وأكد هذا الوصف بهذا المثل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

* ويعيب الله على من يؤثرون الحياة الدنيا رغم كل هذه الأوصاف والأمثال فالآخرة خير وأبقى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

[الأعلى: ١٦، ١٧].

* ويؤكد الله أن الآخرة خير وأبقى بأنها حقيقة ينبغي أن يدركها كل ذي عقل وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

* ولو استطردنا في ذكر الدنيا وأوصافها ما انتهينا فقد ذكرها الله في القرآن

الكريم ١١٥ مرة، ورغم ذلك فقد غرت الدنيا أكثر الناس. غرتهم بذاتها فهى مزينة في ذاتها، ومزينة في نفوسهم، ومزينة بوسوسة الشيطان .. يقول تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾.

[آل عمران: ١٤].

* ولم يقتصر اغترار الناس بالدنيا على حبها وإيثارها على الآخرة ولكنه امتد إلى وصفها على غير حقيقتها التى عرّفها لنا الله بأنها ابتلاء وأن الآخرة هى الجزاء .. فقد قال المغترون بها:

* ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩].

* ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾.

[المؤمنون: ٣٧].

* ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾.

[الجاثية: ٢٤].

رابعًا: الاغترار بالأمانى:

مصداقًا لقوله تعالى:

* ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤].

والذى ينادى هم المنافقون والمنافقات يوم القيامة والمنادَى هم المؤمنون، حيث يطلبون فى ندائهم أن يقتبسوا نوراً من نور المؤمنين، فيكون رد المؤمنين عليهم كما جاء فى الآية فقد منّاهم الشيطان بشتى الأمنيات وغرهم بالله ثم خذلهم !!

* ولقد كان لهم فى موقف الشيطان من أبيهم آدم وأمهم حواء عبرة وعظة وتذكرة ولكن أنّى لهم الذكرى !!

يقول تعالى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ١٩ - ٢٢].

لقد منّاهم الشيطان بأن يكونا ملكين وأن يكونا من الخالدين إذا أكلا من الشجرة، وغرهما بالله بأن أقسم بالله أنه لهما لمن الناصحين، فاغترا بالأماني واغترا بقسمه لهما بالله، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾.

* إن التمني من طبيعة الإنسان مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴾ [النجم: ٢٤، ٢٥].

أي أن الأمور لا تجرى بالأمنيات ولكنها تجرى بالمقادير التى قدرها الله فهو الأول والآخر وله الأولى والآخرة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

هذه هى مقادير الله للإنسان وهذا هو نظامه وسنته التى لا تتبدل ولا تتحول مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر: ٤٣].

* والأمانى هى الثغرة التى ينفذ منها الشيطان للإنسان لكى يغره فى الله وفى الدين وفى الدنيا فقد قال ـ لعنة الله عليه ـ لله عز وجل: ﴿ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ

﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾.

[النساء: ١١٨ - ١٢٠].

* وهى الثغرة التى نفذ منها إلى آدم وحواء كما أوضحنا من قبل، وينفذ منها إلى بنى آدم جميعًا حتى الأنبياء والرسل، إلا أن الله سبحانه وتعالى يحفظ أنبياءه ورسالته التى يبلغونها للناس وينسخ ما يلقى الشيطان فى أمنياتهم لكى تصل رسالته طاهرة نقية ومحكمة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

* فما الذى يتمناه الأنبياء والرسل ؟

يتمنون أن يهتدى أقوامهم إلى الله ـ تعالى ـ ويسلموا وجوههم إليه ويستجيبوا لدعوة الحق، ويخرجوا من ظلمات الكفر والشرك والمعصية إلى نور الإيمان والتوحيد والطاعة.

وهل هناك مثل من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام تطبيقًا لهذه الآية ؟ (الآية ٥٢ من سورة الحج) .. نعم .. لقد جاء المثل فى سورة «عبس» .. فقد تمنى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يُسلم كبار القوم من كفار قريش وروى عنه أنه قال: «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين» ـ أى بإسلام عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام (أبو جهل) .. ومن هنا كان حرصه على دعوة هؤلاء الكبار وتمنيه أن يسلموا. ومن هذه الأمنية نفذ الشيطان فعبس الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتولى عن الأعمى وهو عبد الله بن أم مكتوم. انصرف عمن جاءه يسعى وهو يخشى إلى من سعى هو إليهم وهم غير راغبين فيه وفيم يدعو إليه .. فنزلت السورة للتصحيح ولنسخ ما ألقاه الشيطان فى أمنية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولتلقى هذا الدرس الهام من دروس الدعوة إلى الله .. كل ذلك فى إطار من العتاب الرقيق من

الله ـ تعالى ـ لأن أمنية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم تكن أمنية شخصية لمصلحته ولكنها كانت لمصلحة الدعوة .. فما كان من صاحب الدعوة إلا أن أحكم آياته وأنزل توجيهاته.

* وإذا كان التمني من طبيعة الإنسان .. فليس مطلوبًا منه إلغاء هذه الطبيعة ولكن عليه فقط أن يحذر من إلقاء الشيطان فيها ويجعل أمنياته مشروعة.

والأمنيات المشروعة هي كل ما طلبه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى أدعيته المأثورة، وكل ما جاء من أدعية فى القرآن الكريم على لسان الأنبياء والرسل، وكذلك ما أثر عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعباد الله الصالحين من أدعية.

أما الأمنيات غير المشروعة فهى محظورة لأنها من إلقاء الشيطان، ومن أمثلتها فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ويستكمل الله توجيهه في نفس الآية ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.

[النساء: ٣٢].

ومن أمثلتها فى السنة المطهرة ما يرويه أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى» متفق عليه.

خامسًا : الاغترار بزخرف القول :

مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

* والزخرف هو الزينة، والزينة تكون للأشياء والأقوال، وزينة الأشياء مرئية، وزينة الأقوال مسموعة، والبصر والسمع هما الحاستان الأساسيتان اللتان تُدرك بهما

المدركات. إذًا فالزخرفة تكون لتزيين الأشياء لتُقْبل عليها الأبصار وأصحاب هذه الأبصار، وتكون لتزيين الأقوال لتُقْبِل عليها الأسماع وأصحاب هذه الأسماع.

وبالتالى يكون القول .. هو شطر ما يُزَيَّن للناس، وقد يكمن الاغترار خلف زخرف القول كما يُدَس السم فى العسل، وتكون الزخرفة وسيلة الاغترار بالقول مثلما يكون العسل وسيلة لابتلاع السم.

* وزخرفة الأقوال هى الوسيلة الثانية التى يستخدمها شياطين الجن والإنس للتغرير بالإنسان إذا لم تجد معه الوسيلة الأولى وهى زخرفة الأشياء، أو إذا كانت زخرفة الأقوال هى الوسيلة المناسبة للحالة مثلما حدث مع آدم وحواء فى الجنة، لأن من كان فى الجنة التى زخرفها الله ولا ينقصها شىء مما يحتاجه آدم وحواء .. لا مجال لزخرفة الأشياء، والوسيلة المناسبة للتغرير هى زخرفة الأقوال .. وهو ما حدث من إبليس ـ لعنة الله عليه ـ وكان ما كان بعد ذلك.

* وزخرفة القول كوسيلة لشياطين الجن والإنس للتغرير بالإنسان جديرة بالالتفات والاهتمام رغم أنها لم تذكر سوى مرة واحدة فى القرآن الكريم فى هذه الآية من سورة الأنعام (الآية ١١٢) .. فليحذر الإنسان من زخرف الأقوال كما يحذر من زخرف الأشياء .. وهذا التحذير يُفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

والفؤاد هو وسيلة التمنى التى عالجناه فى البند السابق.

سادسًا : الاغترار بتقلب الذين كفروا فى البلاد :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

* ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾. [غافر: ٤].

* والتقلب فى البلاد دليل على علو الشأن وكثرة الأرزاق والتمتع بزينة الحياة الدنيا أينما كانت .. ولا يكون ذلك للفقراء والمساكين، فالفقير يعجزه فقره والمسكين ما سمى مسكينًا إلا لأن الفقر أسكنه عن الحركة والتنقل. فإذا رأى المؤمنون تقلب الذين كفروا فى البلاد قد يغرهم ذلك وتتجاذبهم الأفكار ووساوس الشيطان فى شأن الحق الذى هم عليه، وخاصة إذا كانوا فقراءً أو مساكين فيحدثون أنفسهم ويتساءلون لماذا أعطى الله الذين كفروا ما أعطاهم ومكنهم من التقلب فى البلاد والتمتع بزينة الحياة الدنيا والمؤمنون أولى منهم بذلك؟! .. فيعاجلهم الله بما يبدد هذه الوساوس من نفوسهم ويقول لهم أن ما فيه هؤلاء متاع قليل فى دار الفناء ومأواهم بعد ذلك جهنم فى دار البقاء.

* فأين الآن فرعون الذى تقلب فى البلاد بسلطانه؟ وأين قارون الذى تقلب فى البلاد بماله ؟

إن التجارة التى بين الله - تعالى - والمؤمنين هى الآخرة وليست الدنيا .. تلك هى التجارة الرابحة، وأن سلعة الله هى الجنة مصداقًا لقوله الرسول عليه الصلاة والسلام: «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة» رواه الترمذى عن أبى هريرة ﷺ.

وقوله ﷺ « إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا من أحب » رواه أحمد عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

* .. وبعد .. فقد استعرضنا فيما سبق صور اغترار الإنسان كما جاءت فى القرآن الكريم وتبين لنا أن فاعلها هو الشيطان الرجيم .. إما مباشرة إذا كان موضوع الاغترار هو الغيبيات (الله - الدين)، وإما بطريقة غير مباشرة (الدنيا - الأمانى - زخرف القول - تقلب الذين كفروا فى البلاد) مع الاستعانة فى ذلك بأوليائه من شياطين الإنس .. أعاذنا الله من شياطين الجن والإنس جميعًا.

فليحذر الإنسان من كل ذلك، وليعبد الله خوفًا وطمعًا .. لأن من عبد الله خوفًا

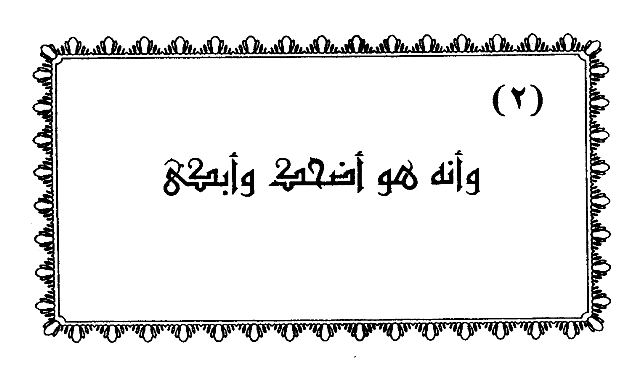
فقط أورثه الله ذلك اليأس والقنوط، ومن عبد الله طمعًا فقط أورثه ذلك الاغترار بالله.

* وختامًا لهذا البحث .. نذكر هذه القولة العبقرية للصحابى الجليل عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «كفى بالخشية علمًا، وكفى بالاغترار جهلاً».

فمن خشى الله فقد علِم، ومن اغتر فقد جَهِل.







(٢)
وأنه هو أضحك وأبكى



يقول تعالى فى سورة النجم :

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾.

[النجم: ٤٢ - ٤٩].

لقد عرّفنا الله بذاته العلية وبأسمائه وصفاته وأفعاله من خلال آيات القرآن الكريم، وزادنا الرسول عليه الصلاة والسلام تعريفاً بالله من خلال كثير من الأحاديث النبوية، وعلمنا من العلماء أن أشرف العلوم هو العلم بالله، وأن أعرف الناس بالله هم أخشاهم له مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقارئ القرآن قد مر عليه قبل قراءة سورة النجم الكثير من أسماء وصفات وأفعال الله عز وجل التى وردت فى هذه السورة، فإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ فقد قرأ فى سورة العلق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ [العلق: ٨]، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ فقد قرأ فى سورة آل عمران - وفى غيرها من السور - قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٦]. وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ فقد قرأ فى سورة الحجرات قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات: ١٣]، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ فقد قرأ فى سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ فقد قرأ فى سورة التوبة قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴾ [التوبة: ٢٨]، ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٨]، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ

الشِّعْرَىٰ﴾ فقد قرأ قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤] .. وهكذا الأمر فى غير ذلك من الآيات. ولكن هل قرأ قبل ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾.

إنها المرة الأولى التى يلتقى فيها قارئ القرآن بهذا المعنى من أفعال الله سبحانه وتعالى وهو يعنى أن من ضحك فإن الله هو الذى أضحكه، وأن من بكى فإن الله هو الذى أبكاه ..

وقبل قراءة هذه الآية قد يظن الضاحك أو الباكى أن الضحك أو البكاء لبساطتهما كشأن من شئون الإنسان اليومية .. ليس لله شأن بهما، ولكنه يكتشف بعد القراءة أنه حتى الضحك والبكاء من أمر الله وبمشيئة الله، وإذا كان الأمر كذلك فسوف يتأكد له أكثر من ذى قبل أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن شأن الله يشمل البسيط والعظيم من شئون الخلق والمخلوقات، وأن قيوم السماوات والأرض لا يند عن سلطانه وأمره ومشيئته شىء .. حتى ضحك الضاحك، وبكاء الباكى، فإذا شاء ضحك، وإذا شاء بكى، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وتأكيدًا لهذا المعنى فقد ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام دعاء مأثور .. فإذا رأيت أخاك ضاحكًا فقل له: «أضحك الله سنك» رواه البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص ﷺ .

من هذا الدعاء المأثور نعرف أن الضحك من الله وأنه مما يسأله العبد من ربه لنفسه أو لغيره. وبالنسبة للبكاء فهو أيضًا من الله وتأكيدًا لهذا المعنى فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد ﷺ قال: «أرسلت ابنة النبى ﷺ (زينب) إليه أن ابنًا لها فى الموت فأتنا، فأرسل يقرئ السلام ويقول: إن لله ما أخذ ولله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبى بن كعب، وزيد بن

ثابت، ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تقعقع كأنها شن وفاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

من هذا الحديث نعرف أن البكاء وما يصاحبه من دموع تذرفها العيون ما هو إلا رحمة جعلها الله في قلوب عباده ويعرف ذلك كل من ذرف الدموع فى مثل هذه المواقف وكيف هدأت نفسه بانسيابها، ويعرف ذلك أكثر من استعصت عليه الدموع فلم تطاوعه وتحجرت فى مآقيه فلا تهدأ نفسه حتى يمن الله عليه بانسيابها .. حقًا إنها رحمة من الله.

* ولو تابعنا مسيرة الإنسان مع الضحك والبكاء .. نجد أن مسيرته تبدأ بالبكاء عند نزوله من بطن أمه، وللأطباء تفسيرات طبية لهذا البكاء فهو إعلان بميلاد المولود حيًا، وهو يساعد على امتلاء رئة المولود بالهواء، وهو بكاء ناتج عن اختلاف البيئة التى كان فيها المولود والبيئة التى خرج إليها .. وغير ذلك من الأسباب .. وللشعراء تفسيرات أخرى فيقول ابن الرومى ساخرًا.

لمَا تؤذن الدنيا به من صروفها	يكون بكاء الطفل ساعةَ يولـدُ
وإلا فمـا يبكيـه منهـا وإنهـا	لأرحب مما كان فيـه وأرغـدُ

وبعد ذلك يصبح الضحك والبكاء بالنسبة للطفل .. اللغة الوحيدة التى يتعامل بها مع أمه فإذا ضحك فإن هذا يدل على شبعه ونظافته وسلامته من أية أوجاع، وإذا بكى فإن هذا يدل إما على جوعه، أو بلل لفائفه، أو وجع يعانى منه أو كل ذلك فتهرع إليه أمه لإرضاعه، أو تغيير لفائفه، أو إعطائه الدواء المناسب لأوجاعه .. وهى تعرف كل ذلك بخبرتها وفطرتها وخاصة إذا تكرر حملها وولادتها. وتظل هذه هى لغة التفاهم والتخاطب بين الأم ووليدها حتى يتعلم الكلام ويستغنى بعد ذلك عن لغة الضحك والبكاء.

ويشب الطفل بعد ذلك فيصبح صبيًا أو صبية، ثم فتى أو فتاة، ثم رجلاً أو

امرأة، ويصبح الضحك دليلاً على الرضا، ويصبح البكاء دليلاً على الغضب، كما يصبح الضحك دليلاً على الفرح والسرور، ويصبح البكاء دليلاً على الحزن والألم، فالحياة لا تسير على وتيرة واحدة حيث يتقلب حال الإنسان بين السراء والضراء، والفرح والحزن، والرخاء والشدة، واليسر والعسر، والخير والشر .. فهو مبتلى بهذا وذاك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

[الأنبياء: ٣٥].

* والضحك عند السراء، والبكاء عند الضراء دليل على استواء النفس، وهو ظاهرة صحية تدل على سلامة المشاعر والعواطف، وبالتالى يمكن القول أن عدم الضحك عند موجبات الضحك، وعدم البكاء عند موجبات البكاء يعتبر ظاهرة مرضية، وتشتد هذه الظاهرة المرضية عند الضحك حيث يجب البكاء، وعند البكاء حيث يجب الضحك .. وإن كان يحدث أحيانًا ــ واستثناءً من القاعدة ــ أن تنساب من العين دموع الفرح وهو أمر طبيعى وليس مرضيًا.

* والضحك والبكاء لا ينبغى أن ينظر إليهما نظرة ظاهرية، فليس الضحك فمًا يُفتح وصوتًا يرتفع، وليس البكاء دموعًا تنساب على الخدود ونشيجًا يخرج من الصدور، ولكن الضحك والبكاء ما هما إلا أثر من آثار تصاريف قدر الله عز وجل فى العباد، والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الستة، وإيمان المؤمن بأن الضحك من الله الذى أضحك وبأن البكاء من الله الذى أبكى .. ما هو إلا إيمان بقضاء الله وقدره .. خيره وشره، حلوه ومره. لذلك لا يدخل الضحك من نكتة تلقى، ولا البكاء من بصلة تقطع ضمن المعنى المقصود من الآية. وهذا لا يمنع من إباحة الدعابة اللطيفة مثلما كان يفعل الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فيدخل عليهم السرور.

* وحيث أن الضحك والبكاء من الله فإن له ضوابطه الشرعية فى الدين، فإن كان الضحك من دعابة فلا ينبغى أن تتضمن إلا حقًا مع التزامها بالأدب وحسن الخلق وتروى لنا أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مُستجمعًا

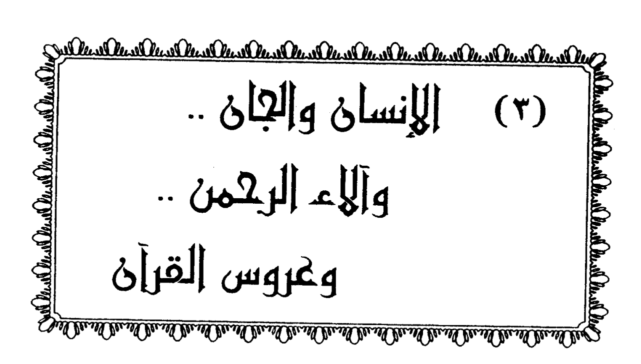
قطُّ ضاحكًا حتى ترى منه لهواته إنما كان يتبسم» متفق عليه. واللهوات: جمع لهاة، وهي اللحمة التي في أقصى الفم. ويروى لنا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: أوصني فأوصاه بكثير من الوصايا ومن بينها: «إياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب، ويذهب بنور الوجه» رواه أحمد، والطبراني، وابن حبان في صحيحه، والحاكم واللفظ له.

وأما عن ضوابط البكاء فيروى ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذهب هو وبعض أصحابه لعيادة سعد بن عبادة رضي الله عنه في مرض موته فلما دخل عليه وجده في غشية فقال: «أقُضِيَ». قالوا: لا يا رسول الله، فبكى رسول الله فلما رأي القوم بكاء النبي عليه الصلاة والسلام بكوا. قال: ألا تسمعون، إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا ـ وأشار إلى لسانه ـ أو يرحم» متفق عليه.

فلا ينبغي أن يُخرج البكاء والحزن المؤمن عن حد الاعتدال أو يتكلم إلا بما يرضى الله تعالى فلا اعتراض ولا هلع، ولكن بكاء من العين، وحزن في القلب، وصبر واحتساب. وتأكيدًا لهذا المعنى يروى لنا ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية» متفق عليه. فإن ضرب الخدود وشق الملابس وتمزيقها من الجيوب ـ أي من فتحة العنق ـ من مظاهر الحزن المبالغ فيه والمنهى عنه علاوة على التكلم بما كان يقال في الجاهلية وقبل الإسلام وبما يتنافى مع عقيدة التوحيد. والأحاديث التي تُروى عن ضوابط الضحك والبكاء كثيرة ونكتفي منها بهذا القدر.

* ولعلنا بعد هذا السرد وهذا التأمل في هذه الآية التي لا تتجاوز كلمات أربع نكون قد تعرفنا على الله بفعل من أفعاله لم يرد ذكره إلا في هذه الآية حتى نوقن بأن الأمر كله لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله .. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ مثلما أنه هو القابض الباسط، وهو الخافض الرافع، وهو المعز المذل، وهو المبدئ المعيد، وهو المحيي المميت، وهو المقدم المؤخر، وهو الأول الآخر، وهو الظاهر الباطن، وهو الضار النافع .. هو الله.





(٣) الإنسان والجان ..
وآلاء الرحمن ..
وعروس القرآن

يقول تعالى فى مطلع سورة الرحمن :

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ [الرحمن: ١ - ١٢].

* يكفى هذه السورة شرفًا أنها مسماة باسم الذات الإلهية .. الرحمن، ومبدوءة بهذا الاسم من أسماء الذات، وعلى هذا الاسم من حيث اللفظ يضبط إيقاع السورة وموسيقاها العلوية الشجية، وعلى هذا الاسم من حيث المعنى يدور موضوع السورة. فموضوعها رحمة الرحمن وصور هذه الرحمة، ونعم الله الذى يُذَكِّر بها قارئ السورة إحدى وثلاثين مرة فى قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .. والآلاء هى النعم .. ومفردها إِلْىٌ وأَلْىٌ.

* ويلفت النظر فى بداية السورة أن الآيات الخمس الأولى ليس بينها حرف العطف «الواو» فإنها متلاحمة ومتماسكة وكأن ما بينها من تجاوب وتآلف يجعلها فى غنىً عن أن يقوم بينها عاطف يعطف بعضها على بعض، ويجمع بعضها إلى بعض.

* كذلك نجد أن كل آية من هذه الآيات الخمس وكأنها تتضمن سؤالاً محذوفًا نجد إجابته فى الآية التى تليها، والآية التى تليها رغم أنها إجابة لما قبلها فإنها فى نفس الوقت تتضمن سؤالاً محذوفًا نجد إجابته فى الآية التى تليها .. وهكذا .. وذلك على الوجه التالى :

﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ .. ما شأنه؟ وما مظاهر رحمته؟ .. ذاك سؤال.

﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ .. وهذا جواب يقوم وراءه سؤال .. كيف علم القرآن؟

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ .. وهذا جواب يثير سؤالاً .. وماذا بين خلق الإنسان وتعليم القرآن؟

﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ .. وهذا هو الجواب فبالبيان الذى علمه الله للإنسان .. تعلم القرآن. ومن وراء هذا الجواب سؤال .. وأى شىء يقرؤه هذا الإنسان الذى خلقه الله مستعدًا للقراءة والبيان لما يقرأ؟ .. والجواب هو أن الإنسان عليه أن يقرأ آيات الله فى الكون (الآيات الكونية) وآيات القرآن الكريم (الآيات التنزيلية) .. والآيات التنزيلية تذكر بعض آيات الله الكونية ومنها: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾.

* كما يلفت النظر فى هذه الآيات الخمس الأولى من السورة .. تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان. ويرجع ذلك لأن الإنسان خلق لمعرفة الله وعبادته مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فمعرفة الله وعبادته هى العلة.

وخَلْقُ الإنسان ليقوم بوظيفة هذه المعرفة والعبادة هو معلول هذه العلة، والعلة مقدمة على معلولها ولهذا قُدِّمَ ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ على ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾.

* والقرآن .. هو القراءة الواعية فى صحف الوجود وفى كتب العلم وأجلُّها وأعظمها القرآن الكريم. وبعد القراءة الواعية يلزم للإنسان أن يعبر عن نفسه لذلك ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ وأصل هذا التعليم قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. ولنقرأ فيما يلى ما علمته لنا السورة من قراءة فى صحف الوجود.

* ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾.

وهل يخفى القمر؟ .. لقد صدق من قالها، لأن آية القمر لا تخفى على أحد .. قل علمه أو كثر، وكذلك الشمس فهى أكبر، ولكل إنسان نصيبه من هذه المعرفة التى أقلها أنه بالشمس يُعرف الليل والنهار وأوقاتهما بالساعة وأجزائها، وبالقمر تُعرف الأيام والشهور مع دورة القمر مع الهلال إلى المحاق مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٢]. ولا حدود حاليًا ولا مستقبلاً لهذه المعرفة بعد أن امتلأت أجواز الفضاء بالأقمار الصناعية والمحطات الفضائية، ورواد الفضاء الذين خطا أحدهم أول خطوات للإنسان على سطح القمر منذ سنوات، ولا ندرى ما تحمله لنا السنوات القادمة من علم جديد عن عالم الفضاء والأجرام السماوية.

وكما تبدوا لنا الشموس والأقمار والنجوم بالعين المجردة أو بالأجهزة العلمية وكأنها تنبت فى الفضاء وتظهر أحيانًا وتختفى أحيانًا أخرى، فإن الأرض صفحة أخرى من صفحات الوجود أقرب إلينا وندب عليها ولا يخفى على أحد ما ينبت فيها من نبات .. حيث النبات نوعان:

الأول .. النجم وهو النبات الذى ليس له ساق مثل الحشائش.

الثانى .. الشجر وهو النبات الذى له ساق مثل الأشجار التى نراها مثمرة وغير مثمرة ولها ساق وفروع وأغصان تشتجر وتمتلئ بالأوراق. وكل ما ينبت فى السماء من شموس وأقمار ونجوم، وكل ما ينبت في الأرض من نجم وشجر .. يسجد لله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

*** ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑨ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾.**

كل ما علاك فهو سماء، فمن لم ير من السماء شيئًا .. لا شمسًا ولا قمرًا وهذا مستحيل، فإنه يرى السماء ذاتها ويرى أنها مرفوعة بغير أعمدة تحملها، وكذلك من لم ير من الأرض شيئًا .. لا نجمًا ولا شجرًا فإنه يرى الأرض ذاتها لأنه يدب عليها، وارتفاع السماء بميزان، واستواء الأرض بميزان، وما يحيط بالغلاف من غازات وأبخرة بميزان، وما يحوم حول الأرض من رياح بميزان .. وكل شيء فى هذا

الكون بميزان وله حدود لا يتجاوزها ووظيفة يؤديها دون اختلاط أو تداخل أو تقاطع يؤدى إلى الارتباك. وحتى ينسجم الإنسان مع هذه الحركة الدائبة والهائلة والمنضبطة لهذا الكون .. عليه أن يؤدى وظيفته ولا يتجاوز حدوده مثلها، وميزانه فى ذلك القرآن الذى تعلمه من صفحات الكون ومن صفحات كتاب الله .. القرآن الكريم، وإلا شذ عن هذا النظام الكونى البديع، وأصبح كالنغمة النشاز فى اللحن الجميل، أو كالترس الذى يدور فى اتجاه معاكس لاتجاه آلة الكون المنضبطة، فهى ماضية فى اتجاهها الصحيح، وهو الذى يعانى من دورانه العكسى.

* ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

إن كل ما سبق من آيات هى من نعم الله ـ تعالى ـ على الإنسان .. ابتداءً من خلقه، إلى تعليمه القرآن والبيان، إلى خلق السماوات والأرض وما فيهن. ثم يتوالى ذكر نعم الله ـ سبحانه ـ فى السورة فى تفصيل بديع، وفيها أنه لم يخلق الضرورات فقط من الطعام و الشراب ولكنه خلق أيضًا للإنسان ما يتفكه به من فاكهة مثل ثمرات النخيل. ولم يخرج له من الأرض النبات مثل الحبوب لكى يملأ بها بطنه فقط، ولكنه أخرج له أيضًا من الأرض ما تطيب به روحه من النباتات ذات الروائح الزكية مثل الزهور والورود والرياحين. فكما يخلق الله ـ عز وجل ـ ضرورات الحياة كغذاء الأجسام، فإنه يخلق معها لمسة الجمال كغذاء للأرواح .. وتأمل تسمية الروائح الزكية بالريحان وعلاقة هذه التسمية بالروح.

ثم يجيء السؤال المتكرر فى السورة عقب كل نعمة وهو قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .. أى فبأى نعم الله تكذبان .. والخطاب للإنسان والجان. ومما يُذكر فى هذا الصدد ما رواه الترمذى عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم كنت كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد.

وعلينا نحن معشر الإنس أن نردد مع هذا النفر من الجن المؤمن هذا القول الطيب، وهذا الإقرار الواجب.

نعمة الفناء والبقاء :

ورد فى هذه السورة آيات تُذَكِّر الإنسان والجان بنعم الله عليهما، منها ما هو واضح أنه نعمة، ومنها ما قد يتساءل قارئ السورة .. وهل هذه نعمة؟ .. مثل نعمة الفناء المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٨]. ومثل قوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾[الرحمن: ٣١]، ومثل قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾[الرحمن: ٣٥]، ومثل قوله: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾[الرحمن: ٤١]، ومثل قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾[الرحمن: ٤٣ - ٤٤]. وسوف نكتفى بتوضيح نعمة الفناء كنموذج من نماذج النعم التى قد يتبادر لذهن قارئ السورة أنها ليست بنعمة .. وذلك على الوجه التالى :

١ - نعمة الفناء تبدو لنا جلية لو تصورنا أن كل حى لا يموت حتى تقوم الساعة، فهل كانت الأرض تتسع لكل الأحياء من إنسان أو حيوان أو طيور أو حشرات أو أسماك .. حيث تولد المواليد ولا يموت الأحياء؟! .. هل يتحمل ظاهر الأرض هذا؟ وهل تكفى الأقوات كل الأحياء؟ وهل .. وهل .. وهل؟! إن مجرد طرح هذه الأسئلة ومثلها ودون الإجابة عليها يوضح لنا أن الفناء نعمة عظيمة وحكمة بالغة .. واستمع إلى قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١، ٢]

* ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

وتأمل نعمة المنعم، وحكمة الحكيم .. الذى خلق الموت والحياة، وجعل الأرض كفى الأحياء فوقها والأموات تحتها.

٢ - كما تبدو لنا نعمة الفناء جلية إذا تذكرنا أن بعد هذه الحياة الدنيا الفانية، الحياة الآخرة الباقية .. وهى بالنسبة للمؤمن جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، وكما جاء فى هذه السورة من ألوان النعيم فى الجنة ونذكر منها قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٣١ - ٥٩].

وإلى جانب هذا النعيم فهناك رفقة الأنبياء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وقبل ذلك نعمة عظمى هى رؤية المنعم سبحانه وتعالى، ولا يحول بين المؤمن وكل ذلك إلا أنه لا يزال حيًا وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»** رواه مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه.

٣ - يضاف إلى نعمة الفناء، نعمة البقاء ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾، فهو الباقى سبحانه وتعالى، وفى بقائه الضمان لاستمرار وانتظام السنن التى أرادها الله لهذا الكون ومنها سنة الموت والحياة، والضمان لتحقق ما وعد الله به عباده الصالحين فى الحياة الآخرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٩].

كل يوم هو فى شان:

وقبل أن نغادر هذه السورة الكريمة التى تسمى عروس القرآن. فقد روى على بن أبى طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لكل شىء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن»** مقدمة السورة فى تفسير القرطبى. قبل أن نغادرها نقف لنتأمل قوله تعالى:

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وسوف نكتفى فى تأمل هذه الآية بسرد بعض النصوص.

١ ـ عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فى معنى قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾: إن من شأنه ـ سبحانه ـ أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين».

٢ ـ وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فلم يعرف معناها، واستمهله إلى الغد، فانصرف كئيبًا إلى منزله فقال له غلام أسود ما شأنك؟ فأخبره فقال له: عد إلى الأمير فإنى أفسرها له فدعاه وقال:

«أيها الأمير .. شأنه أن يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل، ويخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى، ويشفى سقيمًا، ويسقم سليمًا، ويبتلى معافى، ويعافى مبتلى، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويفقر غنياً، ويغنى فقيراً».

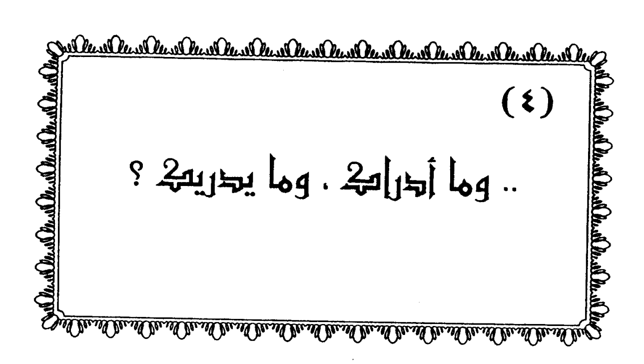
فقال له الأمير: فَرَّجت عنى فرَّج الله عنك. ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام.

فقال الغلام: يا مولاى، هذا من شأن الله تعالى.

وليس هذا التبدل والتحول فى أحوال الناس، وفى صور الموجودات هو ما يحدثه الله سبحانه حين يحدث، وإنما هى أمور واقعة فى علم الله القديم، ومسطورة فى كتابه المكنون، فيُظهر منها ما يُظهر فى الوقت المقدور له، وعلى الصورة التى أرادها سبحانه وتعالى أزلاً. أو كما قال عز وجل: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].

وصدق من قال: «إنها أمور يبديها ولا يبتديها».





(٤)

.. وما أدراك . وما يدريك ؟

يقول الفراء : كل ما فى القرآن من قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ .. فقد أدراه، (يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام) وما كان من قوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ .. فلم يدره.

وإذا رجعنا إلى هذه الآيات فى كتاب الله ـ تعالى ـ نجد الآتى :

آيـــات ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ :

أولاً : آيات عن يوم القيامة وما يتعلق بها :

١ ـ ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ [الحاقة: ١ - ٣].

٢ ـ ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٢٦ - ٣٠].

٣ ـ ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ [المرسلات: ١٣، ١٤].

٤ ـ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩].

٥ ـ ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ [المطففين: ٧ - ٩].

٦ ـ ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ١٨ - ٢١].

٧ ـ ﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١ - ٣].

٨ ـ ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٩ - ١١].

٩ ـ ﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ [الهمزة: ٤ - ٧].

ويلاحظ أن الآيات السابقة تتعلق بالقيامة وأحوالها، وقد أدرى الله رسوله عليه

الصلاة والسلام عن هذه الأحوال إما بإجابة مباشرة كما جاء فى سورة المطففين وسورة القارعة وسورة الهمزة وإما بإجابة غير مباشرة تشمل موضوع السورة كله كما جاء فى سورة الحاقة، والمرسلات، وغيرهما.

ثانيًا : آيات تتعلق بموضوعات متنوعة :

١ ـ ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾.

[الطارق: ١ - ٣].

٢ ـ ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾.

[البلد: ١١ - ١٦].

٣ ـ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر: ١ - ٣].

ويلاحظ أن الإجابات فى هذه الآيات مباشرة.

آيـــات ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ :

١ ـ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

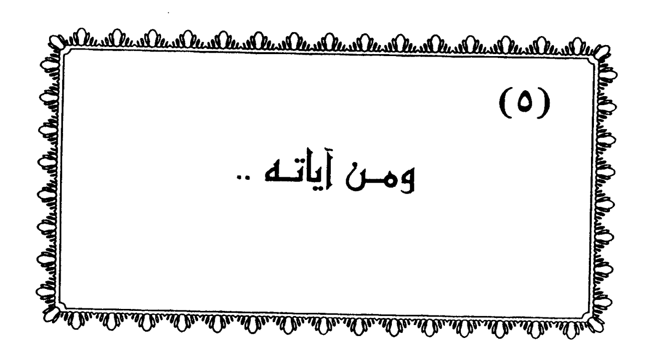
٢ ـ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧].

٣ ـ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس: ٣].

ويلاحظ أن الآية الأولى والثانية تتعلق بالساعة .. أى القيامة وموعدها .. وهذا الموعد من الغيبيات التى لم يُطْلع الله عليها أحداً من خلقه.

أما الآية الثالثة فتتعلق بالغيبيات أيضًا لأن الله هو الذى يعلم بمن يتزكى ومن يتذكر فتنفعه الذكرى .. ولله عاقبة الأمور.

وباستعراض كل ما سبق من آيات ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ يثبت لنا صحة ما قاله الفراء.



(٥)

ومـن آياتـه ..

لقد ذكر الله ـ تعالى ـ فى سورة الروم بعضًا من آياته الكونية بشكل متتابع بحيث تبدأ كل آية بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ... ﴾. وتعالوا بنا نتأمل هذه الآيات التنزيلية التى تتحدث عن الآيات الكونية ونستخلص منها العبر والعظات.

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾. [الروم: ٢٠].

إن الآية العظمى لله سبحانه وتعالى هى آية الخلق من عدم وعلى غير مثال سابق. ولقد خلقنا الله ـ تعالى ـ من طين هذه الأرض مصداقًا لقوله: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥]. وقد ذُكر التراب كمادة للخلق فى هذه الآية لكى تتناسب مع قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾. ننتشر فى الأرض كما ينتشر التراب، فالطين الذى هو تراب وماء لا ينتشر ولكنه مستقر فى مكانه فإذا جف وهبت عليه الريح تحول إلى تراب ينتشر. وهذا هو حال الإنسان يتقلب بين الاستقرار والانتشار .. الاستقرار حيث يوجد الماء مثل دلتا الأنهار، والانتشار حيث يندر الماء أو يشح مثل البيئة الصحراوية وسكانها من البدو الرحل.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

بعد أن ذكر الله ـ تعالى ـ لنا فى الآية السابقة مادة الخلق الأول، أخبرنا فى هذه الآية، بآية الخلق المضطردة فى كل المخلوقات .. وهى الزوجية. ويجمع الله بين الآيتين فى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ... ﴾ [فاطر: ١١]. وهذه الزوجية تشمل كل المخلوقات فى الأرض ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

ولا يتحقق سكن الإنسان إلا إذا سكن الزوج إلى زوجة فيسكن الرجل إلى المرأة، وتسكن المرأة إلى الرجل. والذى يديم هذا السكن هو المودة والرحمة، والذى

ينهيه هو الكراهية والقسوة. وكلا الزوجين يصبان مشاعرهما فى إناء واحد إيجاباً وسلباً لأنهما شيء واحد وخلقا من نفس واحدة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ... ﴾ [النساء: ١]. والدليل على وحدة المشاعر ـ وقبلها وحدة الخلق ـ أنه إذا أرضى الزوج زوجته شعر معها بالرضا، وإذا أغضبها شعر معها بالغضب، وكذلك الحال بالنسبة للزوجة تجاه زوجها. ولا يستدل على عظمة آية الزوجية إلا القوم الذين يتفكرون ويُعملون عقولهم فيها. أما غيرهم فلا تتجاوز الزوجية عندهم حدود الغريزة البهيمية.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

هذه الآية تشير إلى آيتين كونيتين هما خلق السماوات والأرض، وهما من أعظم وأظهر ما خلق الله بل إنهما أكبر من خلق الناس مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]. ثم يعطف الله ـ تعالى ـ بعدهما بآيتين من آياته تتعلقان بخلق الناس وهما اختلاف الألسنة (اللغات) والألوان.

أما عن اللغات فهى بلا حصر وإن كانت أشهرها اللغات الحية، أما عن الألوان فهى الأبيض بدرجاته والأسود بدرجاته والأصفر. والجمع بين آيتى السماء والأرض، وآيتى اختلاف ألسنة وألوان الناس فى آية واحدة، فيه إلفات لأهمية هذا الاختلاف وأنه أمر مقصود فى الخلق. ومن ختام الآية نعرف أن موضوعها يعتبر مجالاً واسعًا للدراسات والأبحاث التخصصية .. لذلك نشأت علوم الفلك والفضاء (السماء) والجيولوجيا (الأرض) واللغويات واللهجات (الألسنة) والأجناس (ألوانكم) .. وغيرها من العلوم ..

لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الروم: ٢٣].

إن النوم آية من آيات الله يعرفها ـ أكثر من غيرهم ـ الذين يصيبهم الأرق والذين جفا عيونهم النوم فيتضرعون إلى الله ـ تعالى ـ كما علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام «اللهم أهدئ ليلى، وأنم عينى» ويلجأون إلى الأطباء والأدوية المنومة حتى لا يصابوا بالانهيار العصبى.

والنوم آية لما فيه من رؤى وأحلام يحتار فى تفسيرها مفسرو الأحلام، ويحتار العلماء فى تفسيرها كظاهرة. والرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، ولا ننس فى هذا الصدد رؤيا يوسف عليه السلام التى دارت عليها قصته فى سورة كاملة من القرآن الكريم.

والنوم آية دالة على البعث بعد الموت مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ... ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وتصديقًا لهذه الآية علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الدعاء عند النوم: «باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه، اللهم إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» رواه الستة.

فالنوم آية يومية تدل على البعث بعد الموت يصادفها كل إنسان وهى حجة على الجميع، فالمرئيات ليست حجة على الأعمى، والمسموعات ليست حجة على الأصم، ولكن كلاهما ينام ويستيقظ.

والنوم مثله مثل آية النبات فى إثبات البعث مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ

فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ⑰ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وتأمل كيف استخدم الله ـ تعالى ـ فعل الإنبات فى التعبير عن خلق الإنسان لكى يربط بين آية الموت والحياة بالنسبة للإنسان والنبات لكى يستدل بالمشهود لإثبات الغيب. والمشهود هو دورة النبات الذى يحيا ثم يموت ثم يحيا ثم يموت وهكذا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥].

والغيب هو البعث .. فهل ينكر البعث بعد ذلك المنكرون؟ ويجحده الجاحدون؟ لقد أقام الله عليهم الحجة البالغة لكى يكون عذابهم يوم القيامة فى جهنم ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٦].

والآية تشير أيضاً إلى النوم بالليل والنهار، وإن كان النوم عادة بالليل، ولكن الآية تدل على جوازه بالنهار أيضًا. يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ⑨ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ⑩ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ: ٩ - ١١]. وآية الروم تتفق مع آية النبأ فى أن النهار للمعاش وابتغاء فضل الله .. أى السعى للرزق. وبالتالى فإن الليل يكون أساساً للنوم وهو لباس يستر الخلائق.

وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .. لأن السمع وجوداً وعدمًا يدل على اليقظة والنوم. فالنائم لا يسمع وهذا دليل نومه، فإذا سمع استيقظ ويكون سماعه دليلاً على استيقاظه. وهكذا كان نوم أصحاب الكهف مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١]. وعبر عن النوم بالضرب على الآذان .. أى عدم السماع.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤].

والبرق ـ كآية كونية ـ يخيف الناس بضوئه الخاطف للأبصار، ولكنه فى نفس الوقت يُطمعهم لأنه ـ مع الرعد ـ يكون إيذانًا بهطول المطر ونزول الماء من السماء الذى هو أساس الحياة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فيحيى الأرض بإنبات النبات بعد موتها بالجدب. والبرق آية عامة لكل ذى عقل .. ويكفى العقل السليم لإدراكها، وهو آية مرتبطة بما قلناه فى الآية السابقة عن حقيقة البعث التى تدل عليها آية النوم وآية النبات الذى تحيا به الأرض بعد موتها بنزول الماء من السماء واستمع إلى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥].

ولاحظ الربط بين حقيقة البعث الغيبية، وآية النبات المشهودة لكى يدل المشهود على الغيب ولا يكتفى الله بملاحظتك ولكن يؤكد حقيقة البعث فى الآيات التالية مباشرة ..

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٦، ٧].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٦].

إن قيام السماء والأرض هو استمرارها بأمر الله ـ تعالى ـ على ما هى عليه، فالسماء فوق الخلائق ترتفع بلا أعمدة ولا تسقط على الأرض مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢]. والأرض ممتدة وممهدة وفيها الجبال الرواسى وتشقها الأنهار مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ [الرعد: ٣]، وجمع الله بين السماوات والأرض لتأكيد قيوميته عليهما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١]. ذلك هو قيام السماوات والأرض بأمر الله القيوم، ولا تزول حتى يأذن الله بها بالزوال، ويكون هذا الزوال إيذانًا بالقيامة والبعث من القبور.

ويصور الله ـ تعالى ـ ذلك الذى سوف يحدث للسماوات والأرض ـ حين يرث الله الأرض ومن عليها ـ فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم .. نذكر منها قوله تعالى:

* ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور: ٩، ١٠].
* ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴾.

[الواقعة: ٤ – ٦].

* ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾.

[المرسلات: ٨ – ١٠].

* ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾.

[التكوير: ١ – ٣].

* ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار: ١ – ٤].
* ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١ – ٤].

كل هذه الأحوال للسماوات والأرض يوم تقوم الساعة تتضمن قيام الناس من قبورهم فى الأرض بدعوة من الله أى بأمره فتتبعثر القبور، وتلقى الأرض ما فيها وتتخلى إشارة إلى البعث وقيام الناس من القبور .. لرب العالمين وبأمر منه.

وهكذا خُتمت آيات الله فى الكون بالآية الكبرى، وعاقبة الأمر كله، بقيام الناس لرب العالمين، لمالك يوم الدين. وقد رأينا أن استعراض آيات الله الكونية هو لخدمة هذا الغرض، وتأكيد حقيقة البعث، وإقامة الدليل على الغيب بالمشهود. وبذلك تكون حجة الله البالغة قد أقيمت على جميع الخلائق .. بالحق وللحق. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . . . ﴾ [الكهف: ٢٩].





(٦)

مبكاة العابدين



يقول تعالى في سورة الجاثية:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

يلفت النظر في هذه الآية قوله تعالى: ﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فهو تعبير لم يتكرر في القرآن الكريم، وله معنى عميق حيث إن اقتراف السيئة يعتبر رذيلة تنطوي على جرح فضيلة من الفضائل أو حسنة من الحسنات أو مكرمة من المكارم .. كما تُجرح الأجساد والأنفس.

والآية تدل على أن الذين اجترحوا السيئات واقترفوا الآثام والمعاصي لا يستوون مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ومن يظن غير ذلك فقد أساء الحكم ولم يتحر العدل والحق مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

ويلفت النظر أيضًا في هذه الآية قوله تعالى: ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ...﴾ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يحيون في الآخرة فقط حياة طيبة في جنات تجري من تحتها الأنهار، وقبلها تكون قبورهم قبل بعثهم روضة من رياض الجنة، ولكن هذا شأنهم أيضًا في الدنيا، فهم يحيون حياة طيبة .. طيّبها الله لهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فالمؤمن أغنى الناس في الدنيا لأنه رضي بما قسمه الله له مصداقًا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام حيث قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» متفق عليه عن أبي هريرة، وحيث قال أيضًا: «من أصبح منكم آمنًا في سربه معافًا في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا» رواه الترمذي.

والمؤمن أفرح الناس مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ

وانشرح مصداقًا لقوله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١].

والمؤمن أسعد الناس، وصدق هذا الزاهد العابد الذى قال: «نحن فى سعادة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف» .. وهى السعادة بالإيمان التى لا تعادلها سعادة ولا يمكن الحصول عليها بالمال أو السلطان فهى منحة من الله تعالى لا يعطيها إلا لمن يستحقها وجاهد فى سبيلها.

وصدق الشاعر حين قال :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد

هذه هى حياة الأنبياء والصالحين .. حياة طيبة مع طاعة الله وفضله ورضوانه، والله سبحانه وتعالى قبل أن يبتليهم ـ فهم أشد الناس بلاءً كما جاء فى الحديث ـ يمدهم بالصبر والرضا، فيحمدون الله ويشكرونه على كل حال. وإذا رجعنا إلى قصة يوسف عليه السلام فسوف نجدها نموذجًا لما نقول. فقد كان حاله فى غيابة الجب مثل حاله فى غياهب السجن مثل حاله وهو متربع فوق العرش. بل إنه لم يذكر الموت فى دعائه إلى الله وهو فى الجب أو فى السجن تبرمًا وضيقًا من حياته ولكن ذكره وهو يعتلى العرش وبعد أن اجتمع شمله مع أبيه وإخوته، ولنستمع إلى ضراعته التى ختمت بها قصته.

* ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾.

[يوسف: ١٠١].

فقد اشتاق للقاء الله بعد أن انتهت فصول القصة وتمت النعمة.

ولنرجع مرة أخرى لهذه الآية من سورة الجاثية التى صدَّرنا بها هذا الموضوع ..

* ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

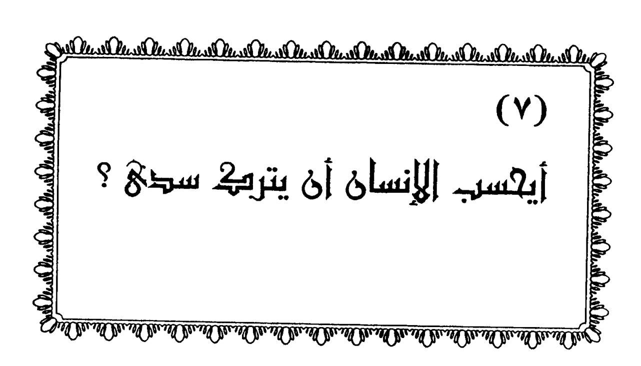
فإن هذه الآية تسمى .. «مبكاة العابدين» .. ويرجع سر هذه التسمية إلى ما رواه إبراهيم بن الأشعث فقال: «كثيرًا ما رأيت الفضيل بن عياض يردد أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها وهو يبكي ويقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت».

وهكذا كان شأن الصالحين وتقواهم لله، يذرفون الدموع من خشية الله، فيبشرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بحسن العاقبة في الآخرة فيذكر ضمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. ويذكر العينان اللتان لا تمسهما النار «عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

اللهم اجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا تجعلنا من الذين اجترحوا السيئات، وطيِّب لنا محيانا ومماتنا .. آمين.







(٧)

أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟



عنوان هذا الموضوع .. هو عبارة عن الآية رقم (٣٦) من سورة القيامة التى ذُكر الإنسان فيها ست مرات .. وتكرار ذكر الإنسان فى هذه السورة يبدو وكأنه تمهيد للسورة التى تليها مباشرة وهى سورة الإنسان. وقد توالى ذكر الإنسان فى سورة القيامة كالتالى :

* ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة: ٣].

* ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ [القيامة: ٥].

* ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ [القيامة: ١٠].

* ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣].

* ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: ١٤].

* ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

ولنتساءل بعد هذا السرد .. ما معنى أن يترك الإنسان سدى ؟

وحيث إن هذا لم يحدث ولم يُترك الإنسان سدى بعد خلقه .. فتعال بنا نفترض هذا الافتراض ونرى .. كيف يكون حال الإنسان لو ترك سدى ؟

أولاً : أن يُخلق للاسبب وأن يترك بلا هدف.

ثانيًا : أن يُترك بلا منهاج يحدد له ما تصلح به حياته، ويعرفه ما ينفعه لكى يفعله وما يضره لكى يمتنع عن فعله.

ثالثًا : أن يُترك دون تعريفه بنفسه ودون تعريفه بالمخلوقات التى حوله، ودون تعريفه بعلاقته ببنى جنسه وعلاقته بباقى المخلوقات .. وقبل كل ذلك تعريفه بخالقه وما ينبغى عليه تجاه هذا الخالق.

رابعًا : أن يُترك بلا نظام للثواب إذا أحسن، وللعقاب إذا أساء.

خامسًا : أن ينتهى أمره بالموت ويترك بلا بعث ولا حساب ولا جزاء.

ولنسأل نفس السؤال بصيغة أخرى .. وهذه الصيغة ليست من عندنا ولكنها آية من كتاب الله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾.

[المؤمنون: ١١٥].

والإجابة .. أنه تعالى الله علواً كبيراً عن ذلك.

والإجابة ليست من عندنا أيضًا ولكنها من عند الله الذى يقول فى الآية التى تليها مباشرة: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾.

[المؤمنون: ١١٦].

وتذكر الافتراض الذى ذكرناه آنفاً، وانتبه لما سوف نذكره فيما يلى :

أولاً : لقد خلق الله الإنسان لسبب وحدد له هدف :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].
* ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢].

ثانيًا : لقد أرسل الله للإنسان المنهاج الذى تصلح به حياته، وهو الكتب المنزلة على الرسل وختامها القرآن الكريم .. وهذه الكتب تتضمن الأوامر والنواهى وما يهدى إلى صراط الله المستقيم، وتعرفه ما ينفعه لكى يفعله، وما يضره لكى يمتنع عن فعله مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].
* ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ﴾ [الإسراء: ٩].
* ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

* ﴿ ... قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

* ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

ثالثاً : لقد عرّف الله الإنسان بنفسه وعرفه بالمخلوقات التى حوله وحدد له علاقته ببنى جنسه وعلاقته بباقى المخلوقات .. وقبل كل ذلك عرّف الله نفسه للإنسان ..

وفيما يلى تفصيل ذلك :

١ ـ أما عن تعريف الإنسان بنفسه فاقرأ قوله تعالى :

* ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦].

* ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ١ ـ ٣].

* ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ

الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: ٥ – ٨].

٢ – أما عن تعريف الإنسان ببنى جنسه وكيف تكون العلاقة بينه وبينهم، فقد اخترنا هذه الآيات من سورة الإسراء لأنها آيات متتابعة وتغطى علاقات كثيرة ومتنوعة :

* ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

* ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ... ﴾ [الإسراء: ٢٦].

* ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ... ﴾ [الإسراء: ٣١]. إشارة إلى المحافظة على النسل.

* ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ... ﴾ [الإسراء: ٣٢]. إشارة إلى المحافظة على أعراض الناس.

* ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ... ﴾ [الإسراء: ٣٣]. إشارة إلى المحافظة على دماء الناس.

* ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ㉞ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٤، ٣٥]. إشارة إلى المحافظة على أموال الناس.

٣ – أما عن تعريف الإنسان بالمخلوقات التى حوله وكيف أنها خُلقت من أجله فاقرأ قوله تعالى:

* ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑦ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ – ٨].

* ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ... ﴾ [النحل: ١٢].

* ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٤ - ١٦].

* ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾.

[الغاشية: ١٧ - ٢٠].

* ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

٤ ـ وقبل كل هذا التعريف .. فقد عرَّف الله نفسه للإنسان حتى إذا عرف إلهه وخالقه وربه حق المعرفة عبده حق العبادة .. ونكتفى فى هذا الصدد بما يلى من آيات لقدرها ومقامها وإلا اضطررنا إلى كتابة نصف القرآن الكريم إذا أردنا حصر آيات التعريف بالله .. يقول تعالى :

* ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

* ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

رابعًا : لقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب .. وهذه الكتب ما هى إلا وعد

ووعيد وترغيب وترهيب، وتبشير وإنذار، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ما هم إلا مبشرين ومنذرين مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذا يعنى أن كتب الله التى أنزلها هى أساسًا ـ إلى جانب الأغراض الأخرى ـ أوامر ونواهى مرتبطة بنظام للثواب والعقاب، والثواب لمن أحسن وأتمر بالأوامر وانتهى عن النواهى، والعقاب لمن أساء وخالف الأوامر وارتكب النواهى.

وثواب الله أساسًا آجل وهو الجنة، ومنه العاجل وهو ما يفيض الله به من فيض إحسانه على عباده الصالحين فى الدنيا.

وعقاب الله أساسًا آجل وهو النار، ومنه العاجل مثلما حدث للأقوام .. مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٥، ٦].

ومثلما حدث للأفراد .. مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ... ﴾ [القصص: ٨١]. حكاية عن قارون.

ومثلما حدث للجماعات .. مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ [القلم: ١٩، ٢٠]. حكاية عن أصحاب الجنة.

فضلاً عما يعرف فى الشريعة الإسلامية بالحدود والقصاص بنصوص القرآن والسنة وكذلك التعزير .. وهى العقوبات التى يطبقها أولو الأمر على المخالفين لأوامر الله والخارجين على منهاجه ولا يوجد لهذه المخالفات عقوبات فى القرآن أو السنة.

خامسًا وأخيرًا : نصل إلى حقيقة البعث، إلى يوم القيامة، يوم يقوم الناس

لرب العالمين، يوم يرجعون إلى الله، يوم يحشرون للحساب، يوم يُنادى أهل الموقف بصفة عامة وملوك الأرض بصفة خاصة .. يناديهم الله - تعالى - ويقول: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ فلا يقدر أحد على النطق ويأتي الرد من الله ذاته: ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]. لقد خشعت الأصوات للرحمن: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨]. وقيل أن هذا الهمس ما هو إلا قول الأنبياء والرسل «يا رب سلم سلم» فما بالك بغيرهم.

* ويوم القيامة هو موضوع سورة القيامة، وهو موضوع الدين، وهو يوم الدين، وحيث إننا أثبتنا أن الله لم يترك الإنسان سدى، فإنه لابد من القيامة، ولابد من الرجعة، فهي واقعة، وواجبة الوقوع .. وإلا كانت حياة الإنسان سدى، وكان خلقه عبثاً .. وتأمل مرة أخرى الآية التي سبق أن ذكرناها في البداية ..

* ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

حيث يُفهم من الآية أن الخلق دون الرجوع يكون عبثاً .. وتعالى الله علواً كبيراً عن العبث، لذلك تأتي الآية التي بعد مباشرة لتقول :

* ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

* لو لم يكن أمر الخلق .. خلق الإنسان، وخلق السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى على هذا النحو الذي سردنا .. لكان الأمر ينطوي على لهو ولعب إلى جانب السدى والعبث لا نقول ذلك من عندنا ولكن نردد ما قاله الله في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. واقرأ قوله تعالى عن هؤلاء الذين أنكروا البعث ورده عليهم :

* ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

لاعبينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٤ - ٤٠].

واقرأ قوله تعالى ـ أيضًا ـ عن سُنته الماضية والمضطردة التى لا تتبدل ولا تتغير فى عقاب من خالفوا الرسل وكذبوهم وأنكروا البعث.

* ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٥ - ١٨].

.. وبعد .. ألا يزال الإنسان يحسب أن يترك سدى ؟!!

ثم تأتى الآيات بعد ذلك بأسئلة للذكرى والاعتبار وعليه أن يجيب على نفسه :

* ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧] .. بلى كان كذلك.

* ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٨] .. نعم كان كذلك.

* ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٩] .. نعم الواقع يشهد بذلك.

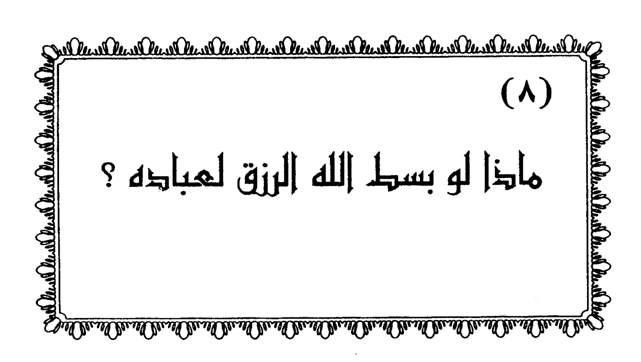
* ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] .. بلى قادر.

والأمر عند هذا الحد، وبعد هذا السرد .. لا يحتاج منا إضافة.

اللهم إنى أسألك نفسًا مطمئنة توقن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك.

.. آمين .





(٨)

ماذا لو بسط الله الرزق لعباده ؟



يقول تعالى فى سورة الشورى :

* ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧].

إن من يقرأ هذه الآية ويتفكر فى واقع حياته وحياة الأفراد والجماعات والدول فى الماضى والحاضر لنطق لسانه من فوره .. صدق الله العظيم. فهو الخبير بعباده ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]. وهو البصير بشؤونهم وبما يصلحها أو يفسدها ﴿ ... اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقد يتصور الإنسان بفكره المحدود ونظرته القاصرة أنه لو عاش هو وغيره فى رغد من العيش لكان هذا منتهى أمله فى الدنيا ولزادت سعادته فيها ولساد السلام والوئام بين الجميع. ولكن الواقع يقول لنا أن البغى والعدوان على المستوى الفردى والجماعى لا يكون فى كثير من الأحيان إلا ممن بسط الله لهم الرزق، والأمثلة الفردية فى حياتنا كثيرة لو استرجعها كل منا لوجد أن الكبير يريد أن يبتلع الصغير كالأسماك فى البحار، فكم من صاحب سلطان جار على سلطان غيره ليمسك بيده كل زمام الأمور، وكم من صاحب مال أراد أن يتوسع فى تجارته أو صناعته أو زراعته فلا يجد سبيلاً لهذا التوسع إلا على حساب غيره ممن هم مثله أو دونه ولا يهنأ له بال حتى يتربع على أنقاض غيره ويبقى وحده فى الميدان، وكم من صاحب مهنة أو حرفة أساء لأقرانه بإشاعة الأكاذيب عنهم لإثبات أنه الأول والأوحد فيسطع نجمه وتأفل باقى النجوم.

هذا يحدث فى مجال الأفراد .. أما فى مجال الجماعات والدول فالوضع أنكى وأمر، وأبرز مثال على ذلك الاستعمار .. فالدول الاستعمارية عادة ما تكون متخمة بالثروات والأرزاق الوفيرة من كل نوع ولكنها لا تكتفى بذلك بل تعتدى على الشعوب الفقيرة وتحتل أراضيها وتستولى على ثرواتها لكى تزداد غنى، وتزداد هذه الشعوب الفقيرة فقراً وجهلاً ومرضًا. وقد تغيرت بعد ذلك أساليب الاستعمار حتى

انتهت الأمور إلى أن أصبح يخيم على العالم اليوم شبح النظام العالمى الجديد واتفاقيات الجات والفصل السابع من لائحة مجلس الأمن.

والأمثلة فى القرآن الكريم كثيرة أيضًا لمن بغوا فى الأرض بعد أن بسط الله لهم الرزق وسوف نستعرض فيما يلى بعض هذه الأمثلة فيما يتعلق بالأفراد :

* قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ... ﴾ [القصص: ٧٦]. والقصة بعد ذلك معروفة حتى انتهت بقوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

* قوله تعالى عن صاحب الجنتين : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف: ٣٢]. فما كان منه إلا أن قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]. فانتهى الأمر به إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٣٥ - ٤٢].

* قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢١ - ٢٣]. والقصة لا تحتاج إلى تعليق وخاصة إذا ربطناها بسياق الموضوع وإن كانت قد وردت فى سورة «ص» فى سياق آخر.

وسوف نستعرض فيما يلى بعض الأمثلة فيما يتعلق بالجماعات والأقوام :

* ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ

رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ فهل شكروا الله على ما رزقهم ؟

لا .. ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٥ – ١٧]. وقد فصّل الله – تعالى – فيما تلى من آيات كيف كان إعراضهم.

* قوله تعالى في شأن أصحاب الجنة : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ فقد كان تدبيرهم أن يقطفوا ثمار هذه الجنة في الصباح الباكر وحرمان الفقراء والمساكين من حقهم في زكاة هذه الثمار بخلاً منهم عن أداء هذا الحق.

فماذا حدث ؟ ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ [القلم: ١٧ – ٢٠]. فما كان منهم إلا أن اعترفوا بذنبهم بعد شيء من التلاوم وقالوا : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ وتختم القصة بهذا التعقيب من الله تعالى والتهديد لكل من تسول له نفسه أن يصنع صنيعهم : ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٣١ – ٣٣].

* ونختم هذه الأمثلة بقوله تعالى عن أشهر نماذج الطغيان : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦ – ١٤].

باستعراض هذه الأمثلة للأفراد والجماعات والأقوام الذين بسط الله لهم الرزق نجد أن مواقفهم قد تفاوتت بين البغي، والطغيان، والبطر، والمكر السيء، والطمع في المزيد، وكفران النعمة .. وكلها أحوال تصيب ما انقطعت صلته بالله، وأصبح إلهه

هواه، وأصبحت الدنيا مبتغاه، ونسى الآخرة التى هى منتهاه.

كما نجد أن كل هؤلاء قد ضاعت منهم الدنيا التى حرصوا عليها، وضاعت منهم الآخرة التى أنكروها أو تناسوها .. وذلك هو الخسران المبين. وصدق من قال: ثلاث من كن فيه كن عليه :

* قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ... ﴾ [يونس: ٢٣].

* قوله تعالى : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ... ﴾ [فاطر: ٤٣].

* قوله تعالى : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ... ﴾ [الفتح: ١٠].

وبعد .. فيا أيها القارئ الكريم هل تحسست الواقع الذى حولك؟ وهل تدبرت هذه الأمثلة القرآنية التى استعرضناها؟ .. إذن فهيا بنا نعيد قراءة الآية التى افتتحنا بها الموضوع ..

* ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾.

لذلك شاءت حكمة الله البالغة أن ينزل من الرزق بقدر حتى يحتاج الناس بعضهم لبعض فيتعاونوا بدلاً من أن يستغنى بعضهم عن بعض فيبغوا ويطغوا ويعتدوا.

والرزق ليس كما يفهم البعض منا أنه مقصورعلى المال والطعام والشراب وألوان المتاع المختلفة، ولكن مفهوم الرزق أوسع من ذلك بكثير .. فالصحة رزق، والقوة رزق، والعلم رزق، والرأى السديد رزق والزوجة الصالحة رزق، والأولاد البارين رزق، وقبل كل ذلك فإن طاعة الله رزق .. فصلاة خاشعة رزق، وصيام مقبول رزق، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه .. رزق .. وهكذا ..

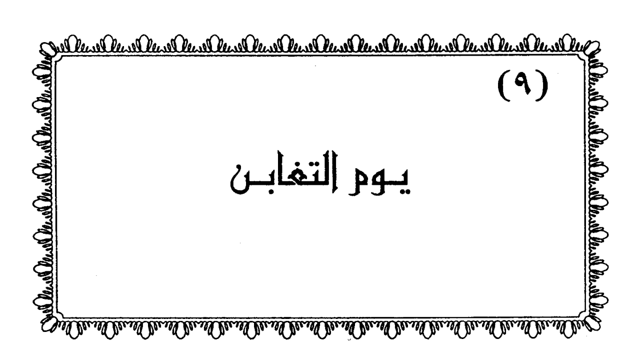
والرازق ـ جلت حكمته ـ يوزع الأرزاق على الناس بطريقة تزيد من احتمالات التعاون وتبادل المنافع عن احتمالات البغى والطغيان والعدوان، ولكن هيهات أن ينتبه الإنسان الظلوم الجهول إلى هذه الحكمة البالغة.

ولأهمية الانتباه إلى هذه الحقيقة الباهرة والحكمة البالغة فقد استوجب الأمر من الله أن يعيد الإشارة إليها فى كثير من سور القرآن الكريم وذلك على النحو التالى :

* ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦].
* ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الإسراء: ٣٠].
* ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ [القصص: ٨٢].
* ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ... ﴾ [الروم: ٣٧].
* ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ... ﴾ [سبأ: ٣٦].
* ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ... ﴾ [الزمر: ٥٢].
* ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الشورى: ١٢].

وسبحان من يبْسط لحكمة، ويَقْدر لحكمة، ويعطى لحكمة، ويمنع لحكمة، فهو الباسط، القادر، القابض، المعطى، المانع .. هو الله.





(٩)

يوم التغابن



يقول تعالى في سورة التغابن :

* ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التغابن: ٩].

إن تعدد أسماء المسمى يدل على أهميته وعظم شأنه، مع كون أن لكل اسم معناه ودلالته المستقلة عن باقي الأسماء. لذلك تعددت أسماء الله والرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم، وكذلك أسماء يوم القيامة في كتاب الله.

اللـــه .. سبحانه وتعالى له أسماء عديدة منها ما أنزله في كتابه ومنها ما علّمه لأحد من خلقه، ومنها ما استأثر به في علم الغيب عنده، وقد أحصى الرسول عليه الصلاة والسلام منها تسعة وتسعين اسمًا كما جاء في الحديث الذى يرويه أبو هريرة رضي الله عنه :

«إن لله تعالى تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».

والرســول .. عليه الصلاة والسلام له أسماء عديدة عرّفنا إياها بنفسه فقال: **«أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر .. يُحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب لا نبى بعدى»** رواه البخارى.

وذلك علاوة على كنيته .. «أبو القاسم»، وما نودى به من الله ـ تعالى ـ مثل .. المزمل، والمدثر، وما يحلو للمسلمين أن يسموه به مثل .. المصطفى، والمختار.

والقـــرآن .. له أكثر من اسم مثل: الفرقان، والتنزيل، والذكر الحكيم، والكتاب.

ويوم القيامة .. له أسماء عديدة مثل: الواقعة، والقارعة، والحاقة، والساعة، واليوم الآخر، ويوم التناد، ويوم الحساب، ويوم الحسرة، والنبأ العظيم .. وغيرها من الأسماء إلى جانب هذين الاسمين اللذين وردا في سورة التغابن.

يوم الجمع، ويوم التغابن :

أما عن يوم الجمع فسوف نعرف لماذا سمى بهذا الاسم إذا قرأنا الآيات التالية :

* ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

[آل عمران: ٩].

* ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣].

* ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

[الواقعة: ٤٩، ٥٠].

أما يوم التغابن .. فهو اسم ليوم القيامة لم يتكرر فى سورة أخرى ..

والغبن: هو لون من ألوان الظلم يشعر به الإنسان عندما لا يستوفى حقه أو ما يظن أنه حقه.

وغبنه : بمعنى غلبه، أو نقصه، أو ظلمه، أو لم يوفه حقه.

فهل يوم القيامة بهذا المعنى هو يوم الظلم أو التظالم ؟

حاشا لله أن يكون كذلك، فالله سبحانه وتعالى يقول عن هذا اليوم :

* ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

[غافر: ١٧].

ومعنى يوم التغابن .. هو أن جميع الخلائق فى هذا اليوم سواء المحسن منهم أو المسيء سوف يشعرون أنهم غبنوا أنفسهم فى الدنيا ولم يستوفوا حقهم فيها بما ينفعهم فى الآخرة.

فالمحسن .. يشعر بأنه قد غبن نفسه فى الدنيا لأنه لم يزد فى إحسانه وكان يمكنه ذلك ليرتقى بدرجته فى الجنة عندما يرى ما أنعم الله به على من فاقوه فى الإحسان.

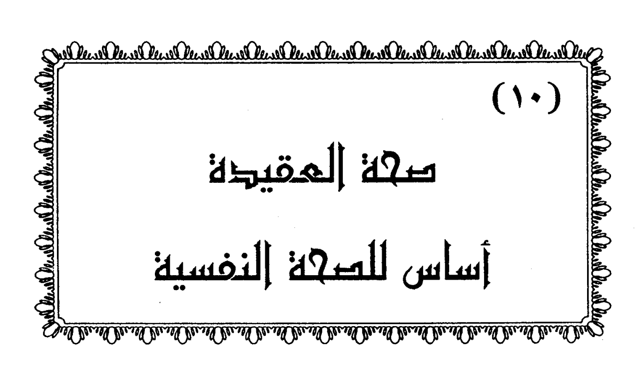
والمسيء .. يشعر بأنه قد غبن نفسه فى الدنيا عندما يرى ما أعده الله للمحسنين من حسن الثواب و﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وما أعده الله للمسيئين من سوء العقاب ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... ﴾ [الشورى: ٤٠].

فهل تدبرنا معانى هذا الاسم من أسماء يوم القيامة؟ واستعددنا من الآن لمزيد من الإحسان فى الدنيا .. لا نقول حتى لا نشعر بالغبن يوم القيامة .. فهو يوم التغابن لا محالة، ولكن لتضييق مساحة وتقليل قدر هذا الغبن ما أمكننا ذلك.

وهل تدبرنا فى باقى أسماء يوم القيامة؟ .. فإن لكل اسم منها دلالة بل دلالات وفى كل دلالة .. **موعظة** .






(١٠)
صحة العقيدة
أساس للصحة النفسية

يقول تعالى في سورة الحديد:

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

* هاتان الآيتان من سورة الحديد هما الأساس للصحة النفسية والتوازن النفسي للمؤمنين ومن اهتدى بهديهما يكون من أصحاب النفس المطمئنة التي أشار الله إليها في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

* فالآية الأولى يقرر الله - تعالى - فيها حقيقة من حقائق العقيدة، وهي أن ما يحدث من أقدار الله في الأرض وفي ذات الأنفس من خير أو شر، فقد سبق لله أن كتبها في اللوح المحفوظ وقضاها منذ الأزل وإلى الأبد وهو أمر يسير على الله - عز وجل - الذي ليس عنده فيما يريد يسير وعسير فإذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وكما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول في أذكار الصباح والمساء: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» أخرجه أبو داود والنسائي/ تحفة الذاكرين للإمام الشوكاني. وكما قال علماء العقيدة أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن إذا كان كيف يكون. وقد قضى بعلمه وحكمته كل ما كان وما سوف يكون. وكل ما في الأمر أن ما لم يكن بعد فهو من غيب الله تعالى، فإذا أراد أن يكون كشف عنه غطاء الغيب فأظهره وقدّره فأصبح مشهودًا .. إنها أمور يبديها ولا يبتديها .. أي لا يقدرها لحظة وقوعها ولكنها مقدرة منذ الأزل .. وهذا هو معنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام في نهاية الحديث المشهور: «.... رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي عن ابن عباس ﷺ.

* إن هذه الحقيقة الاعتقادية المقررة في الآية الأولى .. هي مقدمة لازمة للآية الثانية، وبدونها يصعب علينا فهم وتنفيذ النهي الوارد في هذه الآية الثانية ﴿ لِكَيْلا

تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ .. فكيف لا نفرح ولا نحزن .. والفرح والحزن مشاعر إنسانية لا سبيل لإنكارها أو إلغائها لأنها واقع يلحظه ويشعر به كل إنسان؟! إن خير إجابة على هذا السؤال هي قول واحد ممن تربوا في مدرسة النبوة واختصه الرسول عليه الصلاة والسلام بكثير من العلم منذ أن قال له: «يا غلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ...» رواه الترمذى، ومنذ دعا له فقال: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل». ولعلنا عرفنا أنه ابن عباس ﷺ الذى قال ما يعتبر خير إجابة على هذا السؤال الذى طرحناه: «ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل من مصيبته صبراً وغنيمته شكراً». وصدق ابن عباس ﷺ فيما قال فالإسلام هو دين الفطرة وبالتالى فإنه لا يمكن أن يتصادم معها، ومن الفطرة مشاعر الفرح والحزن وقد فرح وحزن الرسل والأنبياء والصالحون. واستكمالاً لشرح المعنى المقصود للآية استمع إلى من علّم ابن عباس ﷺ وعلّم أصحابه وعلّم البشرية جمعاء .. رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام: «عجباً لأمر المؤمن إن أمرَهُ له كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له» رواه مسلم عن صهيب بن سنان ﷺ . وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام تعجب لأمر المؤمن فلنا أن نتعجب مثله، ولكن هذا العجب سوف يزول ـ لأن عجب الرسول ما هو إلا وسيلة لشد الانتباه ولفت الأنظار ـ إذا تدبرنا معنى الحديث .. فالسراء يفرح لها المؤمن ولكن شعور الفرح عنده يتحول إلى شكر لله فهو الذى سره وهو الذى أفرحه، والضراء يحزن لها المؤمن ولكن شعور الحزن عنده يتحول إلى صبر ابتغاء وجه ربه كشأن أولى الألباب الذين قال الله عنهم: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ... ﴾ [الرعد: ٢٢]. فهم يعلمون أن الله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣]. ويعلمون قول الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وشكر المؤمن على السراء يؤجر عليه، وصبر المؤمن على الضراء يؤجر عليه .. يوم

القيامة. ومادام الأمر كذلك فلا فرق عند المؤمن أن يحصل على أجره عند الله يوم القيامة من شكر على سراء أو صبر على ضراء .. لذلك كان أمره له كله خير، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن الذى استوعب الحقيقة الاعتقادية التى قررها الله ـ تعالى ـ فى الآية الأولى .. فهل زال عنا العجب؟ .. لا شك أنه قد زال .. ولا شك أيضًا أن هذا المؤمن قد أصبح محصنًا ضد الأمراض النفسية التى تصيب غيره من تقلب الأحوال بين الفرح والحزن، والسراء والضراء، والخير والشر، كما أنه أصبح محصنًا من الإصابة بالخيلاء والفخر لأنه لا ينسب أى أمر إلى نفسه، فإلى الله تُرجع الأمور، فهو خالق الأسباب وهو الذى يقدر نتائجها ولا يقع فى ملكه إلا ما يشاء وما يريد .. ولا حول ولا قوة إلا بالله. فإذا حدث للمؤمن ما يدعوه للفرح فهو لا يفرح فرحًا شديدًا يخرجه عن اتزانه ووقاره وسكينته، وكذلك إذا حدث ما يدعوه للحزن .. فهو راض بمشيئة الله تعالى ويقول فى كافة أحواله: قدر الله وما شاء فعل .. مع اليقين بأن الله لا يقدر إلا الخير. ولعلنا عرفنا الآن لماذا خُتمت الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ .. ويكفى للمؤمن زجرًا ـ وهو الذى يسعى لنوال محبة الله ـ أن يعرف أن الله لا يحب كل مختال فخور، ولذلك كان مما قاله لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

* قيل للإمام أحمد عمن معه مال: هل يكون زاهدًا؟ قال: إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصانه فهو زاهد.

* وقيل لحكيم: مالك لا تحزن على ما فات ولا تفرح بما هو آت؟ قال: لأن الفائت لا يُتلافى بالعبرة، والآتى لا يستدام بالحبرة. (العبرة: الحزن، الحبرة: الفرح).

* قال الإمام جعفر الصادق: «يا ابن آدم تأسى على مفقود لا يرده عليك الفوت، أو تفرح بموجود لا يتركه بين يديك الموت».

وهناك كثير من الأقوال لغير هؤلاء ممن شرح الله صدورهم لحقائق العقيدة الصحيحة وأنار لهم أبصارهم وبصائرهم .. ففهموا وأفهموا، وعرفوا وعرّفوا، واستمعوا

وقالوا هذه الأقوال التى خرجت من مشكاة واحدة .. مشكاة العقيدة الصحيحة.

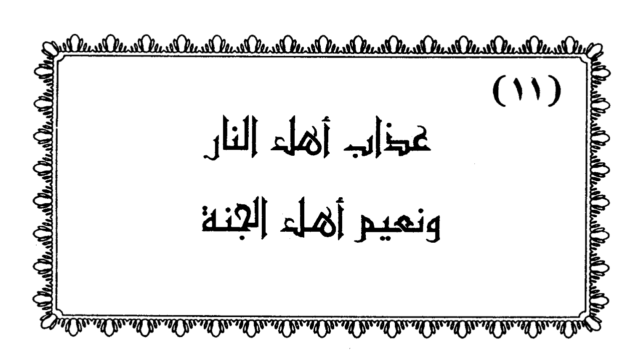
هذا هو الطريق إلى الصحة النفسية ولا طريق سواه، فبعد أن صحّت للمؤمن عقيدته، صحّت له نفسه وبرأ من الأمراض النفسية التى تصيب غيره، وهى أمراض تشيع فى عصرنا هذا نتيجة للعقائد الباطلة، والأفكار الهدامة التى تقود معتنقيها - كما نقرأ بين الحين والحين - إلى الانتحار الجماعى. علاوة على حوادث الانتحار الفردى التى وصلت إلى نسب مزعجة فى بلاد الغرب الذى أسرف فى ماديته فأشبع الجسد بكل أنواع المتع والملذات وانغمس فى الشهوات، وترك الروح جوعانة، وأصبحت مجتمعات الغرب تعانى من الخواء الروحى واختل توازنها النفسى على المستوى الفردى والأسرى والجماعى وشاعت فيهم الأمراض النفسية وحوادث العنف والاغتصاب والشذوذ الجنسى، والمخدرات بأنواعها إلى جانب المسكرات، ثم أخيراً الأمراض الجسدية المستعصية مثل الإيدز .. ووسط كل هذا الخضم الهائل من التيه والضلال والفساد يفقد الفرد رغبته فى مواصلة الحياة فيقرر التخلص منها باعتبار أن الحياة أصبحت هى الداء وبالتالى فإن الموت هو الدواء .. وفى هذا المعنى قال أبو العلاء المعرى:

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً ... وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فلا تكون المنية أمنية إلا عند من سقمت نفسه وجفت روحه.

ونسأل الله العفو والعافية، والمعافاة فى الدين والدنيا والآخرة.





(١١)

عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة

لقد وصف الله ـ تعالى ـ عذاب أهل النار، ونعيم أهل الجنة فى كثير من سور القرآن الكريم بما يتفق مع جو كل سورة والسياق الذى يقع فيه هذا الوصف لكى يؤتى أثره المطلوب فى الترهيب من عذاب النار، والترغيب فى نعيم الجنة.

وقد يقع الإنسان فى حيرة شديدة إذا أراد أن يقدم نموذجًا من نماذج عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة، فأيها يقدم وأيها يؤخر، وأيها يختار وأيها يدع. فإن كان ولابد فقد وقع اختيارى على آيات بينات من سورة الدخان، وكان سبب هذا الاختيار أن الوصف جاء مختصراً فى آيات قصيرة ولكنها موحية بشدة العذاب، وحلاوة النعيم. ومن يتدبر هذه الآيات يشعر بلفحة العذاب، ونداوة النعيم.

عذاب أهل النار :

يقول تعالى فى سورة الدخان :

* ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠].

إن الأكل من شجرة الزقوم لون من ألوان عذاب أهل النار، ولقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم ثلاث مرات، منها هذه السورة، وسورة الصافات، وسورة الواقعة كالتالى :

* ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٨].

* ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ

﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٥١ – ٥٦].

إن الوصف القرآنى لشجرة الزقوم يغنى عن كل شرح، وما نستطيع أن نقوله أن شجرة الزقوم طعام الأثيم، وفتنة للظالمين، وسوف يأكل منها الضالون المكذبون. وحيث إنه بعد الأكل لابد من شرب وخاصة فى هذه الحالة لأن الأكل من شجرة الزقوم إذا نزل فى البطون يغلى كالمعدن المنصهر فيحتاج إلى الماء لإطفاء لهيبه، ولا يجد هؤلاء المناكيد غير الماء المغلى لإطفاء المعدن المنصهر فى بطونهم .. أى لهيب على لهيب. وبعد هذه الوجبة من الطعام والشراب الملتهب يسحب هؤلاء وهم كتلة من اللهب بكل المهانة والذلة إلى وسط الجحيم حيث شدة استعار النار .. فالنار فى داخلهم، والنار تصب فوق رؤوسهم، والنار تحيط بهم من كل جانب .. فهل بعد ذلك من عذاب؟ وهل بعد ذلك من وصف؟ .. نعم هناك لون آخر من العذاب، فالعذاب الذى سبق وصفه عذاب مادى يصيب الجسد، يضاف إليه عذاب معنوى يصيب النفس ويتمثل هذا فى قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾.

وما ينطوى عليه هذا الكلام من تقريع وتوبيخ لهؤلاء الذين استعزوا بغير الله فى الدنيا فأذلهم الله فى الآخرة، وسعوا إلى الكرامة فى الدنيا عن غير طريق التقوى ﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴾ [الحجرات: ١٣]. فأهانهم الله فى الآخرة، مثل هذا الذى قال فى الدنيا: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٦]. فهل صدق ظنه ؟

حقًا ﴿ ... إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٣٦]. لقد جمع الله لأهل النار كل ألوان العذاب المادى والمعنوى ثم قال لهم فى النهاية: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾.

أى أن هذا العذاب هو ما كنتم به تشكون وتكذبون. فهل علمتم الآن أن الله حق، وأن الملائكة حق، وأن الكتب حق، وأن الرسل حق، وأن اليوم الآخر حق ؟؟

حقًا .. ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]. وهذا يذكرنا بما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام لأهل القليب من قتلى الكفار فى غزوة بدر: «لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا».

فقد وعد الله الرسول عليه الصلاة والسلام بالنصر وقد وجده هو وأصحابه فى عالم الشهادة، فهل وجد هؤلاء الكفار من قتلى بدر ما توعدهم الله به فى عالم الغيب وهم راقدون تحت التراب؟

إنه سؤال لم يكن يحتاج إلى جواب .. لأن الغيب والشهادة سواء عند المؤمنين.

ومصداقًا لهذا الذى حدث فى الدنيا يقول تعالى على لسان أصحاب الجنة فى الآخرة: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥].

حقًا .. فلعنة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، ولعنة الله على الكافرين الذين كفروا بالله واليوم الآخر ظلمًا وعدوانًا.

ونستعيذ بالله من النار، وعذاب أهل النار.

نعيم اهل الجنة :

يقول تعالى فى سورة الدخان :

* ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الدخان: ٥١ - ٥٧].

بعد هذا اللهيب الذى يحيط بالكافرين والمكذبين من كل جانب فى جهنم .. تعالوا بنا نرتع فى رياض الجنة مع المتقين .. ونسأل الله تعالى أن نكون منهم.

وأول هذا النعيم ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ هو الإقامة الآمنة حيث لا خوف ولا حزن ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢]. إنها ليست مجرد إقامة، ولكنه مقام .. أى مكانة، والتعبير يوحى بالتكريم والتشريف، والعلو والارتفاع .. فالجنة درجات، والدرجات صاعدة إلى أن تصل إلى الفردوس الأعلى حيث الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

وثانى هذا النعيم ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ هو الطعام والشراب، فالطعام من الجنات والشراب من العيون، وهذا ترتيب طبيعى لاحتياجات الإنسان، فبعد توفير الإقامة والسكن يحتاج إلى الأكل والشرب واستمع إلى قوله تعالى عمن يؤتى كتابه بيمينه: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢١ - ٢٤].

وثالث هذا النعيم ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ هو الملبس وهو احتياج أساسى للإنسان بعد المسكن والمأكل والمشرب، وإن كان يتخذ فى الدنيا لاتقاء الحر أو البرد ولستر العورة وللزينة، فإنه فى الجنة للتنعيم والزينة حيث لا حر ولا برد ولا عورة، كما أنه من الحرير رقيقه وسميكه وهو ما كان محرمًا على الرجال فى الدنيا. ويضاف إلى هذا النعيم تحابب أهل الجنة فهم متقابلون كشأن المتحابين وليسوا متدابرين كشأن المتخاصمين.

مصداقًا لقوله تعالى عن «السابقون السابقون»: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الواقعة: ١٥، ١٦].

ورابع هذا النعيم ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ هو الزوجة حيث تسكن النفس وتتبادل مشاعر المودة والرحمة .. ولقد كان الأمر فى الدنيا مقصوراً على زوجة

واحدة إذا خيف عدم العدل، أو التعدد بحد أقصى أربع زوجات وما يجلبه هذا التعدد من مشكلات بين الضرائر. أما فى الجنة فالزوجة زوجات من الحور العين وصفهن الله بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٨]. ووصفهن الرسول عليه الصلاة والسلام ضمن حديث عن نعيم أهل الجنة: «ولكل واحد منهم زوجتان يُرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهن قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشيا» رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ﷺ .

وخامس هذا النعيم ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ هو التفكه بفاكهة الجنة وتأتى الفاكهة فى ترتيبها الطبيعى من الاحتياجات الأساسية للإنسان، فهى ليست من الضروريات، ولذلك جاءت بعد المسكن والمأكل والمشرب والملبس والزوجة، وهذا الترتيب لأن الإنسان مخاطب به فى الدنيا فجاء على نسق أولويات احتياجاته فى الدنيا، أما فى الجنة فالأمر ليس كذلك فلقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾» متفق عليه عن أبى هريرة ﷺ .

فكل ما فيها من نعيم ومتاع متوافر فى كل وقت وحين بمجرد الرغبة، وليس فيها ضروريات وكماليات ولكن ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١] .. إنها الجنة وكفى.

ويضيف الله تعالى إلى التفكه بفاكهة الجنة قوله: ﴿ آمِنِينَ ﴾. وقد سبق ذكر الأمن مع أول نعمة من نعيم الجنة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾.

فهل هناك تكرار فى المعنى؟ ..هذا ما سوف نجيب عليه فى النعمة التالية.

وسادس هذا النعيم ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ هو أنهم آمنون فلا يزول عنهم النعيم لأنه خالد، ولا يزولون هم

عن النعيم بالموت فهم خالدون .. فالجنة جنة الخلد مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الفرقان: ١٥]. وأهل الجنة «خالدين فيها» مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨]. فهم لا يتحولون عنها ولا يبغون ذلك، وهى أيضًا لا تتحول عنهم لأنها جنة الخلد. وهذا ما يتميز به نعيم الجنة الدائم عن نعيم الدنيا الزائل فأنعم أهل الأرض لا يأمن أن يزول عنه ما فيه من نعيم، فإذا افترضنا جدلاً أنه أمن ألا يزول عنه هذا النعيم، فإنه لا يأمن أن يزول هو عن هذا النعيم بالموت مصداقًا لقوله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦].

وبذلك تتضح إجابة السؤال الذى سبق أن طرحناه .. بأنه لا يوجد تكرار فى ذكر الأمن فى الآية (٥١)، والآية (٥٥)، فالأمن فى الآية الأولى يعنى الأمن من الخوف والأمن فى الآية الثانية يعنى الأمن من الموت .. الذى يوصف بأنه هادم اللذات ومفرق الجماعات.

وجاءت الآية (٥٦) تفسر ذلك بقوله تعالى: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ .. فلا موت إلا الموتة الأولى، أى موتة الدنيا. وحيث أن عدم ذوق الموت بعد البعث أمر يشترك فيه أصحاب الجنة، وأصحاب النار، ولا يتميز به أصحاب الجنة لذلك قال تعالى: ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾. أما أصحاب النار من الأشقياء فيقول تعالى عن الواحد منهم: ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٢، ١٣]. فلا ينال الموت لكى يستريح ولا حياة العذاب تسمى حياة إذا قيست بحياة النعيم.

وسابع هذا النعيم .. ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .. فهو فضل من الرب قد تفضل به على عباده الصالحين من أهل الجنة .. وهو نعيم آخر ولكنه نعيم معنوى لإحساس المنعمين بأن الذى تفضل به هو رب العالمين .. ولتوضيح هذا

اللون من ألوان النعيم نقول: أن كثيراً ما يحصل الناس فى الدنيا على جوائز ولكن هناك فرق بين جائزة يقدمها رئيس العمل وجائزة يقدمها رئيس الجمهورية أو الملك أو الوزير .. وكلها جوائز تدخل فى دائرة أن بشراً يكافئ ويجازى بشراً. أما أن يتفضل رب العالمين وخالق السماوات والأرض على مخلوق من خلقه بالجنة ونعيمها .. فإن هذا التفضل نعيم وحده .. ويا له من نعيم معنوى يضاف إلى ألوان النعيم الحسية التى سبقته فى الذكر .. وقد وصف الله هذا وذاك النعيم بأنه ﴿ **فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾.

ونسأل الله ـ تعالى ـ أن نكون من أهل هذا الفضل الكبير، وذلك الفوز العظيم.





(١٢)

بم دخل أصحاب الجنة .. الجنة ؟

وبم دخل أصحاب النار .. النار ؟



لقد تكرر كثيراً فى القرآن الكريم الأسباب التى ذكرها الله ـ تعالى ـ لدخول أصحاب الجنة للجنة، ودخول أصحاب النار للنار. وقد أجمل الله ـ تعالى ـ أسباب دخول الجنة فى الإيمان والعمل الصالح وتكرر فى أكثر من ستين موضعًا فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣]. وفصَّل أسباب دخول الجنة فى مواضع أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩].

كذلك أجمل الله ـ تعالى ـ أسباب دخول النار فى الكفر والتكذيب بآيات الله وكرر ذلك كثيراً فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٩]. وفصَّل أسباب دخول النار فى مواضع أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝٤٤ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥]. ويتفرع عن هذه الأسباب المذكورة فى الآية كثير من الأسباب مثل الشرك والنفاق والظلم والاستكبار والفساد والفسق والعصيان .. وغير ذلك من الأسباب المذكورة تفصيلاً فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

إن ما ذكرناه من أسباب لدخول الجنة أو لدخول النار .. هى الأسباب والحيثيات التى يخبرنا بها الله تعالى، ولكن ما هى هذه الأسباب والحيثيات كما يقولها ويبديها أصحاب الجنة وأصحاب النار؟

لقد ذُكرت هذه الأسباب والحيثيات فى بعض آيات القرآن الكريم .. نذكر منها ما يلى :

أولاً : يقول تعالى فى سورة الطور :

* ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨].

لقد سبق هذه الآيات فى السورة بعض ألوان النعيم التى تفضل بها الله تعالى على عباده المتقين نذكر منها ..

* ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور: ١٧ - ٢٠].

* ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾.

[الطور: ٢٢ - ٢٤].

وفى ظلال هذا النعيم يتسامر أصحاب الجنة ويذكرون الأسباب والحيثيات التى قادتهم إلى الجنة ونعيمها .. وذكروا منها سببين هما :

الأول : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ :

أى خائفين من عذاب الله ـ تعالى ـ فحرصنا على أن تكون أعمالنا فى الدنيا صالحة طمعًا فى ثواب الله وخوفًا من عقابه. وهذا دائمًا شأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويتأكد هذا المعنى فى كثير من آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى :

* ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ... ﴾.

[السجدة: ١٦].

* ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢].

* ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقد حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على تنمية الشعور بالخوف من عقاب الله وعذابه ـ مع وجود الرجاء فى ثواب الله ونعيمه ـ فى كثير من الأحاديث نذكر منها :

* « والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُعدات تجأرون إلى الله تعالى» الصُعدات: الطرق. رواه الترمذى عن أبى هريرة ﷺ .. ويسند لهما الحديث التالى أيضاً.

* «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل».

أدلج: من سار من أول الليل والمراد التشمير فى الطاعة.

بلغ المنزل: أى بلغ الغاية، والغاية هى الجنة.

وصدق على بن أبى طالب ﷺ عندما عرّف التقوى بقوله: «الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

وصدق من قال أيضاً: «من خاف سلم» .. سلم فى الدنيا والآخرة.

الثانى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ :

أى أنهم كانوا فى الدنيا دائمى الذكر لله، ويسألونه فى كل أمر، ويرجعون إليه فى كل شىء، ويستعينون به فى كل سعى، ويدعونه فى كل أحوالهم، فهو الله ربهم، ولا حول ولا قوة إلا به، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال:

* «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة. قال: بلى يا رسول الله. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة» رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى ﷺ .

وصدق حيث قال لابن عباس ﷺ:

* «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» رواه الترمذى.

والدعاء ركن كبير من أركان العبادة بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام قال عنه أنه العبادة فى الحديث الذى يرويه النعمان بن بشير ﷺ: «الدعاء هو العبادة. ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].رواه أهل السنن الأربعة وابن حبان فى صحيحه. وروى الترمذى عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الدعاء مخ العبادة».

ومقتضى هذه الأحاديث أن الدعاء هو أعلى أنواع العبادة وأرفعها وأشرفها. كما أفادت الآية التى ذكرها الرسول عليه الصلاة والسلام فى متن الحديث أن ترك دعاء الرب سبحانه استكبار، والاستكبار من أكبر الذنوب وأخطرها .. وما كان إبليس إبليساً إلا بهذا الاستكبار مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ... أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣].

وعن الدعاء أيضًا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السماوات والأرض» أخرجه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة ﷺ .

ولقد ترك لنا الرسول عليه الصلاة والسلام ثروة ضخمة من الأدعية المأثورة تغطى كل أحوال المسلم فى حله وترحاله، فى سكونه وحركته، فى عباداته ومعاملاته، فى شغله وفراغه، فى سرائه وضرائه، فى رخائه وشدته، فى يسره وعسره. وهذه الأدعية تضمن له أن يكون ذاكراً لله على الدوام، وهى سياج يحميه من وسوسة الشياطين ومن الغفلة مصداقًا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس» أخرجه البخارى معلقًا عن ابن عباس ﷺ.

ويكفى للذكر فضلاً أن الله ـ تعالى ـ يذكر من يذكره مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقوله سبحانه فيما يرويه عنه الرسول عليه الصلاة والسلام: «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ

خير منه، متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فيا أيها المسلم إن كنت تريد أن تكون من أصحاب الجنة ـ وكلنا نريد طبعًا ـ فإن أصحاب الجنة يدلونك على الطريق وهو ..

* أن تكون فى أهلك فى الدنيا مشفقًا من غضب الله وعذابه فى الآخرة، حتى يمن عليك ويقيك عذاب السموم .. وقانا الله وإياك منها.

* أن تكون داعيًا لله ـ تعالى ـ وحده، ولا تستكبر عن دعائه، فالدعاء هو العبادة وأن تكون مداومًا على ذكر الله تبارك وتعالى، فالذكر مانع للغفلة، وطارد للشياطين وجالب لمرضاة رب العالمين .. إنه هو البر الرحيم.

ثانيًا : يقول تعالى فى سورة المدثر :

* ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٧].

لقد أسلفنا ذكر الأسباب والحيثيات التى أبداها أصحاب الجنة لدخولهم الجنة، وجاء الدور على أصحاب النار لكى يوضحوا أسباب وحيثيات دخولهم النار.

ويمكن تصنيف هذه الأسباب والحيثيات كالآتى :

١ ـ أسباب تتعلق بالعبادات :

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾.

٢ ـ أسباب تتعلق بالقربات :

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾.

٣ ـ أسباب تتعلق بالمعاملات :

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾.

٤ ـ أسباب تتعلق بالعقائد :

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾.

كما يمكن تصنيف هذه الأسباب بطريقة أخرى كالآتى :

١ ـ أسباب تتعلق بالصلة بالله :

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾.

٢ ـ أسباب تتعلق بالصلة بعباد الله :

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾.

٣ ـ أسباب تتعلق بدين الله :

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾.

ويتضح من هذا التصنيف وذاك أن هؤلاء المجرمين تركوا العبادات وبالأحرى القربات وأساءوا المعاملات، وأنكروا البعث والحساب .. وهذا السبب الأخير هو السبب الرئيس والأساس فى إجرامهم وضلالهم وبالتالى دخولهم النار. كما أنهم قطعوا الصلة بالله، أما صلتهم بالناس فهى تتصل إذا كانت للشر والخوض مع الخائضين، وتنقطع إذا كانت للخير مثل إطعام المساكين، وأما صلتهم بدين الله فقد أنكروا البعث والحساب وهو محور الدين، لذلك أسماه الله بيوم الدين.

فيا أيها المسلم، يا من أسلمت وجهك لله .. إن كان مطلوبًا منك لكى تكون من أصحاب الجنة أن تكون فى أهلك فى الدنيا مشفقًا من عذاب الله فى الآخرة، وأن تكون داعيًا إلى الله ولا تستكبر عن دعائه، وأن تكون مداومًا على ذكر الله تبارك وتعالى. فإنه مطلوب منك لكى لا تكون من أصحاب النار أن تحرص على العبادات والقربات، وتحسن المعاملات، وتوقن بلقاء الله عز وجل. كذلك عليك أن توثق الصلة بالله تعالى ومن أهم وسائلها الصلاة، وأن تحسن الصلة بعباد الله فتسارع بالمساهمة

فى الخير مثل إطعام المساكين، وأن تمتنع عن المساهمة فى الشر مثل الخوض مع الخائضين فيما لا يجوز الخوض فيه، وسوف يعينك على كل ذلك اليقين بلقاء الله تعالى فى يوم الدين .. فهو يوم لا ريب فيه.

وعليك أن تستفيد من الأسباب التى أبداها أصحاب الجنة لدخولهم الجنة، والأسباب التى أبداها أصحاب النار لدخولهم النار .. فالسعيد من وُعظ بغيره.

إنك لا زلت فى فسحة من هذا الأمر وما دامت الأنفاس لا زالت تتردد فى صدرك، فهل تنتهز هذه الفرصة، وتغتنم هذه المهلة .. قبل أن يأتيك اليقين ؟

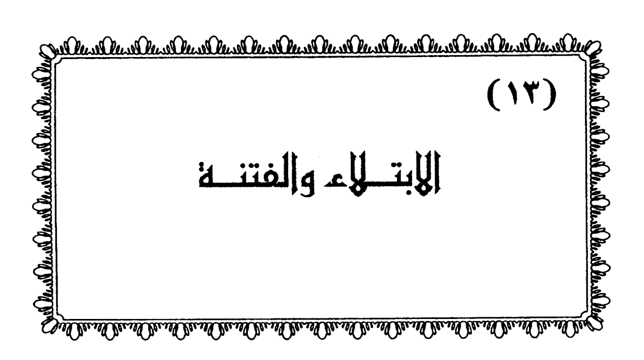
* اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها.

* وخير أيامنا يوم لقائك.

.. آمين.







(١٣)

الابتلاء والفتنة

يقول تعالى فى سورة العنكبوت :

﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

[العنكبوت: ١ - ٣].

* إن الحياة الدنيا بالنسبة للبشر ابتلاء أى اختبار مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣]. وهذا الابتلاء على مرحلتين.

الأولى : أن الإنسان مخير بين الكفر والإيمان مصداقًا لقوله تعالى لرسوله الكريم: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ .

[الكهف: ٢٩].

الثانية : أن الإنسان المؤمن مخير بين الطاعة والمعصية، فإذا اختار الطاعة فهو مخير بين الإخلاص والرياء، وإذا اختار المعصية فهو مخير بين التوبة والإصرار.

* إن إرادة الله فى استمرار الحياة الدنيا مرتبطة بكونها اختبارًا وامتحانًا للإنسان، وهى بهذا الوصف تعنى أن هناك من يؤمن وهناك من يكفر، وهناك من يطيع وهناك من يعصى. فالامتحان لا يكون امتحانًا إلا إذا عرف الممتحن أن هناك من ينجح وهناك من يرسب، ولو تأكد أن كل من سيتقدم للامتحان سوف ينجح ما عقد الامتحان أصلاً. وكذلك الأمر لو تأكد أن الجميع سوف يرسبون. والله سبحانه وتعالى قد علم أزلاً أن مواقف الناس سوف تختلف إزاء اختبار الحياة وسوف يكون منهم من يؤمن ومن يكفر، ومن يطيع ومن يعصى، ومن يحسن ومن يسىء، ولو آمن كل الناس وأطاعوا وأحسنوا ما خلق الله الحياة الدنيا وما بدأها، ولو تحول الأمر وتغير الناموس واختلفت سنة الحياة الدنيا وكفر كل الناس وعصوا وأساؤا يكون ذلك إيذانًا

بانتهاء الحياة الدنيا والدليل على ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس» رواه مسلم.

* إن الابتلاء يكون بالخير والشر مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. فالإنسان يبتلى بالغنى والفقر، ويبتلى بالصحة والمرض، ويبتلى بالسلطان وقلة الشأن، ويبتلى بالعطاء والمنع، والمنع أحيانًا يكون عطاءً كقول الصوفية: «أعطاك فمنعك» .. يقصدون بذلك حالة إذا جلب العطاء المعصية وجلب المنع الطاعة .. فيكون المنع فى هذه الحالة عطاءً.

وتتفاوت مواقف الناس إزاء الخير والشر، فإن شكروا عند الابتلاء بالخير، وصبروا عند الابتلاء بالشر فقد اجتازوا الاختبار بنجاح، وإن كانت الأخرى فلا يلومون إلا أنفسهم.

* والابتلاء بالخير لا يعنى رضاء الله، والابتلاء بالشر لا يعني غضب الله، وقد أوضح الله ذلك في قوله تعالي لمن ظن غير ذلك: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ ... ﴾ [الفجر: ١٥-١٧] لأن رضاء الله - تعالى - يتضح بالشكر عند الابتلاء بالخير، والصبر عند الابتلاء بالشر، فهو الذى يمن على من يرضى من عباده بالشكر والصبر.

ومما يؤكد هذه الحقيقة قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه» رواه البخارى.

وقصص الأنبياء فى القرآن الكريم أوضح دليل على ذلك فقد ابتلى نوح عليه السلام بطول عمره مع قوم معاندين وابتلى بزوجته وولده، وابتلى ابراهيم عليه السلام بأبيه والنار التى قذفه فيها قومه وأمره بذبح ابنه إسماعيل، وابتلى أيوب عليه السلام بالمرض، وابتلى يونس عليه السلام بالحوت، وابتلى غيرهم بما قصه الله علينا، وابتلى

خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام بما عرفناه من سيرته العطرة.

* وهذه الابتلاءات الشديدة تتفق مع فهمنا الذى استقر عن الحياة الدنيا، فإذا كان الأنبياء والرسل قممًا إيمانية فلابد أن يكون اختبارهم وامتحانهم على قدر مستواهم الإيمانى الرفيع. وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثالاً للتوضيح نقول: أن طالب الابتدائى يمتحن فى جدول الضرب والجمع والطرح والقسمة، أما طالب الجامعة فيمتحن فى المعادلات الرياضية، ولو انعكس الأمر ما صح ذلك.

* لقد استطردنا فى معنى الابتلاء رغم أن الآيات التى أفتتحنا بها الموضوع من سورة العنكبوت تشير إلى الفتنة وليس للابتلاء.

فهل الابتلاء والفتنة مترادفان ؟

وإذا لم يكونا كذلك .. فما الفرق بين الابتلاء والفتنة ؟

قبل أن نبدأ فى الإجابة على هذه الأسئلة نقرر ابتداءً أن الترادف فى كلام البشر، أما كلام الله عز وجل .. فلا ترادف فيه، ولا تصلح كلمة مكان الأخرى لكى تعطى نفس المعنى، وما تفسير المفسرين إلا لاستجلاء المعنى دون مساس بالمبنى.

وإذا تصدينا لهذه الأسئلة بالإجابة وبناءً على التوضيح الذى أوردناه آنفًا، تقول أنه لابد أن يكون للابتلاء معنى، وللفتنة معنى آخر كالتالى.

فالابتلاء : اختبار لا يمكن دفعه ولا اختيار للإنسان فيه كالحياة والموت والرزق قليله وكثيره، والصحة سلمت أو اعتلّت وصدق من قال: لا حيلة فى الرزق ولا شفاعة فى الموت.

أما الفتنة : فهى اختبار يمكن دفعه وللإنسان فيه اختيار.

وإذا رجعنا إلى كتاب الله تعالى سوف يتأكد لنا هذا المعنى.

آيات بينات عن الابتلاء :

* قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ

وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

إن موضوع الابتلاء فى هذه الآية أمور لا يمكن للإنسان دفعها، وليس له اختيار فيها ولكن اختياره يقع بعد حدوثها، فإما يصبر فيؤجر، وإما يجزع ويعترض فيوزر.

* قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[الأنعام: ١٦٥].

تبدأ الآية بتأكيد أن الله «هو» الذى جعل بعضنا فوق بعض درجات ليبتلينا ولا حيلة لنا فى ذلك وحكمته هى التى اقتضت ذلك، فإذا رضينا أُجرنا، وإذا سخطنا لن يتغير من الأمر شىء .. وعوقبنا.

والآيات فى هذا الباب كثيرة ونكتفى منها بهذا القدر.

آيات بينات عن الفتنة :

* قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

[الحديد: ١٤].

النداء من المنافقين على المؤمنين يوم القيامة، ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أى أن هذا كان فعلكم واختياركم لأنفسكم وكان يمكنكم اختيار التى هى أحسن.

* قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ...﴾ [الأعراف: ٢٧] ونحن نعلم كيف أخرج الشيطان أبوينا من الجنة، لقد أمره الله ـ تعالى ـ بعدم الأكل من الشجرة المحرمة، وأغراه الشيطان بالأكل منها فأكل، وكان

من الممكن أن يمتنع ولم يكن مقهوراً على ذلك فوقع فى المحظور وكان ما كان واستمع إلى قول الله تعالى عما سيقوله الشيطان لمن استجابوا لدعوته: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ... ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

* قوله تعالى: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ [طه: ٤٠].

فقد قتل موسى عليه السلام الرجل المصرى وكان من الممكن ألا يقتله والدليل على ذلك أنه استغفر ربه وتفادى نفس الخطأ فى اليوم التالى بعد أن كاد يقع فيه مرة أخرى.

والآيات فى هذا الباب أيضاً كثيرة ونكتفى منها بهذا القدر.

ونستعيذ بالله مما استعاذ منه الرسول عليه الصلاة والسلام وندعوا معه ونقول :

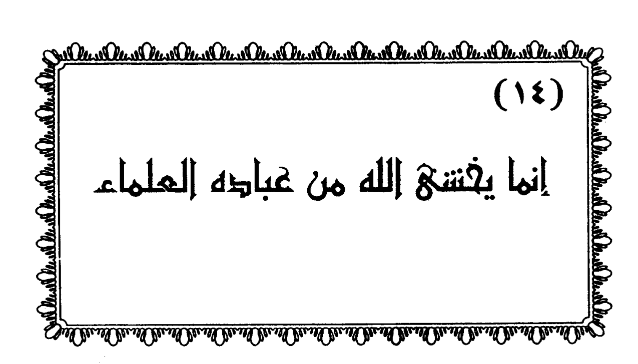
* «اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن».

* «اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء».

.. آمين.







(١٤)

إنما يخشى الله من عباده العلماء



يقول تعالى فى سورة فاطر :

* ﴿ . . إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

[فاطر : ٢٨] .

لقد أجهد المفسرون أنفسهم عندما تناولوا هذا الشطر من الآية بالتفسير، فالبعض منهم قال أن المقصود بالعلماء .. هم علماء الدين لأنهم أعرف الناس بمسائل الحلال والحرام، وبحكمة الأوامر والنواهى، وبتأويل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، واستنباط الأحكام الشرعية من هذه النصوص .. وكل هذا يورثهم خشية الله.

والبعض الآخر قال أنهم العلماء الباحثون فى علوم الطب والهندسة والكيمياء والفلك وغيرها من العلوم الطبيعية لأنهم يتعمقون فى أسرار المواد وبديع صنع الله فى المخلوقات، ودقة نظام الله فى الكون .. وكل هذا يورثهم خشية الله.

والبعض الثالث قال أن العلماء هم من جمعوا بين العلوم الدينية والعلوم الطبيعية.

إن كل هذه الأقوال تكلمت عن الفروع ولم تبدأ بالأصل الأول للعلم .. وهو العلم بالله. أى العلم بأسماء الله وصفاته، وأقواله وأفعاله، وقدرته وحكمته، وقبل كل ذلك وحدانيته، وحدانية الألوهية والربوبية والحاكمية. فالعلم بالله هو أشرف العلوم لمن أراد أن يتعلم ويبدأ طريقه إلى الله.

فإذا عرفت الله حق المعرفة عبدته حق العبادة وخشيته حق الخشية. وإذا وصفت أحداً من الناس بأنه لا يخشى الله فهو وصف مبتور، والوصف الصحيح أنه لا يعرف الله لأنه لو عرفه لخشيه، لأنه لا يوجد من يعرف الله ولا يخشاه. واستمع إلى قوله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿ .. إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ .. ﴾ [فاطر: ١٨].

وفى كثير من سورة القرآن الكريم تُذْكر الخشية كأثر من آثار العلم بالله وكدافع للاستقامة على أمر الله وكسبب من أسباب رضوان الله وحسن العاقبة

نذكر منها قوله تعالى :

* ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ... ﴾ [يس: ١١].
* ﴿ ... رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: ٨].
* ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٩].
* ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾.

[النور: ٥٢].

* ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠].
* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[الملك: ١٢].

إذاً فإن أخشى الناس لله هم العلماء بالله أولاً، ثم بآيات الله التنزيلية والكونية بعد ذلك ولهذا لم يجد رجال التصوف وصفًا لأقطابهم خيراً من وصفهم بأنهم «العارفون بالله».

ومن أجمل الأقوال التى قيلت تأكيداً للمعنى الذى نهدف إليه .. قول عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : «كفى بالخشية علماً، وكفى بالاغترار جهلاً».

فكم من المسلمين لم يحصلوا إلا على قدر متواضع من العلم أو لم يتعلموا أصلاً فى معاهد العلم، ولكنهم يخشون الله تعالى أشد الخشية ..

هؤلاء من العلماء بالله الذى تشير إليهم الآية، وقد نسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال داعياً : «اللهم إيماناً كإيمان العجائز» ..

والعجائز هن اللاتى قادتهم فطرتهم السليمة إلى خشية الله دون تعليم سابق، ودون حاجة لتهافت الفلاسفة الذى قادتهم فلسفاتهم فى بعض الأحوال إلى الزندقة..

ويعرف ذلك من لديه إحاطة بعلم الكلام وأحوال المتكلمين.

وكم من المسلمين وصلوا إلى أرفع الدرجات العلمية فى تخصصاتهم فى العلوم الدينية أو الطبيعية أو كلاهما معاً ولكنهم لا يخشون الله فى أقوالهم وأعمالهم بل قد يعتنقون فكراً يتناقض مع الإسلام مثل الماركسية أو العلمانية .. هؤلاء هم الجهلاء بالله الذين اغتروا بعلومهم وأوضاعهم الدنيوية .. فضلوا وأضلوا.

فإذا اجتمع العلم بالله الذى يورث الخشية مع العلم بالعلوم الشرعية والطبيعية .. كان هذا هو النموذج الأمثل، حيث إن خشية الله سوف تصون العلم، والعلم سوف يزيد الخشية. فإن اجتمعا كان فى اجتماعهما الخير لمن اجتمعا له وللناس، وإن افترقا كان فى افتراقهما الشر لمن افترقا عنده وللناس.

ويكفى مثلاً لذلك العلم الذى قاد لصنع القنبلة الذرية وما أصاب وما يمكن أن يصيب الإنسان والحياة بالرعب والدمار. وكيف أن «نوبل» الذى اخترع الديناميت قد رأى ماذا ترتب على اختراعه من ألوان الدمار والضحايا، فحاول أن يخمد نار ضميره بتخصيص مبلغ من المال يصرف منه سنوياً جوائز نوبل لمن له جهد بارز فى سلام العالم، أو خدمة البشرية فى مجال العلوم الطبيعية أو الإنسانية، والإبداع الأدبى الذى يهدف إلى ترسيخ مبادئ السلام، وقيم الحق والخير والجمال التى هى المباحث الثلاثة للفلسفة .. ولكن هيهات، هيهات أن يصل نوبل إلى هدفه من جوائزه، فقد خرج المارد من القمقم، ولا يمكن أن يعود إليه مرة أخرى، فقد تلقف اختراعه المفسدون فى الأرض، وتلقف فكرته النبيلة الخاصة بالجوائز من أساؤوا استخدامها لتحقيق أهداف خبيثة وأغراض خسيسة.

لعلنا أيقنّا مما سبق أن العلم بالله تعالى هو أشرف العلوم، وأن العلماء بالله هم أخشى الناس لله وأنهم هم المقصودون بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾.

وقد كان الرسول أخشى الناس لله وأتقاهم له كما قال ﷺ عن نفسه.

لماذا ؟ لأنه كان أعلم الناس بالله .. وبالتالى أخشاهم وأتقاهم له.

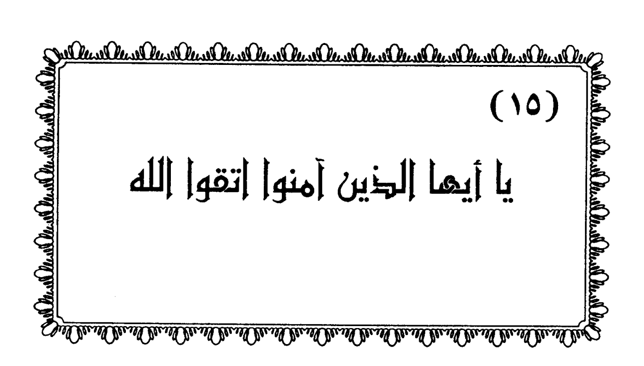
لذلك كانت من أدعيته المأثورة ما سندعوا الله به ختاماً لهذا الموضوع :

* «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك».

* «اللهم إنا نسألك علماً نافعاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً».

.. آمين .

❀ ❀ ❀



(١٥)

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله



ينادى الله المؤمنين فى ختام سورة الحشر بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ [الحشر: ١٨ - ٢٠].

ويلفت النظر فى هذا النداء من الله ـ تعالى ـ للذين آمنوا ـ أى الذين سبق لهم الإيمان ـ أنه يأمرهم بالتقوى مرة من بعد مرة فى آية واحدة مما يدفعنا لطرح بعض الأسئلة ..

ما الإيمان؟ وما التقوى؟ وهل كل مؤمن تقى وكل تقى مؤمن؟

سوف نحاول الإجابة على هذه الأسئلة التى كثيراً ما تثور فى الأذهان ..

الإيمان :

كما عرفه الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث المشهور الذى يرويه عمر بن الخطاب ﷺ هو: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، وهذه هى أركان الإيمان أو الغيبيات الستة، فالإيمان أساسًا هو إيمان بالغيب، وهو ما غاب عن الإنسان زمانًا أو مكانًا أو الاثنين معًا ولكنه صدقه عندما أخبر به من رسل الله ـ تعالى ـ عليهم وعلى خاتمهم أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

لذلك كانت أول صفة من صفات المتقين كما جاء فى أول سورة البقرة ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ... ﴾.

والإيمان .. كما عرّفه العلماء هو «نطق باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان».

وهو تعريف يشمل النطق بالشهادتين باللسان، والاعتقاد فى الأركان الغيبية

الستة لإيمان ومحله القلب، ثم العمل بأركان الإسلام الخمسة بكل الحواس والجوارح فى الجسم.

والأركان كما عرّفها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هى أركان الإسلام الخمسة كما جاءت فى الحديث السابق الإشارة إليه «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

أما التقوى:

فهى الإيمان العملى، أى العمل بمقتضى الاعتقاد مع الامتناع عن أى شيء يخالف هذا الاعتقاد .. قولاً وعملاً.

فمن سبق له أن نطق بالشهادتين .. فعليه أن يسلك فى حياته سلوك الموحدين وألا يشوب قوله وعمله أى لون من ألوان الشرك .. كبيره وصغيره، ظاهره وباطنه.

وعلى من اعتقد فى الغيبيات الستة، وعرف الله كما عرّفه الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وعرف أن لله ملائكة يروننا ولا نراهم .. مأمورين من الله ـ تعالى ـ بأوامر شتى ﴿ ... لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]. ومن هذه الأوامر نفخ الأرواح وقبضها، وكتابة الأقوال والأعمال مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]. ومنهم خزنة الجنة وخزنة النار، وغير ذلك كثير من شئون الملائكة مما لا يتسع المجال لذكره. وعرف القرآن الكريم وما فيه من أوامر ونواهى، ووعد ووعيد وعرف معه أن لله ـ تعالى ـ كتبًا سابقة أنزلها على الرسل السابقين. وعرف الرسول عليه الصلاة والسلام وعرف سنته وعرف ما فيها من أوامر ونواهى وعرف معه الرسل والأنبياء السابقين وأن دينهم هو الإسلام مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وعرف اليوم الآخر وأن هذه الحياة الدنيا ابتلاء وأن بعدها الموت وبعد الموت بعث وحساب وبعدهما خلود إما فى الجنة لمن أحسن

العمل، وإما فى النار لمن أساء العمل مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ... وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]. وعرف أن كل شيء فى هذا الكون لا يكون إلا بقضاء الله وقدره مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه مصداقًا للحديث الذى رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «... واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك ...»، وأن ما يراه العبد خيرًا قد يكون شرًا، وأن ما يراه شرًا قد يكون خيرًا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ... وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وبعد أن عرف العبد كل ذلك عن أركان الإيمان الستة .. سلك فى حياته بمقتضى هذه المعرفة وامتنع عن أى شىء يخالف هذه المعرفة .. قولاً وعملاً.

وكذلك على العبد الذى عرف أركان الإسلام الخمسة .. فعبد الله ولم يشرك به شيئًا ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ... ﴾ [النساء: ٣٦]، وأقام الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿ ... إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ... ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وآتى الزكاة التى تطهر النفس من الشح وتطهر المال من حق الفقير والمسكين ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وصام رمضان فأورثه الصيام التقوى ومراقبة الله فى السر والعلانية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلاً فعرف كيف يكون الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ... ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وبعد أن عمل بهذه الأركان الخمسة للإسلام سلك فى حياته بمقتضى هذه العبادات وامتنع عن أى شىء يخالفها .. قولاً وعملاً.

من سلك فى حياته بمقتضى قوله باللسان واعتقاده بالجنان وعمله بالأركان ولم يخالف سلوكه قوله ولم يخالف عمله اعتقاده .. فهو تقى .. وهذه هى التقوى التى عرّفها الكثيرون من الصحابة والتابعين بإحسان من الأئمة والعلماء .. ومن أشهر هذه التعريفات قول على بن أبى طالب ﷺ أن التقوى هى «الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل»، ومنها أيضًا قولهم أن التقوى هى .. «أن يُعبد الله فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر».

لذلك كانت الجنة هى دار المتقين كما جاء فى كثير من آيات القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

وخير معين على تقوى الله .. هو المداومة على ذكر الله واليوم الآخر لذلك قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨]

وأخطر ما يكون على المؤمن أن ينسى ذكر الله، وذكر اليوم الآخر، فمن نسى ذلك أنساه الله نفسه .. لذلك قال تعالى: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩]

ولنتصور الإنسان وقد نسى نفسه .. فكيف يكون حاله؟ .. لابد أن يخرج عن جادة الصواب، وإن كان مؤمنًا خرج عن دائرة الإيمان أو أوشك على ذلك فيكون من الفاسقين كما تخرج الرطبة من قشرتها.

ونسيان الله على نوعين: نسيان الجحود ـ ونسيان الذكر .. والأول كفر بالله، والثانى غفلة عن الله .. ونستعيذ بالله منهما.

وأخيرًا .. لا ينسينا هذا الاستطراد عن الإيمان والتقوى .. أن نُجيب على سؤال طرحناه فى البداية .. هل كل مؤمن تقى، وكل تقى مؤمن ؟

إن الإجابة على هذا السؤال فى ضوء ما أسلفناه أصبحت سهلة ويسيرة .. وهى أن كل تقى مؤمن، وليس كل مؤمن تقيًا، فالمؤمن التقى من وافق من سلوكه

اعتقاده، ووافق عمله قوله، ووافقت تصرفاته شعائره. أما المؤمن الذى يخالف سلوكه اعتقاده، ويخالف عمله قوله، وتخالف تصرفاته شعائره .. فهو ليس بتقى وهو على خطر عظيم في شأن إيمانه لأنه يقترف أمراً يكرهه الله أشد الكراهية مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ونسأل الله ــ تعالى ــ أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .. وأن يجعلنا من عباده المتقين.

.. آمين .





(١٦)

فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا

الرشد .. في القرآن الكريم



الرُّشْد .. من المفردات الهامة التى تناولها القرآن الكريم، وتنوع ذكره فى مواضع مختلفة، وآيات متعددة بالدرجة التى تحفز على تتبع هذه الآيات واستخلاص المعانى التى وردت بها عن الرشد والراشدين .. وذلك على الوجه التالى :

أولاً : تعريف الرشد :

يقول تعالى :

* ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

* ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

من هاتين الآيتين نستطيع أن نستخلص معنى الرشد، فإن كان الغى هو الغواية فإن الرشد هو الهداية وإن كان سبيل الغى هو سبيل الذين كذبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين فإن سبيل الرشد هو سبيل الذين صدقوا بآيات الله وكانوا لها منتبهين.

وقد جاء فى قاموس المصباح المنير أن الرشد: هو الصلاح وهو خلاف الغى والضلال، وهو إصابة الصواب.

والرشد مرحلة من المراحل السنية التى يمر بها الإنسان، فإن كان سن التمييز الذى يبدأ بالسنة السابعة ـ تقريبًا ـ من عمر الإنسان يعنى التمييز بين الذى ينفع والذى يضر وهو فى أبسط صوره التمييز بين التمرة والجمرة، لأن تناول التمرة ينفع بأكلها، وتناول الجمرة يضر بأصابع من تناولها.

فإن سن الرشد ـ غير محدد شرعًا ومحدد قانونًا ببلوغ سن الواحد والعشرين ـ يعنى الأهلية للتصرف وبالتالى المسئولية عن التصرف، كما يعنى القدرة على الاختيار بين البدائل، والترجيح بين الآراء المختلفة، كذلك يعنى الاستعداد لتحمل المسئولية عن غيره .. سواء كان هذا الغير زوجةً أو أولادًا، أو أمةً وشعبًا .. وبين هذين المستويين من مستويات المسئولية الأدنى والأعلى توجد مستويات عديدة

بينهما.

وهذا الوصف لسن الرشد يلقى الضوء على معنى الرشد وسوف يزداد فهمنا لمعنى الرشد باستعراض ما سيلى من آيات القرآن الكريم.

ثانيًا : الإيمان بالله ـ تعالى ـ والاستجابة لدعوته وإسلام الوجه له .. دليل الرشد :

يقول تعالى :

* ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

* ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

أما عن آية «البقرة» فهى إجابة عن سؤال سأله الصحابة للرسول عليه الصلاة والسلام عن الله ـ تعالى ـ .. أهو قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فكانت الإجابة أنه قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه .. ولكن بشرط أن يستجيبوا لأوامره ونواهيه ويؤمنوا بألوهيته وربوبيته وحاكميته .. وقبل كل ذلك وحدانيته.

فالإجابة شرطها الاستجابة والإيمان فإن فعلوا كان ذلك سبيلاً لرشدهم .. أى لصلاح أمورهم فى الدنيا وحسن عاقبتهم فى الآخرة.

أما عن آيتى سورة «الجن» .. فهما شهادة من الجن الذين استمعوا للرسول عليه الصلاة والسلام وهو يقرأ القرآن ﴿ ... فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن: ١، ٢]، وهما دليل استجابتهم لدعوة الحق بعد التحرى والتدقيق .. فأقروا بأن من أسلم فأولئك تحروا رشدًا .. أى أصابوا الصواب، أما من أعرضوا عن الحق وظلموا أنفسهم بالكفر والشرك فمآلهم أن يكونوا لجهنم حطبًا.

ويالها من حكمة بالغة من عالم الجن المؤمن .. استحقت أن تكون عنواناً لمقالنا هذا.

ثالثاً : الرشد يؤتاه عباد الله الصالحون من رب العالمين :

يقول تعالى :

* ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].
* ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾.

[الكهف: ١٧].

قبل أن نتدبر آية «الأنبياء» ينبغي أن نتذكر قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾. [الصافات: ٩٦].

والرشد نعمة آتاها الله لإبراهيم عليه السلام ويؤتيها لعباده الصالحين، والأمثلة الدالة على رشد إبراهيم عليه السلام كثيرة فى القرآن الكريم منها الطريقة التى اتخذها لكى يثبت لنفسه وحدانية الله بأن تطلع إلى السماء فرأى الكوكب ورأى القمر ورأى الشمس فرأى أحوالها إلى بزوغ وأفول وانتهى أمره إلى الحقيقة الساطعة والخالدة أنها مخلوقات خلقها فاطر السماوات والأرض فقال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

فكانت الحنيفية السمحاء التى عبد الله بها كل أنبياء الله الصالحين عن أبيهم إبراهيم عليه السلام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ومنها الطريقة التى اتخذها لكى يثبت لقومه وحدانية الله بأن حطم أصنامهم إلا كبيراً لهم وتحاور معهم حتى أثبت لهم بطلان عبادتهم لهذه الأصنام التى لا تسمع ولا تنطق، ولا تنفع ولا تضر حتى اعترفوا بذلك ولكنهم ارتدوا على أدبارهم .. فكيف يتركون دين الآباء والأجداد بهذه السهولة ويتبعوا هذا الفتى الذى يقال له

إبراهيم ؟!. إنها أمثلة يتجلى فيه الرشد فى أسمى معانيه.

أما آية «الكهف» فهى امتداد وتأكيد لآية «الأنبياء». فالرشد من الله، والهداية من الله، ومن أضله الله فلن تجد له وليًا مرشدًا مصداقًا لقوله تعالى أيضًا: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ .. ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ .. كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ .. ﴾ [المدثر: ٣١].

والرشيد.. اسم من أسماء الله الحسنى .. فهو المرشد لعباده، وهو الذى تتجه تدبيراته إلى غاية الصواب والسداد، وهو الذى يرشد الخلق ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم، ويوجههم بحكمته إلى ما فيه خيرهم ورشادهم فى دنياهم وأخراهم.

رابعًا : طلب الرشد. من دعاء الصالحين، ومما يأمرهم الله بطلبه :

يقول تعالى :

* ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠].

* ﴿ ... وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٤].

الرشد من عطاء الربوبية يؤتاه عباد الله الصالحون فيشكرون، ويفتقدونه فيطلبون.

وهذا ما حدث مع أصحاب الكهف بعد أن ضاقوا ذرعًا بأحوال قومهم الذين اتخذوا من دون الله آلهة. فلما أعيتهم الحيل وعجزوا عن التصرف الذى يحفظ لهم إيمانهم بربهم لجأوا إليه وطلبوا منه الرحمة والرشد فى الأمر.

ولما كان المطلوب فوق طاقتهم جعلهم الله آية وضرب على آذانهم فى الكهف سنين عددًا .. كما قص الله علينا نبأهم فى سورة الكهف، والمعنى الذى يمكن أن نستخلصه من هذه الآية .. أن الرشد يعنى حسن التصرف فى مواجهة الشدائد.

أما الآية الثانية فهى خطاب من الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام يأمره

بطلب الهداية والرشد فى أمر اختلط على الناس وتعددت فيه الآراء والاجتهادات والادعاءات عن قصة أصحاب الكهف وعددهم .. فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢ - ٢٤].

والرشد هنا يعنى استجلاء الحقائق الغامضة من مصادرها الصحيحة أو السكوت عنها فى حالة عدم الوصول إليها والامتناع عن ترديد ما يقال دون دليل، كما يعنى الالتزام بالتوجيهات التى وردت فى الآيات وهى عدم الجدال فى شأن أصحاب الكهف وعددهم، وعدم اللجوء لغير الله فى هذا الشأن، وتقديم المشيئة فى كل الأحوال، وذكر الله فى حالة النسيان لعل الله يهدى ويرشد إلى الحقائق التى لا مراء فيها ولا جدال.

خامسًا : الرشد هو غاية العلم :

يقول تعالى :

* ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ .

[الكهف: ٦٦].

إذا كان الرشد عطاء من الله، ودعاء إلى الله، فهو أيضًا يكتسب بالعلم. والمؤمنون مأمورون بطلب العلم، فطلب العلم فريضة، وكلما زاد العلم زاد الصواب، وزادت القدرة على حسن التصرف والحكم الصحيح على الأشياء، وزادت الخشية لله تعالى.

لذلك سعى موسى عليه السلام لطلب العلم، وطلب من الخضر أن يكون تابعًا له لكى يعلمه مما عُلم رشدًا .. فالرشد هو غاية العلم .. فإذا تجرد العلم من هذه الغاية

أصبح علماً لا ينفع ولا يرشد .. ونستعيذ بالله من علم لا ينفع ونسأله العلم النافع الذى يرشد إلى السداد والصواب.

سادسًا : الرشد .. يعنى حسن التصرف :

يقول تعالى :

* ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... ﴾ [النساء: ٦].

هذه الآية صريحة فى الدلالة على أن الرشد يعنى حسن التصرف فى الأموال وفى غيرها. فهى أمر من الله ـ تعالى ـ للأوصياء على اليتامى أن يختبروا حسن تصرفهم إذا وصلوا إلى سن البلوغ والتكليف وبالتالى الأهلية للنكاح .. أى الزواج، فإن آنسوا ووجدوا أنهم يحسنون التصرف فى الأموال وفى غيرها، فعليهم أن يرفعوا عنهم الوصاية ويدفعوا إليهم أموالهم فهم أولى بها، فلا مبرر للوصاية على من يحسن التصرف.

سابعًا : الرشد .. هو غاية الهدى :

يقول تعالى :

* ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٣٨].

هذا هو مؤمن آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه ثم أظهره عندما هدد فرعون بقتل موسى عليه السلام، وألقى بيانًا إيمانيًا غاية فى الحكمة والشجاعة وكان من بينه هذه الآية التى يدعوهم فيها لاتباعه كى يهديهم سبيل الرشاد.

والرشد هنا .. هو الدين الصحيح، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر .. فمن اهتدى بهذا الهُدَى فقد سلك السبيل إلى الرشد والرشاد.

ومن الغريب أن فرعون قد ادعى لنفسه نفس الدعوة وقال لقومه: ﴿ ... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾ [غافر: ٢٩].

والفرق واسع والبون شاسع بين دعوة هذا الرجل ودعوة فرعون، وهذا الفرق يتضح من قوله تعالى على لسان الرجل المؤمن: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ [غافر: ٤١، ٤٢].

لذلك فإن من الرشد .. القدرة على التفرقة بين دعوة الحق ولو كانت مستضعفة، ودعاوى الباطل ولو كانت مدججة بالسلاح.

ثامنًا : رجل رشيد فى قومه .. يصلحهم، ورجل غير رشيد فى قومه .. يفسدهم :

يقول تعالى :

* ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨ - ٩٧].

* ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود: ٩٦ - ٩٧].

لقد شاعت فى قوم لوط فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء مخالفين بذلك الناموس الطبيعى مما يقطع السبيل إلى التناسل ويمنع عمران الأرض بالذرية.

وجاءت الملائكة إلى لوط عليه السلام لكى ينفذوا أمر الله ـ تعالى ـ وينزلوا العقاب بهؤلاء المفسدين. جاؤوا فى شكل رجال غاية فى الوضاءة والحسن. فما أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الأضياف حتى هرعوا إليه طمعًا فى ممارسة الفاحشة معهم وهم لا يعلمون حقيقة أمرهم. فاستجاش فيهم لوط مشاعر التقوى ـ وأنّى لهم ذلك ـ حتى لا يخزوه فى أضيافه، ودعاهم إلى الناموس الطبيعى بالزواج من البنات .. بناته وبناتهم، ثم قال لهم: ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾.

فالرجل الرشيد فى قومه يصلحهم ويهديهم إلى الصواب ويحذرهم من مغبة الضلال والفساد .. ولكن للأسف الشديد لم يكن هذا الرجل الواحد موجوداً فاستحقوا بذلك ما نزل بهم من عذاب ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وإذا كان عدم وجود رجل رشيد فى قوم يؤدى إلى الفساد وسوء العاقبة، فإن وجود الرجل غير الرشيد فى قوم يؤدى بهم إلى نفس النتيجة، فالسلبية فى الصلاح تعادل وتوازى الإيجابية فى الفساد. وهذا كان شأن فرعون مع قومه الذين اتبعوه وقد وصفه الله فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾. وفرعون الذى تكرر ذكره كثيرا فى القرآن الكريم يعتبر نموذجا للضلال والفساد وفتنة السلطان حتى وصل به الأمر أن قال لقومه: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال لقومه أيضاً: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾[القصص: ٣٨].

أما عن قومه فقد قال تعالى عنهم وعنه: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤]. فماذا كانت عاقبته وعاقبتهم ؟

نعود مرة أخرى إلى سورة هود فيقول تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود: ٩٨، ٩٩].

تاسعًا : الراشدون .. ليسوا فقط الذين يحبون الإيمان، ولكنهم أيضًا الذين يكرهون الكفر والفسوق والعصيان :

يقول تعالى :

* ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧].

يتفاضل المؤمنون فى درجات إيمانهم وبالتالى تتفاضل درجاتهم فى الجنة .. فالجنة درجات، أعلاها الفردوس الأعلى حيث رفقة الأنبياء والشهداء والصالحين .. وحسن أولئك رفيقاً.

والرشد فى الإيمان يرشح أصحابه للدرجات العليا فى الجنة. فما هو الرشد فى الإيمان ؟

الرشد فى الإيمان .. هو أن تحب وتكره .. فمن أحب الإيمان، وجب عليه أن يكره الكفر والفسوق والعصيان .. ومن أحب الخير كره الشر، ومن أحب التقوى كره الفجور، ومن أحب الهدى كره الضلال، ومن أحب الطاعة كره المعصية، ومن أحب الرشد كره الغى .. وهكذا.

لذلك لا يجد المؤمن حلاوة الإيمان إلا إذا أحب الإيمان وكره كل ما يتنافى مع مقتضياته.

وفى هذا المعنى يروى لنا الصحابى الجليل أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار»** متفق عليه.

وفى المقابل نجد أن الكثيرين يجمعون بين حب الإيمان وحب ما يناقضه وهذا الجمع يجرح إيمان المؤمن ويفقده الشعور بحلاوته والأمثلة على ذلك كثيرة مثل رجل يصلى ولا ينتهى عن الفحشاء والمنكر، وامرأة تدعى الإيمان وترتدى الملابس المتبرجة، وتاجر يؤدى فريضة الحج ويطفف فى الكيل والميزان، وولى أمر يحكم ويظلم، وعامل يعمل ويرتشى، وعالم لا يعمل بعلمه، وداع يدعو الله ومأكله حرام ومشربه حرام وغذى بالحرام، وصائم لا يتقى الله فى قوله وعمله، وشاهد بوحدانية الله يقع فى ألوان من الشرك الأصغر أو الأكبر بسلوك أو اعتقاد أو تصور يتنافى مع الوحدانية .. وغير ذلك من الأمثلة.

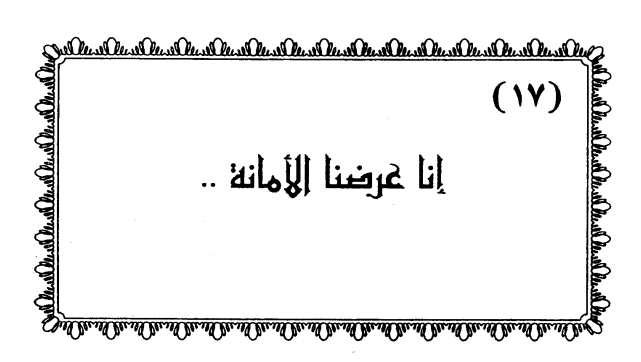
والراشدون .. هم الذين لا يقعون فى هذه المخالفات، ولا يجمعون بين حب

الإيمان وحب ما يناقضه .. هم الذين يحبون الإيمان ويكرهون الكفر والفسوق والعصيان كما جاء وصفهم فى سورة الحجرات . نسأل الله ـ تعالى ـ أن نكون منهم.

وختاماً .. ندعوا الله تعالى بهذا الدعاء المأثور عن الرسول عليه الصلاة والسلام :

* «اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، وأسألك العزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ...» رواه الترمذى وابن حبان عن شداد بن أوس رضي الله عنه .





(١٧)

إنا عرضنا الأمانة ..



يقول تعالى فى سورة الأحزاب :

* ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

للمفسرين أقوال كثيرة فى هذه الآية لأنها تثير أسئلة عديدة أمام من يتصدى لتفسيرها :

* فكيف تم عرض الأمانة ؟

* وما هى الأمانة ؟ ولماذا أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها ؟

* وما معنى إشفاق السماوات والأرض والجبال ـ والإشفاق شعور ـ فهل لها مشاعر ؟

* وكيف كان حمل الإنسان للأمانة ؟

* ولماذا وُصف الإنسان بأنه كان ظلوماً جهولاً ؟

أما عن عرض الأمانة :

فمن المتصور أنه فى الملأ الأعلى بحضور الإنسان. ولكن أى إنسان؟ هل هو آدم مُمثلاً لجنس البشر؟ أم هو عرض مماثل للعرض الذى تم فيه ميثاق الذر الذى ورد فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ... ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. أم أن ميثاق الذر هو المقصود بعرض الأمانة؟ .. الأمر يحتمل كل هذه الوجوه .. والله أعلم.

أما الأمانة :

فهى مقومات الخلافة ـ خلافة الإنسان فى الأرض ـ من عقل وقلب وحواس أهمها السمع والبصر اللازمان للابتلاء الذى من أجله خلق الله الإنسان مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢]. فلأجل الابتلاء جعله الله سميعًا بصيراً. والعقل والقلب والحواس من

وقيل : إن الاختيار هو الأمانة المشار إليها فى الآية حيث إن الذى يميز الإنسان عن باقى المخلوقات ـ ومثله فى ذلك الجن ـ هو الاختيار بين الإيمان والكفر، وبين الطاعة والمعصية، وبين الإحسان والإساءة، وبين التقوى والفجور. أما السماوات والأرض فقد قال الله لهما: ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾. [فصلت: ١١].

اما عن إباء السماوات والأرض والجبال :

فليس إباء عصيان، ولكنه إباء عجز وعدم قدرة على التحمل، فلم يخلقهم الله ـ تعالى ـ للاختيار. وأما إشفاقهم فليس إشفاق الخائف من شىء، ولكنه إشفاق من دخل عليه شىء ليس من طبيعته أو تكوينه فأشفق منه، وهو يدل على أن السماوات والأرض والجبال لها مشاعر أصابتها عند العرض بالإشفاق، واستمع إلى قوله تعالى عن موقف السماوات والأرض من فرعون وجنوده بعد غرقهم فى البحر: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩]. وهى آية تؤكد أن لها مشاعر تبكيها أو تمنعها من البكاء حسب الأحوال.

اما عن حمل الإنسان للأمانة :

فقد كان فى مشهد من السماوات والأرض والجبال حتى يعرفن فضل الإنسان على باقى الخلائق مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وهذا التكريم والتفضيل .. إذًا ليس انحيازًا من الله للإنسان ولكنه الله ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]. فهيأ للإنسان القدرة على تحمل الأمانة دون غيره من المخلوقات.

اما وصف الإنسان بانه كان ظلومًا جهولاً :

فهو وصف لمن خان الأمانة ولم يحملها حق حملها، ولأن هذا سوف يكون

شأن الغالبية والأكثرية، فجاء الوصف منطبقًا على الأكثرية مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧]، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿ .. فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]، ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] .. وغير ذلك من الآيات، أما الأقلية فهم المؤمنون الشاكرون الموحدون والذين يعلمون .. فأدوا الأمانة وحملوها حق حملها.

لذلك جاءت الآية التى بعد آية الأمانة والتى تختتم بها السورة لتذكر لنا الصنفين وعاقبتهما عند الله تعالى يوم القيامة. فالأكثرية من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات سوف يعذبهم الله، والأقلية من المؤمنين والمؤمنات سوف يتوب الله عليهم .

﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

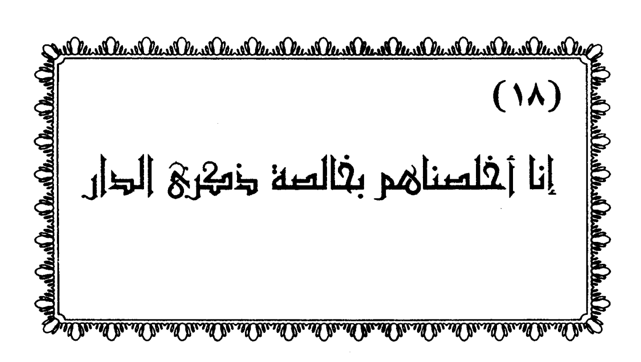
ولكن لماذا توعد الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات بالعذاب، ولم يعد المؤمنين والمؤمنات بالنعيم؟ نقول ـ والله أعلم ـ لعلم الله السابق أن حمل الأمانة وأداءها كاملة مما لا يكاد يتحقق على وجهه كاملاً إلا فى صفوة مختارة من أنبياء الله ورسله.

إذًا فالمطلوب من الناس فى أعلى منازلهم، وأرفع درجاتهم أن يسددوا ويقاربوا، وأن يأتوا من الأمر ما استطاعوا كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام فى بعض أحاديثه. فإذا وقع منهم تقصير ـ وهو واقع حتماً ـ فإن رحمة الله ـ تعالى ـ ومغفرته من وراء هذا التقصير إذا هم تابوا ورجعوا إلى الله واستغفروه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

وكل من أخلص العبادة لله عز وجل ولم يشب عبادته شرك أو نفاق أو رياء، وكل من أخلص التوبة إلى الله .. فإن الله غفور رحيم.

.. اللهم اعف عنا واغفر لنا وارحمنا .. آمين.





(١٨)

إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار

يقول تعالى فى سورة ص :

* ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ .

[ص: ٤٥ - ٤٧].

الخطاب فى هذه الآيات لرسول الله ﷺ يأمره فيها بذكر أنبياء الله إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام ومن قبلها أمره بذكر أنبياء آخرين فقال تعالى :

﴿ .. وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧]. ثم عطف عليه ولده.

* ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠].

* ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ .

[ص: ٤١].

ومن بعدها قال تعالى :

* ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٨].

وبذلك يكون الله ـ تعالى ـ قد ذكر تسعة أنبياء .. منهم من ذكر بشأنه بعض التفصيلات، ومنهم من اقتصر على ذكره فقط مع وصفه بصفات الخير ... ويتخلل هذا الذكر قوله تعالى :

* ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وينتهى هذا الذكر بقوله تعالى :

* ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٤٩].

وتنتهى سورة « ص » بقوله تعالى :

* ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص: ٨٧، ٨٨].

هذه مقدمة ضرورية للإحاطة بجو السورة والذكر الذى يشيع فيها من مبتدأها

لمنتهاها تمهيداً للدخول فى الموضوع الذى سوف يقتصر على الآيات التى تصدرت هذا المقال :

* فقد ذكر الله ـ تعالى ـ إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام وشرفهم بنسبتهم إليه ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا ﴾ وبلفظ العبودية فهى أعلى مقام يصل إليه كل مخلوق. ويقتصر ذكرهم على تزكيتهم دون أن يقص علينا شيئاً من قصصهم. فبماذا زكاهم ؟

* ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ أى لهم أيادٍ ممدودة بالخير لمن يطلبه ولا يدخرون وسعًا فى ذلك وأعظم ما فى أيديهم من خير هو دعوتهم إلى الله، فمن استجاب لدعوتهم فاز بخير الدنيا والآخرة. ولهم أبصار فى آيات الله الكونية وبصائر فى آيات الله التنزيلية وشرائعه وأوامره ونواهيه. وبماذا زكاهم أيضاً ؟

* ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم ﴾ والمُخْلَص هو من اصطفاه الله واختاره وخلَّصه من كل الشوائب والأكدار وهيأه منذ نعومة أظفاره لتحمل النبوة والرسالة .. فما أن يحملها الرسول ـ كل رسول ـ حق حملها .. فإنه يجد الإعانة من الله عز وجل .. وأعظم ما يعين لاستمرار السير على صراط الله المستقيم هو الذكر الدائم للآخرة لذلك كانت أداة الاستخلاص والخلاص والإخلاص ما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ فلا وسيلة غيرها، ولا دار غيرها حيث لا دار فى الحقيقة إلا الدار الآخرة حيث البقاء والخلود والقرار.

إذاً فالمرتقى ليس صعباً ولا مستحيلاً ولا مقصوراً على هؤلاء الذين أسماهم الله ـ تعالى ـ ﴿ عِبَادَنَا ﴾ .. فهم عباد ونحن عباد والوصول إليهم ليس ببعيد المنال، ووسيلة وصولهم إلى ما وصلوا إليه من مكانة متاحة لكل العباد.. ألا وهى الذكر الدائم للدار الآخرة.. لأن هذا الذكر يعين كل عبد مجتهد على اجتناب المعاصى والآثام .. وعلى فعل الطاعات والقربات لكى يزحزح عن النار .. ولكى يدخل الجنة .. ﴿ .. فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وإذا كـان طريق الوصـول والارتقـاء .. هو ذكـرى الدار، فـإن هاوية الانتكاس والارتكاس هي نسيان الدار .. لذلك قال تعالى فى نفس السورة :

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى فى غير سورة «ص» :

* ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٥١].

* ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٤].

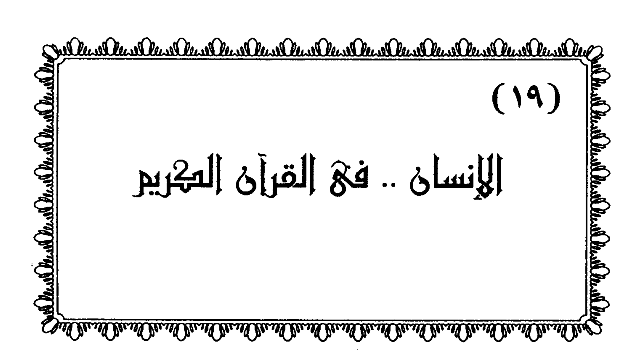
* ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٤].

ونعود مرة أخرى إلى ما زكّى الله به أنبياءه وعباده إبراهيم وإسحق ويعقوب .. فقد ختم هذه التزكية بقوله تعالى :

* ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾. وهذه تزكية أخرى لهم من الله تعالى فقد اصطفاهم من دون الخلق لتحمل الرسالة والنبوة، وقد رشحهم وأهّلهم لذلك أنهم من أهل الخير المجتنبين للشر.

ونسأل الله أن يجعلنا من دائمى الذكر للدار الآخرة، وأن يحشرنا فى زمرة المصطفين الأخيار .. آمين .





(١٩)

الإنسان .. في القرآن الكريم

يقول تعالى فى سورة المعارج :

* ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩ – ٢١].

* إن الإنسان صنعة الله .. والصانع أعلم بصنعته. وقد وصف الله سبحانه وتعالى الإنسان فى القرآن الكريم بصفات عديدة، وهى فى الغالب صفات ذميمة مطلوب منه أن يجاهد نفسه لكى يتخلص منها لأن وجودها يعوقه أن يكون أهلاً لتنفيذ الأوامر والتكاليف الصادرة إليه من ربه، فالأوامر فى القرآن الكريم لا تكون إلا بعد هذا النداء من الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ فما يكون من الذين آمنوا إلا أن يقولوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾.

أما الإنسان فلا ينادى فى القرآن الكريم بأوامر وفرائض وتكاليف، لأن الإنسان مثله كمثل قطعة من معدن خام لا تصلح للتصنيع والتشكيل قبل صهرها لكى تتخلص من خبثها. فإذا تخلصت من خبثها وأصبحت نقية من الشوائب أمكن تصنيعها وتشكيلها والاستفادة منها على الوجه الذى يريده لها صانعها.

وهكذا الإنسان .. عليه أن يتخلص من خبثه والشوائب العالقة به .. وهى الصفات التى وصف بها فى القرآن الكريم، فإذا تخلص منهاواستبدلها بالصفات العكسية والمضادة لها أصبح مهيأ للتشكيل بما يصدر إليه من أوامر ونواهى.

واستمع إلى قول الله ـ تعالى ـ فى هذا المعنى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠]. فالإنسان بهذا المعنى له طبيعة مزدوجة، وتشتمل نفسه على الفجور والتقوى. فإذا أراد لنفسه الفلاح فى الدنيا والآخرة عليه أن يزكى نفسه بالتخلى عن صفات الفجور، والتحلى بصفات التقوى. أما إذا دساها فقد أراد لنفسه الخيبة والخسران.

وهذا هو الابتلاء الذى من أجله خلق الله الحياة الدنيا مصداقًا لقوله تعالى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١، ٢].

وهذا هو الابتلاء الذى من أجله خلق الله الإنسان مصداقًا لقوله تعالى :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ١ - ٣].

* لقد وصف الله الإنسان فى الآيات التى تصدرت هذا الموضوع فى سورة المعارج بأنه هلوع، وتُفسر الآيات الهلع برد فعل الإنسان للخير والشر. فإذا مسه الشر مجرد مس جزع لذلك وانتابه الخوف والرعب وكأنه لم يكن فى خير قبل أن يأتيه هذا الشر ويأسًا من أن يأتيه خير بعد هذا الشر. وإذا مسه الخير مجرد مس استأثر به ومنعه عن غيره خوفًا من نقصانه أو ضياعه ولاعتقاده بأنه الجدير وحده دون غيره بهذا الخير.

أين هذه الصورة البائسة للإنسان الهلوع، من صورة الإنسان المؤمن المطمئن بالله الذى زكى نفسه وتحلى بالتقوى وتخلى عن الفجور ووصفه الرسول عليه الصلاة والسلام متعجبًا: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»** رواه مسلم عن صهيب بن سنان ﷺ.

وهو المؤمن الذى عرف عن الله قوله تعالى :

* ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

* ﴿ ... وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

عرف ذلك عن الله فاطمأن قلبه بالله، وتوكل على الله، وعلم أن الله ـ تعالى ـ لا يريد إلا الخير لعباده، فالخير دائمًا فيما يختاره الله، لذلك فهو حامد لله دومًا، راض بقضائه، وقانع بعطائه، وقبل ذلك موقن بلقائه .. وهى الشروط الثلاثة لطمأنينة النفس كما جاءت فى الدعاء المأثور: **«اللهم إنى أسألك نفسًا مطمئنة: توقن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك»**.

فما هى الصفات الأخرى التى وصف الله بها الإنسان فى القرآن الكريم ؟

١ - الظلم والجهل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٢ - اليأس :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾.

[الإسراء: ٨٣].

٣ - الضعف :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

٤ - العجلة :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء: ١١].

٥ - الجدال :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٤].

٦ - الشح والتقتير :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ

الإنسَانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

٧ـ الكفــر والجحــود :

﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس: ١٧].

﴿ إِنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦].

٨ـ الطغيـــان :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

٩ـ الهلــع والجــزع والمنــع :

﴿ إِنَّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩ – ٢١].

ونكتفى بهذا القدر من صفات الإنسان الذى ذُكر فى القرآن الكريم خمسة وستين مرة.

وعلى الإنسان إذا أراد لنفسه الخير فى الدنيا والآخرة ـ كما ذكرنا من قبل ـ أن يتخلى عن صفات الفجور ومنها ما ذكرناه آنفاً، وأن يتحلى بصفات التقوى.

اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

.. آمين .



(٢٠)

هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟



يقول تعالى فى أول سورة الإنسان :

* ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ١ - ٣].

* تبدأ السورة بسؤال موجه من الله ـ تعالى ـ إلى جنس الإنسان .. هل أتى على الإنسان وقت من الزمان لم يكن موجوداً، ولم يكن له ذكر بين مخلوقات الله ؟ .. ولأن إجابة السؤال من البديهيات حيث لا ينكر أى إنسان أنه أتى على جنس الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكوراً شأنه فى ذلك كشأن كل مخلوق .. لأن المخلوق حادث من الحوادث .. وقبل أن يحدث ـ أى يُخلق ـ لم يكن له وجود.

* وإذا كانت إجابة السؤال من البديهيات .. فما مغزى السؤال ؟!

المغزى هو أن يثير هذا السؤال بدوره أسئلة أخرى .. فإذا كان قد أتى على الإنسان وقت من الزمان لم يكن موجوداً .. فلابد من واجد أوجده، وخالق قد خلقه من عدم، وصانع قد صنعه على غير مثال سابق .. لأن الصنعة تدل على الصانع أو كما قالت الأعرابية بفطرتها .. أن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير.

* وبخلق الإنسان فقد احتواه ظرف الزمان وظرف المكان. إذاً قبل خلقه كان الزمان وكان المكان. فمن خلق الزمان والمكان ؟

وإذا كان لزمان خلقه بداية فلابد أن تكون له نهاية.

وهل سبق خلقه مخلوقات؟ وهل تلا خلقه مخلوقات؟

إذاً فالخالق لابد أن يكون الأول ليس قبله شىء، ولابد أن يكون الآخر ليس بعده شىء. وإذا كان قد خُلق من عدم وعلى غير مثال سابق فإن إعادته إلى ما كان عليه أيسر من خلقه من عدم، ومن قدر على النشأة الأولى فهو أقدر على النشأة الأخرى (البعث).

ولماذا كان خلْقُه ؟

إنه يرى أن كل المخلوقات من حوله لها دور وخُلقت لسبب .. السماوات والأرض، الهواء والماء، الشمس والقمر، البحار والأنهار، الحيوان والنبات والجماد، الطيور فى الهواء والأسماك فى الماء .. وهكذا ..

كل ذلك خُلق لسبب وبالتالى فهو أيضًا لابد أن يكون قد خلق لسبب وهو الأعلى والأكرم والأرقى بين المخلوقات .. فما هو هذا السبب ؟

* كل ما سبق وأكثر منه يثيره هذا السؤال الذى تُفتتح به سورة الإنسان، وبالتالى فإن السؤال يكون على حقيقته وليس كما جاء فى بعض التفاسير أن «هل» بمعنى «قد» .. وما أثاره هذا السؤال يمهد لما يتلوه من آيات.

* تجيب الآية الثانية على أحد الأسئلة الهامة التى أثارها السؤال الوارد فى الآية الأولى وهو .. لماذا خلق الله الإنسان ؟

لقد خلق الله الإنسان للابتلاء .. أى للاختبار مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]. فمن أحسن فله الإحسان فى الدنيا والآخرة مصداقًا للقانون الإلهى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ومن أحسن فقد قدم لنفسه الإحسان مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ... ﴾ [الإسراء: ٧]. ومن أساء فلنفسه الإساءة فى الدنيا والآخرة ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ... ﴾. وبصيغة أخرى تتأكد هذه السنن والقوانين الإلهية فى قوله تعالى: ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء: ١٥]. لأن من أحسن فقد اهتدى ومن اهتدى فقد أحسن، ومن أساء فقد ضل ومن ضل فقد أساء.

* وهكذا يتأكد فى كل موضوع من القرآن الكريم أن الله لم يخلق الإنسان سدى، وما كان خلقه عبثًا أو لهوًا أو لعبًا، وما ينبغى أن يكون فقد تعالى الله عن كل

ذلك علواً كبيراً. ونظم الآية الثانية من سورة الإنسان يؤكد هذه الحقيقة فقد قُدم المسبَّب ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ عن السبب ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أى أن الله ـ تعالى ـ قد جعله سميعاً بصيراً لكى يبتليه، فهو الكائن الحى الذى يدب على هذه الأرض والذى حمل الأمانة .. أمانة التكليف، والفاء فى ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾ هى فاء السببية أى للابتلاء وذلك للتفرقة بينه وبين باقى المخلوقات التى تسمع وترى مثله مثل الحيوانات والحشرات والزواحف والطيور والأسماك .. إنها تسمع وترى ولكن ليس لنفس السبب الذى من أجله جُعل الإنسان سميعاً بصيراً.

* لقد خلق الله الإنسان ولم يتركه هملاً ولكن دله على السبيل والصراط المستقيم وذلل له الأرض من تحته وأقام له سبع سماوات من فوقه، وجعل له ما بينهما وما تحت الثرى مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]. فهل يشكر الإنسان نعمة الله أم يكفرها؟ هل يُقر بها أم يجحدها؟ هل ينسبها إلى المنعم الذى أنعم بها أم ينسبها لنفسه ولعلمه وقدرته وذكائه؟

* هذا هو الابتلاء، وهذا هو الاختبار ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ فإن شكر ونسب النعمة للمنعم فقد اجتاز الاختبار بنجاح، وإن كفر ونسب النعمة لنفسه فقد رسب فى الاختبار .. وفيما يلى نموذجان للشكر والكفر، أى للنجاح والرسوب :

النموذج الأول للشكر والنجاح :

وهو نموذج سليمان عليه السلام عندما سمع النملة تتكلم فقال: ﴿ ... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩]. وعندما جاءه الذى أوتى علم من الكتاب بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه .. فماذا قال؟ ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

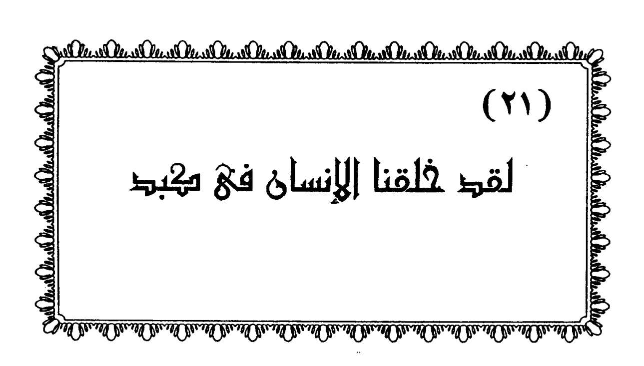
النموذج الثانى للكفر والرسوب :

وهو نموذج قارون الذى آتاه الله ـ تعالى ـ من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة .. فماذا قال؟ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨]. فماذا حدث بعد ذلك؟ يقول تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

أين هذا الخسف لمن كفر بنعمة الله، مما أعطاه الله ـ تعالى ـ لسليمان عليه السلام جزاء شكره لنعمة الله؟ .. فقد طلب من الله أن يعطيه ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده فأجابه الله ـ تعالى ـ لطلبه واستمع لقوله سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٣٥ - ٤٠].

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]. هذا وعد من الله ـ تعالى ـ بالزيادة على الشكر، ووعيد بالعذاب الشديد على الكفر .. إنه لا يخلف الميعاد.





(٢١)

لقد خلقنا الإنسان في كبد



يقول تعالى فى أول سورة البلد :

* ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد: ١ - ٤].

أقسم الله بالبلد .. وهى مكة، ثم ثنى القسم بالرسول عليه الصلاة والسلام الذى حل وسكن فى هذا البلد، ثم ثلّث بوالد وما ولد .. حيث قيل أنه قسم بإبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام اللذان بنيا الكعبة فى هذا البلد وأقاما القواعد من البيت .. وقيل غير ذلك.

والقسم ليس هو موضوعنا فى هذا المقام، ولكن موضوعنا هو المقسوم عليه أو جواب القسم وهو قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .. ولقد أوردنا المقسوم به لبيان أن أهمية المقسوم عليه مستمدة من المقسوم به .. وهى أهمية عظيمة الشأن كما هو واضح من القسم.

والكبد .. هو التعب والمشقة .. وأول هذا الكبد .. هو تكبد نطفة الإنسان فى شكل علقة أى قطعة من الدم تكبدت مثل الكبد ـ وهو دم متجمد ـ وتعلقت فى جدار الرحم ثم تطورت فى أطوار خلقها إلى مضغة ثم إلى عظام ثم كسوة العظام لحماً حتى إذا اكتملت فترة الحمل خرج الجنين من رحم أمه طفلاً كامل الخلق.

وقد وصف الله كل هذه الأطوار وما تكابده الأم خلالها فى قوله تعالى :

* ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

* ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ... ﴾ [لقمان: ١٤].

ومن طرائف الشعر .. أن المولود وكأنه يرى بعين الغيب فى يوم مولده ما هو مقبل عليه من آلام ومكابدات فى مستقبل حياته .. فيقول ابن الرومى :

لمَا تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولدُ
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأرحب مما كان فيه وأرغدُ

والطفل يكابد بعد ذلك آلام الجوع حتى يلتقم ثدى أمه، وآلام تبوله وتغوطه اللاإرادى فى لفائفه، وآلام خروج الأسنان والأضراس، ثم يكابد بعد ذلك مراحل استقامة عوده ودبيبه على الأرض وهى تبدأ بالجلوس ثم الحبو ثم المشى بعد التعثر، وتنتهى مكابدات الطفولة بالفطام .. وحرمانه من ثدى أمه الذى لازمه حولين كاملين.

وتبدأ بعد ذلك مكابدات الصبا من تعليم وتأديب، ثم مكابدات المراهقة وما أدراك ما المراهقة ـ وما فيها من مكابدات جسمية ونفسية وعاطفية ـ.

وبعد ذلك تبدأ مكابدات الشباب والرجولة والكهولة والشيخوخة حيث أرذل العمر وما فى هذه المراحل من مكابدات تحصيل العلم والمعرفة والصنائع المختلفة، وتحصيل لقمة العيش قليلها وكثيرها، وكذلك مكابدات تقلب الأحوال فيكابد الفقر والغنى، والمرض والصحة، والضراء والسراء، والشر والخير، والشدة والرخاء، والمعصية والطاعة .. وغيرها من المكابدات حتى يستوفى أجله فيكابد سكرات الموت وسؤال الملكين وضغطة القبر ووحشته حتى يكون له بعد ذلك إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

فإذا انتهت حياته البرزخية بُعث من قبره ليكابد الحشر والعرض والحساب .. ثم بعد ذلك ليس له من دار .. إلا الجنة أو النار. فإن كانت الجنة فبها ونعمت حيث الراحة الحقيقية والراحة الأبدية حيث وصفها الله على لسان المنعمين فيها فى قوله تعالى :

* ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾.

[فاطر: ٣٤، ٣٥].

ونسأل الله أن نكون منهم.

وإن كانت النار فبئس القرار حيث وُصِفَتْ ألوان العذاب فيها فى كثير من سور

القرآن الكريم .. ومن أبشع هذه الأوصاف قوله تعالى :

* ﴿ ... فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

[الحج: ١٩ - ٢٢].

ونسأل الله أن يعيذنا من النار.

أرأيت كيف خُلق الإنسان فى كبد منذ أن وُضِعَتْ نطفته حتى لقى ربه .. ولا راحة له منذ خلقه إلا فى الجنة حيث النعيم بلا تعب وخير معين له على هذا التعب قوله تعالى :

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

[البقرة: ١٥٣].

لذلك كان التقى هو السعيد .. لأنه صبر على كبد الدنيا أملاً فى راحة الآخرة. وهكذا الإنسان .. يتحمل التعب إن كان بعده راحة .. والدليل على ذلك يوم الدنيا .. الذى يبدأ بالتعب فى تحصيل لقمة العيش .. فيخرج الإنسان من بيته ليتعب ويتحمل هذا التعب لأنه سوف يعود بعد ذلك إلى بيته ليرتاح .. فإذا افتقد الراحة داخل بيته لم يتحمل التعب خارجه .. وهكذا شأن التعساء من الكفرة والفسقة والعصاة لأنهم ينتقلون من تعب الدنيا إلى تعب أشد وأخزى فى الآخرة، وعذاب أليم ومهين فى النار.

وقد صور الله حال هؤلاء وهؤلاء فى قوله تعالى :

* ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

فهل تحتمل أيها الإنسان تعب الدنيا الفانية فى سبيل راحة الآخرة الباقية؟

وهل تستعين فى رحلة حياتك الدنيا بالصبر والصلاة؟

وهل تلبس فى الدنيا لباس التقوى وتتزود بزاد التقوى .. لتنال سعادة الدارين؟

اللهم إنا ندعوك بكلامك ونكثر فى الدعاء كما كان يفعل خاتم أنبيائك ورسلك عليه الصلاة والسلام ونقول: «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار».

آمين.



(٢٢)

البركة في القرآن الكريم



يقول تعالى فى سورة الأعراف :

* ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

هذه الآية تبدأ بوعد مشروط من الله عز وجل لأهل القرى فى كل زمان ومكان أنهم لو آمنوا واتقوا لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، وتنتهى بخبر من الله تعالى أنهم كذبوا فأخذهم بما فعلوا .. فبدلاً من التصديق .. كذبوا، وبدلاً من الإيمان .. كفروا، وبدلاً من التقوى .. فسقوا وفجروا .. فأخذهم الله بكل ذلك ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

[هود: ١٠٢].

ولكن ما هى البركة؟ وكيف جاء ذكرها فى القرآن الكريم ؟

وما هى الأشياء التى وُصفت بالبركة فى القرآن الكريم؟ وما الذى يعنيه هذا الوصف؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة .. نبدأ بمعنى البركة فى اللغة فهى تعنى: ثبات الخير واستمراره ونمائه. لذلك قيل برك الجمل: أى ثبت وسكن. وقيل: البِرْكة للماء الساكن فإذا طبقنا المعنى اللغوى على المعنى الاصطلاحى فسوف نجد أنهما متطابقان إلى حد كبير. فالبركة هى تحقق الثمرة المرجوة من سعى الإنسان فى حياته، والبركة: هى الانتفاع بالشىء على الوجه المطلوب، والبركة: هى الحفظ والنماء أو هما معًا، والبركة: أن يأتيك خير الشىء ولا يأتيك شره. فإذا ضربنا بعض الأمثلة .. فإن بركة الطعام والشراب: أن يُعطيك بعد الشبع والرى .. القوة والعافية. وبركة الأموال: أن تزداد وتنمو وينتفع بها صاحبها فى دنياه وأخراه، وهى تعنى أيضًا أن يكفيك ما عندك من مال مهما كان قليلاً، فما قل وكفى خير مما كثر وألهى. وبركة الأولاد: أن ينشأوا صالحين فى حياتك فيعاونوك وبعد مماتك فيدعون لك. وبركة العلم: أن يكون نافعًا، وبركة الوقت: أن يكفيك لإنجاز ما تريد، وأخيرًا .. بركة

العمر: أن يمتد بك فى الأعمال الصالحة مصداقًا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «خير الناس من طال عمره وحَسُنَ عمله» رواه الترمذى عن عبد الله بن بُسْر الأسلمى ﷺ.

ولو تتبعنا كلمة البركة فى القرآن الكريم وما اشتق منها من كلمات وما وُصِف بالبركة فسوف يساعدنا ذلك على فهم معناها .. ذلك المعنى الذى قد يبدو مبهمًا للبعض، ولكنه يتضح فيما سوف نتناوله من آيات القرآن الكريم.

أولاً : الله :

* يقول تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

* ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١].

وتبارك فى آية الفرقان وصف لله تبارك وتعالى يعنى: عظمت بركته وكثر خيره وفضله، وهى كلمة تعنى: الثناء على الله عز وجل بما هو أهله، ويعلمنا الله ـ تعالى ـ كيف نثنى عليه فهى كلمة هو قائلها .. وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام حين قال داعيًا: «لا أحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» وأسباب الثناء على الله تعالى لا تحصى ولا تعد مثل نعمه ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: ١٨]. والثناء على الله تعالى فى آية الفرقان يشير إلى أعظم نعم الله ـ تعالى ـ على الإنسان بصفة عامة وعلى خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام بصفة خاصة .. وهى نعمة القرآن الكريم الذى نزّله على رسوله الخاتم ليكون للعالمين نذيرًا. والآية الثانية من سورة الفرقان وهى قوله تعالى: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ تقودنا إلى الآية الأولى من سورة الملك، وقد أسلفنا بعاليه الآية الأولى من سورة الملك .. وكلتا الآيتين تشيران إلى أسباب أخرى من أسباب الثناء على الله تبارك وتعالى .. وهو أن بيده الملك، وهو خالق السماوات والأرض، ولم يتخذ ولدًا، ولم يكن له

شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديراً، وهو على كل شيء قدير .. وهي صفات تجمع بين الألوهية والحاكمية والربوبية.

ثانيًا : الرسل :

* يقول تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

* ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

* ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١٣].

في هذه الآيات وَصْف نوح، وعيسى، وإبراهيم، وإسحاق عليهم أفضل الصلوات وأتم التسليمات .. بالبركة. ومَنْ أعظم بركة من الأنبياء والرسل؟ .. إن أعظم الناس بركة هو كثير الخير الذى ينتفع بخيره لنفسه، ويتعدى خيره للآخرين. وهذا هو موقف الأنبياء والرسل فهم ينتفعون لأنفسهم بالنبوة والرسالة، ويتعدى نفعهم وخيرهم للآلاف والملايين غيرهم. فما رسالتهم إلا بالناس وللناس. وإذا كان كل رسول أرسل لقومه خاصة فإن أعظمهم بركة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام الذى قال تعالى عنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] .. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال هو عن نفسه: «وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس ﷺ.

ثالثًا : الكتاب (القرآن) :

يقول تعالى :

* ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

[الأنعام: ١٥٥].

* ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ .

[ص: ٢٩].

وإذا كان الرسل أعظم الناس بركة لتعدى خيرهم إلى الآلاف والملايين غيرهم، فما هذه البركة وهذا الخير إلا فيما أرسل إليهم من رسالات كلفوا من الله تعالى بتبليغها للناس مثل صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وأخيراً القرآن الكريم الذى نزل على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .. عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه. وقد وُصفَ القرآن الكريم فى الآيتين عاليه بأنه ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ .. أى كثير الخير والنفع لدنيا الناس وأخراهم. وخير وصف لبركة القرآن وخيره ما أخرجه الدارمى والترمذى من حديث على بن أبى طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم. قلت: يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب منه الآراء، ولا تشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذا سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجبًا يهدى إلى الرشد. من علَم علْمَه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم». حقًا .. ما أعظم بركة القرآن الكريم.

رابعًا : الليلة التى نزل فيها القرآن :

يقول تعالى :

* ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان: ٣].

ويكفى للدلالة على بركة هذه الليلة وخيرها العميم .. قوله تعالى :

* ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ

مَنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ [القدر: ١ - ٥].

فليس هناك ليلة أعظم بركة من ليلة نزل فيها القرآن وأوحى فيها إلى خير الأنام، عليه الصلاة والسلام، ولا زالت هذه البركة تتجدد كل عام.

خامسًا : بيت الله الحرام :

يقول تعالى :

* ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

[آل عمران: ٩٦].

ويكفى للدلالة على بركة بيت الله الحرام أنه منسوب لله تعالى وأنه أول بيت وضع للناس، وأن من رفع قواعده هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وأن فيه آيات بينات ومن دخله كان آمنًا، وفيه تؤدى بعض مناسك الحج مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾. [آل عمران: ٩٧].

وأنه شهد طواف الأنبياء والصالحين حوله وعلى رأسهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الركعة فيه بمائة ألف ركعة، وأن فى جداره الحجر الأسود الذى قبّله الرسول وأمرنا بتقبيله، وأن فى ساحته ذلك البئر المبارك .. بئر زمزم..ونكتفى بهذا القدر من ألوان بركة بيت الله الحرام الذى تهفو إليه القلوب مصداقًا لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾. [إبراهيم: ٣٧].

سادسًا : المسجد الأقصى :

يقول تعالى :

* ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

وبركة المسجد الأقصى أنه أول القبلتين وثالث الحرمين، وشهد مسرى رسول الله ﷺ وصلاته بالأنبياء والرسل إمامًا، وعروجه إلى سدرة المنتهى، ثم عودته بعد أن رأى من آيات ربه الكبرى ومعه هدية عظيمة من الله تعالى وهى الصلاة .. الركن الهام من أركان الإسلام الخمسة، وقد بارك الله فى المسجد الأقصى وبارك ما حوله، لأن ما حوله شهد مبعث كثير من الأنبياء والرسل، كما أنها أرض خصبة تجود فيها الزراعة وتكثر فيها الثمار والأرزاق.

سابعًا : الماء :

يقول تعالى :

* ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [ق: ٩].

وبركة الماء ومنافعه وما يجلبه من خير لا تخفى على أحد .. فالماء أصل الحياة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ... ﴾ [النحل: ٦٥]. وحيث يوجد الماء توجد الحياة وحيث ينعدم الماء تنعدم الحياة وينتشر الجدب والبوار.

ثامنًا : الأرض (الأرض بصفة عامة أو أرضًا معينة) :

يقول تعالى :

* ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا

فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

* ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾.

[الأنبياء: ٦٩ - ٧١].

* ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وبركة الأرض بصفة عامة أنها أُمنا التى خلقنا فيها وندب عليها ثم نعود إليها بالموت ونخرج منها بالبعث مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥]. وبركات الأرض وخيراتها ومنافعها مذكورة فى كثير من آيات القرآن الكريم .. نذكر منها قوله تعالى:

* ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

[الأعراف: ١٠].

* ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾. [الرعد: ٤].

* ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٣، ٥٤].

* ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النمل: ٦١].

* ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٢٧].

أما الأرض المعينة المذكورة فى آيات سورة الأنبياء .. فقد سبق الإشارة إليها عند ذكر المسجد الأقصى .. فهى الأرض التى حوله حيث إنها كانت مبعثًا لكثير من الأنبياء والرسل، كما أنها أرض خصبة تجود فيها الزراعة وتكثر فيها الثمار والأرزاق.

تاسعًا : الشجرة :

يقول تعالى :

*﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾. [النور: ٣٥].

والشجرة المباركة هى شجرة الزيتون، وشجرة الزيتون لها كثير من المنافع لا ينازعها فيها سوى النخلة، فمن هذه الشجرة تخرج ثمرة الزيتون، وأهم ما فى هذه الثمرة زيتها الذى يستخدم كإدام فى الأكل ويطيب للناس استخدامه كطعام وغير ذلك من الاستخدامات ويشيع بين الناس تسميته بـ «الزيت الطيب». كما أن ثمرته تؤكل بعد تخليلها سواء كانت خضراء أم سوداء. وشجرة الزيتون معمرة، وتتحمل الأجواء القاسية، وتحصل على ما تحتاجه من ماء من باطن الأرض عن طريق جذورها الممتدة، ويصنع من أخشابها إذا قطعت أجود أنواع الأثاث. وقد ذكرت شجرة الزيتون فى مواضع أخرى من القرآن الكريم .. وذلك فى معرض تعداد نعم الله على الإنسان ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. فهى شجرة مباركة تنبت في أرض مباركة. وكذلك أقسم بها الله تعالى فى قوله: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ [التين: ١ - ٣]. فأقسم الله بها مع التين إلى جانب جبل الطور المقدس، ومكة البلد الحرام .. وهذا الجمع فى القسم يوحى بأهمية وبركة وخير هذه الشجرة.

عاشرًا : السلام (التحية) :

يقول تعالى :

* ﴿ .. فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ

مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. ﴾ [النور: ٦١].

تحية الإسلام هى السلام، وهذه التحية سنة على من يلقيها، ورد السلام أو التحية فرض على من ألقيت عليه كما قال الفقهاء مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٨٦]. والموضوع له تفصيلات فى كتب الفقه يمكن الرجوع إليها. وبركة تحية السلام يشعر بها من يتبادلها .. فإنها تنزل سلامًا على نفس طرفيها وهى مفتاح كل خير عند المتعاملين وبداية طيبة يبدأ بها أى اتصال إنسانى.

والسلام أمانة فى عنق كل من يُطلب إليه توصيله إلى الغير توثيقًا للروابط بين الحاضر والغائب.

والسلام تحية أهل الجنة ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [يونس: ١٠]، وتحية الملائكة لأهل الجنة ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

وبركة السلام أنها من عند الله ـ ومن أسمائه السلام ـ كما جاء فى نص الآية، والله تبارك وتعالى هو الذى علمها لنا وأول من تلقاها الرسول عليه الصلاة والسلام فى سدرة المنتهى، وقامت عليها صيغة التشهد فى الصلاة، وهى تسمى أيضًا «التحيات» .. ووصفت التحيات بالمباركات فى صيغة التشهد عند الشافعية «التحيات المباركات، الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ...».

والخلاصة .. فإن بركة تحية السلام فى أنها من عند الله مباركة طيبة، وفى معناها عند ملقيها وفى تأثيرها عند متلقيها، وما تشيعه من جو السلام بين الأفراد والجماعات وفى المجتمع المسلم بصفة عامة، لذلك أمرنا الرسول عليه الصلاة والسلام بإفشاء السلام فى كثير من الأحاديث منها الحديث الذى يرويه أبو هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على

شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم» رواه مسلم. ما أعظم بركة هذا التوجيه النبوى الذى يضمن لنا التحابب فى الدنيا والجنة فى الآخرة .. هل بكثير عمل؟ .. إنه فقط بإفشاء السلام بيننا، وتحية السلام بعد ذلك لها عملها ولها بركتها .. فما ظنك فى الحياة بين المتحابين؟ .. إنها لحياة طيبة وسعيدة تقودنا بعد ذلك إلى دار السعادة الحقيقية .. دار السلام.

هذه هى البركة فى القرآن الكريم وما اشتق منها من كلمات، وما وُصف بالبركة، واتضح لنا معناها بأنها ــ كما قلنا فى البداية ــ ثبات الخير واستمراره ونمائه. لذلك كثرت أدعية الرسول عليه الصلاة والسلام بالبركة .. ونختم هذا الموضوع ببعض هذه الأدعية المأثورة :

* من دعاء الاستخارة : «اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى، وعاجل أمرى وآجله، فاقدره لى، ويسره لى، ثم بارك لى فيه » رواه البخارى.

* دعاء الطعام : «اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه» ، فإن كان لبناً فليقل: «اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه» رواه أبو داود والترمذى.

* من أدعية السفر عند الوصول إلى البلدة المقصودة : «اللهم بارك لنا فيها (ثلاثاً) اللهم ارزقنا جناها وحببنا إلى أهلها، وحبب صالح أهلها إلينا» رواه الطبرانى.

* الدعاء لمن تزوج من إخوانك : «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما فى خير» رواه أهل السنن الأربع وابن حبان.

* الدعاء لصاحب الشيء الذى أعجبك حتى لا تصيبه بعينك : «اللهم بارك فيه ولا تضره» رواه النسائى والحاكم فى المستدرك.

* الدعاء عند رؤية باكورة الثمار على الشجر : «اللهم بارك لنا فى ثمرنا وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مُدنا» رواه مسلم.

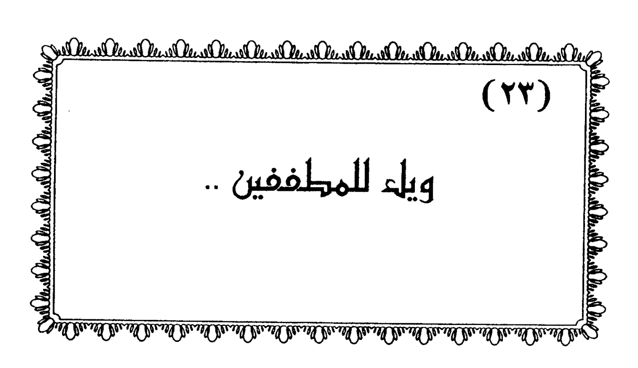
وهناك الكثير من الأدعية غيرها تتضمن لفظ البركة، أو يتضمن معناها البركة مثل الدعاء بأن يأتيك الله خير الشيء ويصرف عنك شره «اللهم إنى أسألك خيره وأستعيذ بك

من شره» .. ويقال هذا الدعاء قبل الدخول على الزوجة، وقبل الدخول إلى السوق، وعند ارتداء الثوب الجديد .. وغير ذلك من المناسبات.

اللهم إنا نسألك من خير ما سألك به نبيك ورسولك عليه الصلاة والسلام. ونستعيذ بك من شر ما استعاذ به نبيك ورسولك عليه الصلاة والسلام.






(٢٣)
ويل للمطففين ..



يقول تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

تبدأ سورة المطففين بكلمة تهديد ووعيد لصنف من الناس، الكلمة هى .. ويل، وهذا الصنف من الناس هم .. المطففون. ويعرفهم الله لنا فى الآيات التالية وهم الذين إذا كان الكيل لهم يستوفونه .. وليس فى هذا ما يعيبهم، ولكن العيب كل العيب أنهم إذا كالوا أو وزنوا لغيرهم يُخسرون .. أى يُنقصون الكيل والميزان فلا يستوفى غيرهم حقوقهم ويحصلون عليها منقوصة. وليس هذا من العدل.

ولا يختل الميزان والمكيال إلا إذا اختل قبله ميزان العدل فى نفس الإنسان، فيكون اختلال الميزان والمكيال انعكاسًا لاختلال ميزان العدل فى نفس الإنسان. ولو شاع هذا الأمر لاختلت الموازين ليس فقط فى مجال الموزونات المادية، ولكن فى كل معاملة بين طرفين من حيث الحقوق والواجبات .. ليس فقط بين البائع والمشترى، ولكن بين العبد وربه، وبين الحاكم والمحكوم، وبين العامل ورب العمل، وبين الزوج وزوجته، وبين التلميذ وأستاذه، وبين الأسرة ورب الأسرة، وبين المالك والمستأجر، وبين الرئيس والمرؤوس .. وهكذا.

ولو اضطربت المعاملات بين كل هذه الأطراف كيف تستقيم الحياة ؟

إنها لن تحلو لأحد ولن تصفو لأحد .. لأن كل الناس وازنون وموزون لهم فى نفس الوقت.

ولخطورة هذا الأمر الذى أسماه الله التطفيف .. أرسل الله رسولاً لقوم شاع بينهم هذا الأمر - وهو شعيب عليه السلام - فاضطربت أحوالهم واختلت موازينهم .. ودعاهم رسولهم إلى ما دعى إليه الرسل أقوامهم بصفة عامة وبصفة خاصة إلى :

* ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

* ﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ [هود: ٨٤].

* ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ [هود: ٨٥].

وهى دعوة لكل الناس فى كل زمان وكل مكان مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

إنها دعوة لن يستجيب لها إلا من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ويكفى للاستقامة عليها مجرد الظن بالبعث، فما بالك بمن أيقن بالبعث؟ .. إنه أشد استقامة عليها.

والارتباط وثيق بين الإيمان بالله واليوم الآخر وتوفية الكيل والميزان .. وبالتالى ينبغى على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ألا يقع فى هذا المحظور لأنه يجرح إيمانه وعدالته، ولرسول الله ﷺ حديث من جوامع الكلم من اهتدى بهديه اعتدل ميزانه فى كل الأمور ولم يقع فى هذا المحظور ولم يطفف فى الكيل والميزان ولا فى غيرها من المعاملات وهو قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» رواه البخارى ومسلم.

فكما تحب أن تستوفى إذا كنت موزونًا لك، فأوف إذا كنت وازنًا لغيرك .. لأنه يحب ذلك لنفسه مثلك.

ولبيان خطورة هذه المخالفة نرجع إلى كتاب الله ـ تعالى ـ لحصر الأصناف من الناس الذين توعدهم الله .. بالويل :

١ - الذين يكتبون الكتاب بأيديهم :

أى الذين يحرفون الكتب التى أنزلت على أنبيائهم من اليهود والنصارى .. مصداقًا لقوله تعالى :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا

به ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

٢ - الكافرون :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢].

* ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

* ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

* ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠].

٣ - القاسية قلوبهم :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ...﴾ [الزمر: ٢٢].

٤ - الظالمون :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].

٥ - المشركون :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿... فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

٦ - الأفَّاك الأثيم :

أى كثير الإفك (الكذب) والإثم .. مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧].

٧ - المكذبون :

أى المكذبون بيوم الدين كما جاء فى الآية (١٠) من سورة المطففين وكما جاء فى عشرة آيات من سورة المرسلات.

٨ - الهمازون اللمازون :

أى الذين يذكرون معايب الناس بالقول أو بالإشارة، أو بهما معًا .. مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١].

٩ - الساهون عن صلاتهم :

أى الساهون عن مواقيتها أو الساهون عن معناها وما تحض عليه .. مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

١٠ - وأخيرًا .. المطففون :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين: ١].

من هذا الحصر يتبين لنا خطورة هذه المخالفة التى إذا ارتكبها أحدٌ من المسلمين كانت مطعنًا فى إيمانه وأصبح هدفًا لنفس التهديد والوعيد الموجه لهذه الأصناف من الناس وأغلبهم من الكافرين والمكذبين والمشركين .. وأصبح فى خطر عظيم مع الذين هم عن صلاتهم ساهون ومع كل همزة لمزة . ونسأل الله السلامة .



(٢٤)

الافتداء، والفرار

من أحوال يوم القيامة

يقول تعالى فى سورة المعارج :

* ﴿ ... يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلاَّ ... ﴾.

[المعارج: ١١ ـ ١٥].

ويقول تعالى فى سورة عبس :

* ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٣ - ٣٧].

قد يبدو لقارئ هذه الآيات لأول وهلة أنهما متطابقة أو على الأقل متشابهة، ولكن إذا أمعن فى القراءة، فسوف يتبين له أن هناك فرقا كبيرًا بين حالة الافتداء فى سورة المعارج، وحالة الفرار فى سورة عبس .. وهذا ما سوف نحاول أن نتأمله ونتدبره فيما يلى :

* بعد ذكر الله ـ تعالى ـ بعض أهوال يوم القيامة فى سورة المعارج ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ [المعارج: ٨، ٩]. يذكر أثر هذه الأهوال على المجرمين الذى كذبوا بيوم الدين فيشغل كل واحد منهم بنفسه ولا يجد له صديقًا حميمًا يسأله ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج: ١٠]. لقد كانت هذه الصداقة الحميمة فى الدنيا ولكنها تتحول فى الآخرة بالنسبة للمجرمين إلى عداوة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]. ولا يقتصر هذا التحول على الأصدقاء والأخلاء فقط بل إن كل مجرم من هؤلاء يود ـ لو استطاع ـ أن يفتدى نفسه من العذاب الذى أحاط به بمن؟!

ببنيه وهم الذين كان يفتديهم بنفسه فى الدنيا، ليس هذا فقط، بل يفتدى نفسه أيضاً بزوجته وأخيه وعشيرته التى كانت تؤويه وكان يفتديها بنفسه وماله إذا أغار عليها عدو، ليس هذا فقط فلو استطاع أن يفتدى نفسه بكل أهل الأرض لفعل.

وتأتى بعد ذلك كلمة ﴿ كَلاَّ ﴾ وهى كلمة زجر وتيئيس له من افتداء نفسه من

العذاب بأى شىء وبأى أحد ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: ١٥ ـ ١٨]. إن نار جهنم تلفح وجهه فيتساقط منه الجلد واللحم، وهى تدعوه إليها وبئسها من دعوة، فلا يملك إلا أن يلبى جزاءً وفاقًا لإعراضه عن دعوة الحق فى الدنيا التى دعى إليها فأدبر أى أعطى ظهره لها، وتولى عنها إلى الدعاوى الباطلة، وإلى زينة الحياة الدنيا يجمع منها ويستكثر ويكتنز فى الأوعية وكأنه مخلد فيها، وغفل عن أن ما يجمعه إما يزول عنه وإما يزول هو عنه بالموت.

* ويلاحظ أن الترتيب الوارد فى الآيات التى تشير إلى الافتداء ترتيب تنازلى من حيث القرب والقرابة. فالافتداء يبدأ بالأبناء ثم ينتقل إلى الصاحبة (الزوجة) ثم إلى الإخوة ثم إلى الأقارب والعشيرة، ثم إلى من فى الأرض جميعًا. وهذا يدل على شدة الهول والعذاب الذى أعده الله للمجرمين المكذبين بيوم الدين.

* وإذا قارنّا هذه الآيات بالآيات الأخرى الواردة فى نهاية سورة عبس والتى أشرنا إليها فى البداية .. سوف نجد الآتى :

١ ـ أن الترتيب فى آيات سورة المعارج تنازلى، والترتيب فى آيات سورة عبس تصاعدى .. من حيث درجة القرب والقرابة.

٢ ـ أن الترتيب التنازلى هو الذى يتناسب مع حالة افتداء النفس من عذاب واقع فعلاً، ويتناسب شدة قرب المُقدَّم كفدية مع شدة العذاب الذى يعانيه هذا المجرم، فإن كان قد هان على نفسه أن يقدم بنيه فداءً من العذاب فإن من دونهم أشد هوانًا عليه مثل الصاحبة والإخوة ومن فى الأرض جميعًا .. ولكن هيهات أن ينجو بنفسه من هذا العذاب.

٣ ـ أن الترتيب التصاعدى هو الذى يتناسب مع حالة الفرار التى تختلف عن حالة الافتداء من العذاب. فالفرار هنا ليس من العذاب، ولكنه حالة نفسية تصيب كل أهل الموقف.

واستمع إلى هذا الحوار الذى دار بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين السيدة

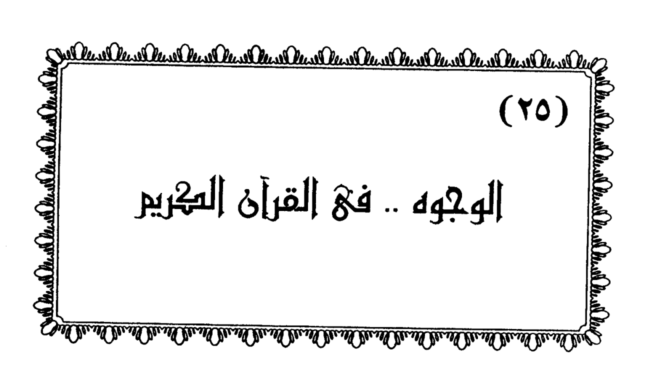
عائشة رضي الله عنها عندما أخبرها أن الناس سوف يبعثون يوم القيامة «حفاةً عراةً غرلاً» ـ وغرلاً: أى غير مختونين كما ولدتهم أمهاتهم ـ فتتعجب السيدة عائشة من ذلك وينتابها مع الخوف، الحياء الفطرى للنساء، وتتساءل .. هل ينظر الرجال للنساء وتنظر النساء للرجال وهم جميعًا على هذه الحالة التى وصفها لها الرسول عليه الصلاة والسلام، فيتلو عليها صلوات الله وسلامه عليه هذه الآيات من سورة عبس حتى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

٤ ـ هذا الحوار يدل على هذه الحالة النفسية التى أشرنا إليها وكأن سائلاً يسأل .. هل يفر المرء يومئذ من أخيه؟ .. فتأتيه الإجابة . نعم. يفر المرء من أخيه، ليس هذا فقط بل من أمه وأبيه، بل من صاحبته وبنيه. وكأن السائل يستمر فى تساؤله ويقول: لماذا؟ فتأتيه الإجابة: بأن لكل امرئٍ منهم يومئذ شأن يغنيه عن كل هؤلاء فلا يفكر أحد إلا فى نفسه وكيف ينجو بها، وهل يثبت أمام الحساب؟ وهل يجوز على الصراط؟ .. وهل يكون من أهل الجنة أو من أهل النار .. وهل .. وهل .. وهل..؟؟

* وفى الحديث الصحيح فى أمر الشفاعة أنه إذا طُلب إلى كلٍ من أولى العزم من الرسل أن يشفع عند الله فى الخلائق يقول: «نفسى نفسى لا أسألك اليوم إلا نفسى». حتى أن عيسى بن مريم عليه السلام يقول: «لا أسأله اليوم إلا نفسى .. لا أسأله مريم التى ولدتنى».

فهل أحسنَّا الاستعداد لهذا اليوم ؟





(٢٥)
الوجوه .. في القرآن الكريم

يقول تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية: ١ - ٧].

ثم يقول تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية: ٨ - ١٦].

* الحديث عن القيامة لا ينقطع فى سور القرآن الكريم فهى موضوع الدين، وهى يوم الدين. والحديث فى سورة الغاشية عن القيامة التى تغشى الناس جميعاً فهى تعم، وهى تطم، فهى الغاشية، وهى الطامة الكبرى، وهى القارعة، وهى الواقعة ..

* ويلفت النظر فى سورة الغاشية أنها تتحدث عن نوعين من الوجوه يوم القيامة .. الوجوه الخاشعة، والوجوه الناعمة، وتُذكر هذه بعد تلك فى النص القرآنى دون حرف العطف «الواو» .. لإظهار الفصل التام بين هذه وتلك يوم القيامة، فالبون شاسع، والفرق واسع.

أما الوجوه الخاشعة :

فهى وجوه الذين كفروا بالله واليوم الآخر، أو وجوه العصاة الذين تنكبوا الطريق إلى الله وحادوا عنه .. فهى وجوه ذليلة ترتسم عليها علامات الذعر والخوف بعد أن كُشف عنها الغطاء وتحقق ما كانوا ينكرونه أو يستهينون به.

وأما الوجوه الناعمة :

فهى وجوه الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، والذين أطاعوا الله ورسله واستقاموا على أمر الله فأتمروا بأوامره وانتهوا عن نواهيه وأخلصوا العبادة لله.

لذلك سوف يقتصر موضوعنا عن الوجوه كما جاءت فى القرآن الكريم.

اولاً : الوجه أشتق منه فعل اتجه ، يتجه ، اتجاهًا :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة: ١٤٨].

* ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وهى من قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :

ثانيًا : لله سبحانه وتعالى وجه ولكن ليس كمثله شىء :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨].

* ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥].

* ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾.

[الرحمن: ٢٦، ٢٧].

ثالثًا : إقامة الوجه بالنسبة للإنسان تكون للدين :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ... ﴾ [يونس: ١٠٥].

* ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ... ﴾ [الروم: ٣٠].

* ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ... ﴾ [الروم: ٤٣].

رابعًا : من اقام وجهه للدين فقد أسلم وجهه لله :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ... ﴾.

[البقرة: ١١٢].

* ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ... ﴾ [آل عمران: ٢٠].

* ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... ﴾ [النساء: ١٢٥].

* ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢].

ويلاحظ فى الآيات أن إسلام الوجه شكل يلزمه الإحسان موضوعاً.

خامسًا : من أسلم وجهه لله لا يبتغى من عمله إلا وجه الله :

يلاحظ فيما يلى من آيات أن الإشارة إلى ابتغاء وجه الله فى غالبية الآيات تتجه إلى الإنفاق حتى يكون فى سبيل الله وحتى لا يُتبعه المنفق بالمن والأذى الذى يحبط العمل ويضيع الأجر.

وفيما يلى ما نستشهد به من آيات فيقول تعالى :

* ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٨].

* ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩].

* ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

* ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

* ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾.

[الليل: ١٩، ٢٠].

ويكون الصبر أيضاً ابتغاء وجه الله مصداقاً لقوله تعالى :

* ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ... ﴾ [الرعد: ٢٢].

ويكون الدعاء أيضاً ابتغاء وجه الله مصداقاً لقوله تعالى :

* ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ .

[الأنعام: ٥٢] .

* ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف: ٢٨] .

سادساً : بعض أحوال الوجوه فى الدنيا :

يقول تعالى عن عرب الجاهلية الذين كانوا يئدون البنات :

* ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨] .

ويقول تعالى عن صنف من الناس :

* ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ . [الحج: ١١] .

ويقول تعالى فى وصف الذين كفروا مقارناً بوصف الذين آمنوا :

* ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢] .

ويقول تعالى عن بنى إسرائيل وإفسادهم فى الأرض مرتين وما سوف يحدث فى المرة الثانية :

* ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ [الإسراء: ٧] .

سابعاً : بعض أحوال الوجوه فى الآخرة :

للوجوه أحوال فى الآخرة نبدأها بالآيات التى تتضمن مقارنة بين وجوه الذين

آمنوا ووجوه الذين كفروا.

يقول تعالى :

* ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

* ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٥].

* ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤٢].

* ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ [الغاشية: ١، ٢].

* ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ [الغاشية: ٨].

والوجوه الناعمة هى التى قال الله تعالى عنها :

* ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٤].

ثم تركز الآيات بعد ذلك على ألوان العذاب الأليم والمهين التى تعانيها وجوه الذين كفروا يوم القيامة .. إشارة إلى ما تعانيه كل أجسادهم ونفوسهم :

* ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ... ﴾ [الكهف: ٢٩].

* ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ [الملك: ٢٧].

* ﴿ ... آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ... ﴾ [النساء: ٤٧].

* ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ... ﴾ [الأنفال: ٥٠].

* ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧].

* ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

* ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

* ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ [الفرقان: ٣٤].

* ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ [النمل: ٩٠].

* ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

* ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨].

* ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

* ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠].

ويجمع الله كل الوجوه فى قوله تعالى :

* ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ... ﴾ ثم يخص بالخيبة: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١].

ثامنًا : القبلة .. رمز للتوجه والكعبة تجسيم للتوجه الصحيح :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

* ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

* ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ... ﴾ [المائدة: ٩٧].

تاسعًا : إذا كان التوجه إلى القبلة هو الشكل فإن العمل الصالح هو الموضوع :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

عاشرًا واخيرًا :

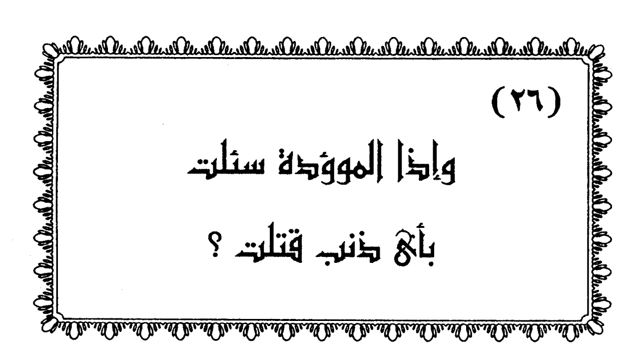
بعد هذا الاستعراض للوجوه وكيف تناولها القرآن الكريم، فيجب أن يعلم الإنسان أن وجهه هو أشرف ما فيه، وأنه أكرم المخلوقات، وعليه أن يحافظ على هذا الشرف وهذه الكرامة، وأن يحسن التوجه، وأن يولى وجهه إلى ما أمره الله وأن يصرفه عما نهاه، ومن سلّمَ وجهه فقد سلِم كله لأنه مجمع الحواس، ومستودع العقل. وسلامة الوجه دليل على سلامة القلب، فإذا أُتى الإنسان إلى الله بقلب سليم سلم من سوء العقاب ونال حسن الثواب وأُدخل الجنة .. دار السلامة والسلام .. مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

[الشعراء: ٨٨، ٨٩].

اللهم اجعلنا يوم القيامة من الذين ابيضت وجوههم، وسلمت قلوبهم.

.. آمين.





(٢٦)

وإذا الموؤدة سئلت

بأي ذنب قتلت ؟

يقول تعالى فى أول سورة التكوير :

* ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١ - ١٤].

هذه السورة لا نصيب لمن لا يؤمن بالغيب من هديها، فهى تتحدث عن بعض أحداث يوم القيامة .. وهى غيب، وعن البعث .. وهو غيب، وعن الجنة والنار .. وهما غيب، وعن جبريل والملائكة .. وهم غيب ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾، وعن بعثة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ .. وهى غيب ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾، وعن القرآن الكريم .. وهو غيب يخبر بأنباء الغيب ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾، ثم تختم السورة بذكر الغيب الأكبر وهو الله ـ تعالى ـ وذكر مشيئته وهى قدره .. وقدره غيب ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

وإيمان المؤمنين .. هو تصديق بالغيب، وكفر الكافرين .. هو تكذيب بالغيب.

والإيمان كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث المشهور الذى يرويه لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره».

وهذه الأركان الستة للإيمان .. كلها غيب، وكلها مذكورة فى هذه السورة التى إذا استمع إليها المؤمن بالغيب خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى واستقام على صراط ربه المستقيم، و إذا استمع إليها الذى يكفر بالغيب مر كأن لم يسمعها، وقد يهز كتفيه دليلاً على عدم الاكتراث، وقد يفغر فاه فى بلاهة دليلاً عل عدم

الاكتراث، وهذا هو ما يمكن أن يُتوقع من كفار قريش ـ وكل كافر بالغيب ـ ولكن هناك آيتان لن يملك كفار قريش إلا الالتفات إليهما لأنهما تشيران إلى جريمة يرتكبونها ولا سبيل لهم لإنكارها ويصعب عليهم تبريرها أو الدفاع عن أنفسهم إذا حوسبوا عليها.

هذه الجريمة هي وأد البنات دون ذنب أو جريرة مخافة عار سلوكهن إذا كبرن أو عار أسْرهن إذا غلبهم أعداؤهم في الحروب المستعرة التي لا تخمد بين القبائل في هذا الحين مما جعلهم يستنون سنّة الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال حتى لا تأكلهم هذه الحروب التي لا تنتهي والتي تشتعل بينهم لأتفه الأسباب لفراغ عقولهم وسوء رأيهم.

لاشك أن الإشارة في هذه الآيات لهذه الجريمة سوف تشغل بالهم وتضعهم أمام أنفسهم في مواجهة ـ وهذه المواجهة سوف تسفر عن سخف موقفهم وتهافت منطقهم في وأد البنات ـ فمن أمهاتهم وزوجاتهم وأخواتهم؟ ألم يكنّ بنات ولكن أفْلتن من الوأد؟ وهل كان يمكن أن يكون لهم وجود إذا وئدت أمهاتهم وهن بنات صغيرات؟ وكيف يكون موقف قبائلهم في المدى البعيد وهم الحريصون على تكاثر العدد والمباهاة به إذا وأدوا البنات؟ وكيف يجد الرجل منهم زوجة في المستقبل إذا لم يفلت من الوأد إلا الصبيان دون البنات؟ .. وكيف .. وكيف .. وكيف؟! .. أسئلة كثيرة لا تنتهي إلا باكتشاف بشاعة هذه الجريمة التي سوف تُسأل عنها الموؤدة يوم القيامة .. بأى ذنب قتلت؟

وسؤال الموؤدة هنا أبلغ من سؤال الذى وأدها .. ولنضرب لذلك مثلاً .. فما موقف القاتل في الدنيا وهو يقف أمام المحكمة، وقبل أن يدافع عن نفسه وينكر تهمة القتل .. جاء القتيل إلى ساحة المحكمة ـ فرضًا ـ بنفسه وسأله القاضي من الذى قتلك؟ قال: إن هذا المتهم الذى يَمثُل أمامكم هو الذى قتلني. ألا يُلجم هذا الموقف المفترض .. القاتل عن الكلام؟ .. ألا يشعر وقتها أنه مدان وهالك لا محالة؟

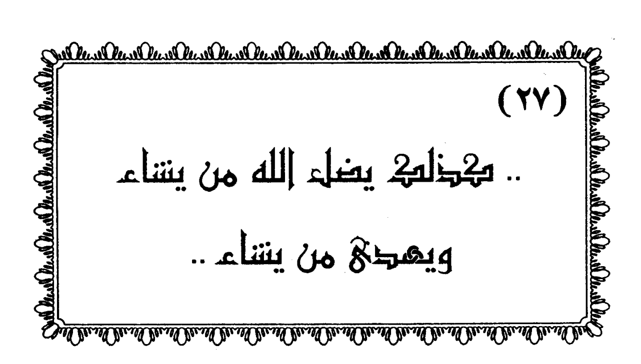
هذا الموقف المفترض فى الدنيا، سوف يحدث فعلاً يوم القيامة، وسوف تُسأل الموؤدة أمام من وأدها .. بأى ذنب قتلت؟ ألا يحسب هؤلاء المعاندون والمكذبون بالبعث والقيامة لهذا الموقف حساب؟

إن «إذا» الشرطية فى السورة هى بمثابة مطرقة تطرق على رؤوسهم اثنتى عشرة مرة وجواب شرطها فيها هو قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ أو كما قال تعالى فى سورة الانفطار التى تلى هذه السورة مباشرة ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .. أو كما قال الله تعالى بشىء من التفصيل: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠]. والتحذير رأفة بالعباد لعلهم يثوبون إلى رشدهم والمهلة أمامهم .. فهل ينتهزون الفرصة قبل أن تضيع بانقضاء آجالهم وقد سبقهم إليها أولو الألباب الذين استجابوا لربهم ونفضوا عن أنفسهم ركام الجاهلية ـ أى جاهلية ـ بما فيها من عبادة الأوثان ووأد البنات والعصبية الفارغة لدين الآباء والأجداد؟

إنه تحذير لهؤلاء ولكل مُكَذِّب أو مُعرض أو مذنب فى كل زمان ومكان يستمع إلى آيات القرآن الكريم تتلى عليه .. فإن استجاب فبها ونعمت، وإن أعرض فلا يلومن إلا نفسه، وأبواب الغفور الرحيم مفتوحة دائمًا ولا يُصد عنها أحد مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].






(٢٧)
.. كذلك يضل الله من يشاء
ويهدي من يشاء ..

يقول تعالى فى ختام سورة التحريم :

* ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ... ﴾ .

[التحريم: ١٠].

* ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ... ﴾ [التحريم: ١١].

* ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ... ﴾[التحريم: ١٢].

يلفت النظر فى هذه الآيات الثلاث من سورة التحريم أن الله ـ تعالى ـ يضرب المثل للذين آمنوا بامرأتين، والمثل ضرب للذين آمنوا من الرجال والنساء. وفى هذا إعلاء لقدر النساء فهن شقائق الرجال، وإذا كانت مهمة الرجال فى الحياة هى الإنتاج المادى، فإن مهمة النساء فى الحياة هى الإنتاج البشرى وتربيته وتنشئته .. وما أشرفها من مهمة.

وجاء الإسلام لكى يعلى قدر المرأة بعد أن كانت متاعًا يباع ويشترى ويورث. فإذا تأملنا فى الآيات نجد أن الله ـ تعالى ـ يريد أن يقول لنا فى المثل الذى ضربه للذين آمنوا أنه من الممكن أن تنبت فى أرض الكفر براعم الإيمان، وأن يخرج من قصر فرعون نموذج للإيمان، وهذا النموذج امرأة، وهذه المرأة هى امرأة فرعون نفسه .. والله قادر على كل شيء. وحتى لا يحتج أحد على كفره أو شركه أو معصيته بأنه وجد آباءه وأهله على ذلك، فلو كان مقهوراً على ذلك فلماذا لم تُقهر امرأة فرعون التى ضُرب بها المثل للذين آمنوا ؟

وفى مقابل هذا المثل ضرب الله قبله مثلاً للذين كفروا بزوجتين من زوجات الأنبياء هما امرأة نوح وامرأة لوط ﴿ ... كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾. وتأمل هذه المفارقة، وهى أن يُضرب المثل للذين كفروا بامرأتين كانت كلتاهما زوجة لنبى، ويضرب المثل للذين آمنوا بامرأة فرعون، وردد مع التأمل قوله تعالى: ﴿ ... كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ... ﴾ [المدثر: ٣١]. وسبحانه لا راد لمشيئته،

ولا عائق لإرادته، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وردد أيضًا قوله عز وجل: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

إن هذه أمثلة لمشيئة الله المطلقة فى أن يضل من يشاء ولو كانت زوجة لنبى ويهدى من يشاء ولو كانت زوجة لفرعون.

ثم يعود بنا الله ـ تعالى ـ إلى القاعدة المضطردة، والسنة المعتادة، وهى أن من يجتهد لكى يكون أهلاً لتلقى فيوض رحمة الله، فإن الله يفيض عليه من رحماته .. ولكل مجتهد نصيب.

وهذه مريم ابنة عمران يأتى ذكرها بهذا الاسم ـ حيث لم تُذكر به فى موضع آخر فى القرآن ـ لكى يشعرك الله أنها واحدة من النساء لا تُعرف إلا إذا نسبت إلى أبيها كشأن باقى النساء، ولكنها اجتهدت فى العبادة واعتزلت قومها كما قص الله ـ تعالى ـ علينا قصتها ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ [مريم: ١٦، ١٧]. وأحصنت فرجها كشأن كل شريفة وعفيفة، فضلاً عن أنها كانت موهوبة من أمها للمعبد .. عابدة لله وخادمة للمعبد.

فما الذى حدث ؟ .. تلقت فيوضات من رحمة الله سبحانه وتعالى ولنفسح المجال للنص القرآنى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢].

والقصة بعد ذلك معروفة ومفصلة فى سور القرآن الكريم وخاصة سورة آل عمران، وسورة مريم. ويكفى أن الله ـ تعالى ـ جعلها وابنها ـ المسيح عليه السلام ـ آية للعالمين ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال عنها: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢]. وقال عنها

الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى يرويه أنس بن مالك ﷺ: **«خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت رسول الله»**.

إن هذا الختام لسورة التحريم يتقابل مع بدايتها .. حيث كانت البداية مع امرأتين من نساء النبى عليه الصلاة والسلام (عائشة وحفصة ﷺ) أحدثتا أزمة فى بيت النبوة ـ وليس هذا مجال لسرد تفاصيل هذه الأزمة ـ ففى هذا الختام ترغيب لهما للاقتداء بالمثل الذى ضربه الله للذين آمنوا بامرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وفى نفس الوقت ترهيب لهما من سوء العاقبة كما حدث لامرأتين ضُرب بهما المثل للذين كفروا رغم أنهما امرأتان لنبيين هما نوح ولوط عليهما السلام .. فلا ضمانة لهما ـ بالتالى ـ بأنهما امرأتان لخاتم المرسلين ـ عليه الصلاة والسلام ـ سوى تقوى الله فقد قال الله تعالى لهما: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤].

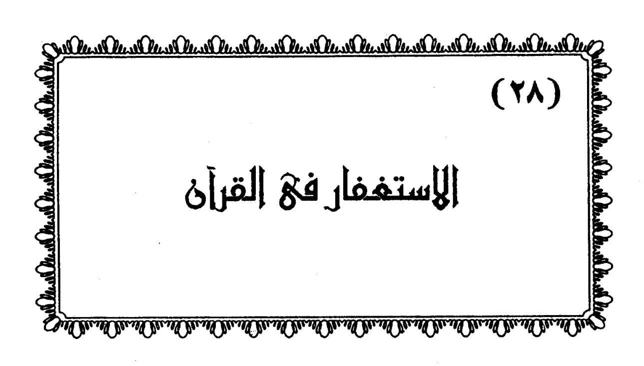
وصدق رسول الله ﷺ حيث قال فى الحديث الذى رواه أبو هريرة ﷺ:

«من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه».

فليجتهد كل مسلم لكى يكون أهلاً لهداية الله سبحانه وتعالى ولا يكون أهلاً لإضلاله وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].







(٢٨)

الاستغفار في القرآن

إذا أردنا أن نختار سورة من القرآن الكريم يشيع فيها الاستغفار من أولها لآخرها فسوف نجد ضالتنا فى سورة نوح عليه السلام.

ففي أولها نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ① قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ١ - ٤].

وفى وسطها نقرأ قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وفى آخرها نقرأ قوله تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

إن سورة نوح عبارة عن صدور أمر من الله تعالى إلى نوح عليه السلام بالرسالة وإبلاغها إلى قومه بأنه نذير من الله لكى يعبدوه ويطيعوا رسوله فإذا استجابوا لدعوته بشرهم بغفران ذنوبهم.

والسورة تتضمن أيضًا تقرير من نوح عليه السلام مرفوع إلى الله تعالى بما حدث من أمور تتعلق بالداعى والدعوة والمدعوين ويتضمن هذا التقرير أنه قال لقومه استغفروا ربكم فهو غفار للذنوب وكريم فى العطاء. ثم يختم هذا التقرير بدعاء من نوح عليه السلام يطلب فيه المغفرة من الله .. له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات فى كل زمان ومكان.

والاستغفار .. يدفع عن النفس الشعور بالكبر والزهو بالنفس والعُجْب بأعماله وكذا بعباداته، ويورثها الإحساس بالتقصير، وهذا الإحساس بالتقصير يدفع المسلم للمزيد من العمل فى طاعة الله فتزداد حسناته ويثقل ميزانه عند الله يوم القيامة.

وتدبر قول الله عز وجل للرسول عليه الصلاة والسلام بعد أ ن فتح الله على

المسلمين مكة ودخل الناس بعدها فى دين الله أفواجًا: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ١ - ٣]. فإن حكمة الله بالغة فى هذا التوجيه الوارد فى السورة حتى لا يتيه المسلمون عُجْبًا بهذا الفتح وهذا النصر فهو نصر الله ومن الله فلا يتجبرون فى الأرض على من نصرهم الله عليهم دون قتال.

وتدبر أيضًا حكمة الاستغفار دبر كل صلاة كما علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الدعاء المأثور: «استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه».

حتى لا يُعجب المسلم بصلاته وعبادته ويتألى بها على الله كما تألى بعض الأعراب على الله ومنّوا على الرسول عليه الصلاة والسلام بإسلامهم وسجل الله - تعالى - عليهم ذلك فى كتابه العزيز وأوحى لرسوله بماذا يرد عليهم: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

ولذلك كانت من التوجيهات الأولى من الله لرسوله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر: ٦].

وقد أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام الصحابة رضوان الله عليهم بلزوم الاستغفار فقال فيما رواه عنه ابن عباس ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» رواه أبو داود.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أسوة وقدوة لأصحابه فى ذلك فعندما أوصاهم بأن يكثروا من الاستغفار قال لهم فيما رواه عنه أبو هريرة ﷺ: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» رواه البخارى. رغم أن الله - تعالى - قد بشره بقوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ١، ٢].

والاستغفار .. هو دعاء الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين منذ آدم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام وإلى أن تقوم الساعة. ولنصحب المستغفرين وآيات استغفارهم فى القرآن الكريم .. ونسأل الله أن نكون منهم.

١ - استغفار آدم وحواء :

﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

[الأعراف: ٢٣].

٢ - دعاء نوح عليه السلام :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ [نوح: ٢٨].

٣ - دعاء إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١].

وكذلك فى ضراعته إلى الله : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].

٤ - دعاء موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

[القصص: ١٦].

٥ - دعاء الملائكة حملة العرش :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ [غافر: ٧].

٦ - دعاء الصالحين رضوان الله عليهم :

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾.

[الحشر: ١٠].

٧ - دعاء الاستغفار الذى علمه الله لكل مستغفر :

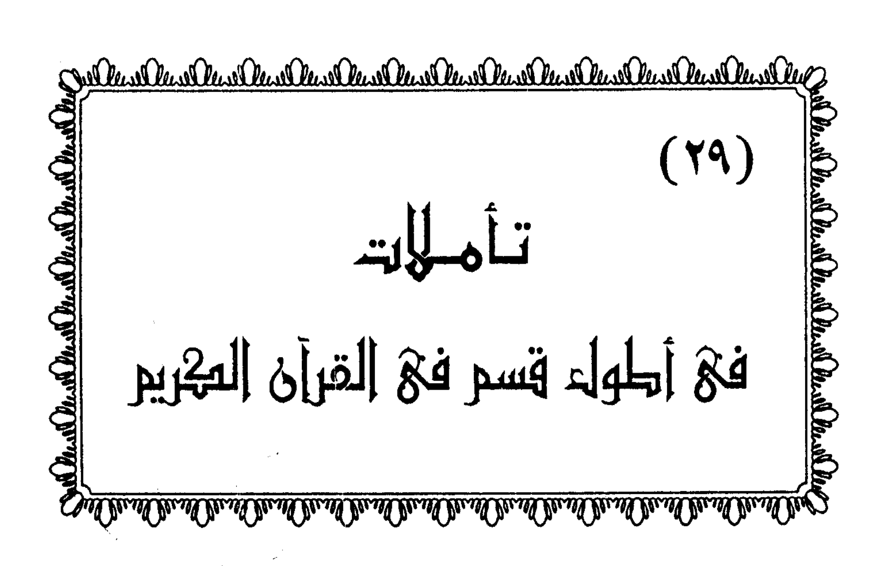
﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٨ - دعاء سيد الاستغفار الذى علمه لنا الرسول .. عليه الصلاة والسلام :

«اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» رواه البخارى عن شداد بن أوس رضي الله عنه .







(٢٩)

تأملات

في أطول قسم في القرآن الكريم

يقول تعالى فى أول سورة الشمس :

* ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ١ - ١٠].

* يعتبر افتتاح هذه السورة أطول قسم فى القرآن الكريم. وفيما يلى نحصى ما أقسم به الله .. باعتبار أن «ما» مصدرية :

١ ـ الشمس. ٢ ـ ضحى الشمس.

٣ ـ القمر. ٤ ـ النهار.

٥ ـ الليل. ٦ ـ السماء.

٧ ـ بنيان السماء. ٨ ـ الأرض.

٩ ـ طحو الأرض. ١٠ ـ النفس.

١١ ـ تسوية النفس.

* إن تعدد المقسوم به يوحى بأهمية وخطورة المقسوم عليه أو جواب القسم .. والمقسوم به هو النفس .. مقسوم بها فى ذاتها وفى تسويتها، وهى فى نفس الوقت المقسوم عليها فقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها .. وهذا هو جواب القسم.

* ولكن لماذا أقسم الله بكل هذه الأقسام، وبكل هذه المخلوقات ؟

نقول ـ والله أعلم ـ أن هذه الأقسام رموز تتعلق بالنفس المقسوم بها والمقسوم عليها.

فالنفس البشرية لها أحوال، فهى تضىء كالشمس بضوء الإيمان إذا أحاط بها ما يساعدها على ذلك من آيات بينات كضحى الشمس ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾، وهى تنير كنور القمر فى ليلة التمام ولو أحاطت بها الظلمات كما تحيط بالقمر مستمدة نورها من ضوء الإيمان كما يستمد القمر نوره من ضوء الشمس ﴿ وَالْقَمَرِ

إِذَا تَلاهَا ﴾ ، والنفس تجليها الطاعات فتسطع كضوء النهار، وتغشاها المعاصى فتظلم كظلمات الليل ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ . والنفس تعلو كالسماء إذا رغبت فيما عند الله وكانت الآخرة أكبر همها ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ، وترد إلى أسفل سافلين كالأرض وإلى الأرض والتراب إذا أعرضت عما عند الله وكانت الدنيا أكبر همها ﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ .

* ثم نأتى للنفس المقسوم بها والمقسوم عليها، فنلاحظ أن القسم فى هذه السورة بين متقابلات .. فالشمس يقابلها القمر، والنهار يقابله الليل، والسماء يقابلها الأرض، أما النفس فلا يقابلها شىء لأنها منقسمة فى ذاتها إلى قسمين متقابلين وهما الفجور والتقوى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .. فهى ذات طبيعة مزدوجة، وكل قسم منها يقابل نجداً من النجدين المشار إليهما فى قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠].

وهذه الطبيعة تتفق مع كون الإنسان مخيراً وليس مسيراً، ومن هنا وجبت الحياة الآخرة للحساب الذى يقود ـ بدوره ـ إلى نهايتين ومستقرين .. إما إلى الجنة لمن أحسن العمل، وإما إلى النار لمن أساء العمل.

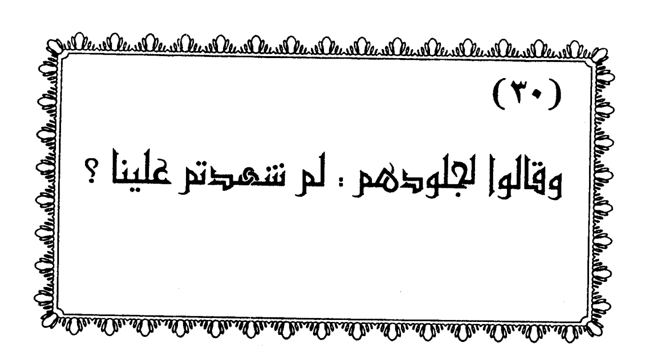
لذلك كان الفلاح هو نصيب من زكى نفسه من أدران الكفر والشرك والمعصية فأصبحت نفساً مؤمنة وموحدة وطائعة، والخيبة هى نصيب من دسى نفسه فى أوحال الكفر والشرك والمعصية.

لذلك كان من أدعية الرسول عليه الصلاة والسلام التى علمنا إياها :

*** «اللهم آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».**

.. آمين .




(٣٠)
وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟

يقول تعالى فى سورة فصلت :

* ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢٤].

هذه الآيات من أكثر الآيات فى القرآن الكريم دلالة على علم الله المحيط بكل أحوال البشر، وما الوسائط من جلود وسمع وأبصار إلا لإقامة الحجة على الخلائق يوم القيامة وبدونها فإن الله ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

وعجيب هذا الحوار الذى سوف يدور بين المكذبين والعصاة وبين جلودهم. والجلود هى التى تستر جسم الإنسان فكيف تأتى الفضيحة من ناحيتها ؟!

والجلود هى التى تحيط بجسم الإنسان وفيها مراكز الإحساس باللذة والألم، وهى التى تغلف الحواس من سمع وأبصار وشم وتذوق ولمس .. فكيف الهروب منها؟! وهل يستطيع الإنسان أن يستتر منها إذا قال وإذا فعل ؟! وكيف له أن يستتر من الساتر ؟!

إنها شاهد الإثبات الذى لا يمكن تكذيبه .. لذلك لم يكذبها هؤلاء التعساء، ولكن غاية الأمر أنهم لاموها ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ .. فكان ردها حاسمًا ﴿ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .. فهى مقهورة ومأمورة من الله - تعالى - على النطق والشهادة.

ولعل كل قارئ لهذه الآيات يتحسس جلده بعد قراءتها .. ويقول له: ماذا أنت فاعل بى ؟ وماذا أنت قائل عنى ؟ وماذا سوف تكون شهادتك يوم القيامة؟

إن هذه الآيات تصم كل من يحكم التدبير، ويمعن فى التخفى، ويستتر خلف السواتر، إنها تصمه بالسذاجة والغفلة والغباء لأنه ظن أنه بالتدبير والتخفى والاستتار قد أفلت بجريمته، وبأقواله وأفعاله المنكرة.

لقد كان لهؤلاء المناكيد ظنون خاطئة فى الله سبحانه وتعالى الذى لا يند عن علمه شيء فى الكون ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾. [الأنعام: ٥٩].

وهذا الظن الخاطئ هو الذى أهلكهم فأصبحوا من الخاسرين. ولو أنهم استمعوا إلى الرسل ولبوا نداءهم، وعرفوا الله عن طريقهم .. ما سكنت هذه الظنون فى عقولهم الخربة ولاستقاموا على أمر الله مع الذين استقاموا وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾. [النجم: ٢٨].

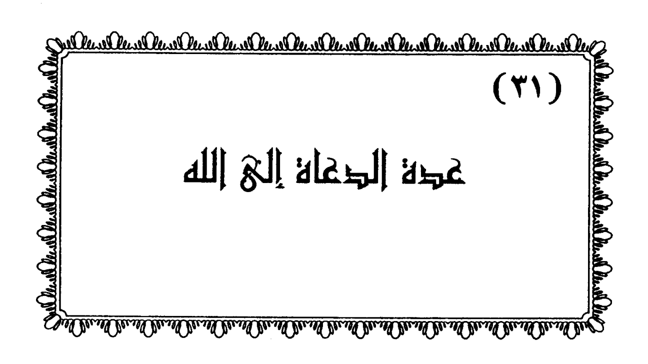
ولمزيد من السخرية من هؤلاء فإن الله ـ تعالى ـ يقول عنهم: ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا ﴾ فيظنون أن هذا باب أمل للنجاة فتح لهم فيعاجلهم بقوله تعالى: ﴿ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ ومرة أخرى يقول عنهم: ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا ﴾ فيظنون أن هذا أمل جديد فى النجاة فيعاجلهم الله تعالى بقوله: ﴿ فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾.

وهم الذين كانت تأخذهم العزة بالإثم إذا هم عوتبوا فى الدنيا، أما فى الآخرة فالعتاب أمل بعيد المنال .. حيث لا كلام ولا عتاب ولا اعتذار مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٧].

اللهم لا تخزنا ولا تفضحنا يوم العرض عليك .. آمين.




(٣١)
عدة الدعاة إلى الله



يقول تعالى فى أول سورة المدثر :

* ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٧].

إذا رجعنا إلى سورة نوح سوف نجد أنها تتضمن تكليفًا موجزًا من الله - تعالى - إلى نوح عليه السلام، كما تتضمن تقريرًا مفصلاً من نوح إلى الله .. وهو درس هام للدعاة إلى الله يتعلمون منه أساليب الدعوة والصبر عليها.

وسورة المدثر تتضمن تكليفًا مفصلاً من الله - تعالى - للرسول - عليه الصلاة والسلام - يتعرف منه الدعاة إلى الله عز وجل على عُدة الدعوة التى لابد من توافرها للداعى حتى تثمر دعوته وتصل إلى من يدعوهم واضحة جلية. أما الاستجابة والهداية فهى بيد الله - سبحانه - فهو يهدى من يشاء، وما على الرسول - كل رسول - إلا البلاغ المبين.

وبذلك تتكامل السورتان .. من سورة نوح نأخذ التقرير المفصل عن أساليب الدعوة وأحوالها ومن سورة المدثر نأخذ التكليف المفصل وعُدة الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى ..

وهذه العدة تتضح لنا بعد هذا النداء من الله - تعالى - للرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

١ - ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ :

قم حيث لا يصلح لتحمل رسالة الله القعود، والقيام بالرسالة يعنى أن يحملها حق حملها كما أُمر المؤمنون أن يقيموا الصلاة .. أى أدائها حق الأداء. ويعنى أن ينفض عنه ثياب الدفء التى يتدثر بها وثياب القعود، ويرتدى ثياب القيام بأعباء الدعوة الثقيلة التى وُصفت فى سورة المزمل بأنها قول ثقيل ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥]. فما بالك بالعمل المطلوب لها .. إنه أكثر ثقلاً.

ونقطة البداية فى هذه الرسالة والرسالات السابقة .. هى الإنذار لأنه أوقع فى نفوس المدعوين لها وأبعد أثراً. لذلك كان قول الرسول عليه الصلاة والسلام عندما أمر بالجهر بالدعوة .. «إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد». أما التبشير فيأتى بعد ذلك وتتكامل به رسالة الرسول وكل رسول مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، [الكهف: ٥٦].

٢ ـ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ :

الله أكبر هى كلمة السر التى تُفتح بها القلوب المستعدة للإيمان، وهى النشيد الذى تلهج به ألسنة المؤمنين، وهى النداء الذى يُنادى به المؤمنون للصلاة، وهى كلمة الافتتاح للدخول فى الصلاة، وهى ترنيمتهم التى يرددونها وهم ذاهبون إلى صلاة العيدين حتى تقام الصلاة، وكذلك وهم ذاهبون للجهاد فى سبيل الله، وبها يستلمون الحجر الأسود عند الطواف حول الكعبة، وبها تُزكى الذبائح التى تقدم هدياً لبيت الله الحرام وكل ذبيحة حتى يحل أكلها، وغير ذلك من المواضع والمواقف. هما كلمتان .. ولكنهما منهاج حياة مثل كلمة التوحيد .. لا إله إلا الله. يريد المسلم عند التلفظ بهما أن يقول أن الله أكبر من كل كبير .. بذاته ومنهاجه .. فهو الخالق وهم المخلوقون، وله الخلق والأمر معًا، وهو القوى وهم الضعفاء، وهو الغنى وهم الفقراء، وهو الكبير المتعال وهم الصغار المهازيل، وهو العزيز وهم الأذلاء، وهو القاهر فوق عباده وهم المقهورون، وهو مالك الملك والملكوت وهم العبيد، وهو الباقى وهم إلى زوال .. هو الله .. ولو استطردنا فى القول لانتهت الحياة قبل أن ينتهى.

٣ ـ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ :

والتطهر أمر مادى ومعنوى، مادى فلا تصح الصلاة وكثير من العبادات إلا بطهارة الثوب «والطهور شطر الإيمان» كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ـ رواه مسلم ـ، ومعنوى بتطهير النفس من أرجاس الشرك والوثنية والجاهلية وكل ما يتعلق بها من تصورات أو عادات أو معاملات أو توجهات.

٤ ـ ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ :

والرجز هو العذاب مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية: ١١]. والمقصود من الآية .. هجر موجبات العذاب، أى هجر المعاصى والآثام التى توجب عذاب الله لمن وقع فيها .. أى الانتهاء عما نهى الله تعالى عنه.

٥ ـ ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ :

أى تقول فعلت كذا، وفعلت كذا .. وتكون النتيجة أن تستكثر ما فعلت، وهذا الاستكثار يعنى المن على الله بما فعلت وهو صاحب المن والفضل فيما فعلت، ويؤدى فى نفس الوقت إلى الاكتفاء بما فعلت فهو كثير فتكون بذلك قد حرمت نفسك من مزيد الإحسان لأن من يحسن فإنما يحسن لنفسه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ... ﴾ [الإسراء: ٧]. فضلاً عن أن المن يحبط العمل فتحرم ثوابه. وصدق صاحب الظلال حين قال: «إن هذه الدعوة لا تستقيم فى نفس تحس بما تبذل، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه».

٦ ـ ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ :

الصبر هو الوقود الذى تسير به مركبة الدعوة إلى الله وبدونه تتوقف حتى لو توافرت باقى الأدوات، وهذا الوقود لا يستمد إلا من الله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ... ﴾ [النحل: ١٢٧]. وما دام من الله فلا يكون إلا لله عز وجل مصداقًا لقوله تعالى عن أولى الألباب: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ... ﴾ [الرعد: ٢٢]. لقد توافرت بطبيعة الحال لنبى الله يونس عليه السلام كل أدوات الدعوة السابق ذكرها وعندما فقد الصبر توقفت مركبة الدعوة .. لذلك يقول الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ... ﴾ [القلم: ٤٨]. وعليه أن يكون مثل أولى العزم من الرسل

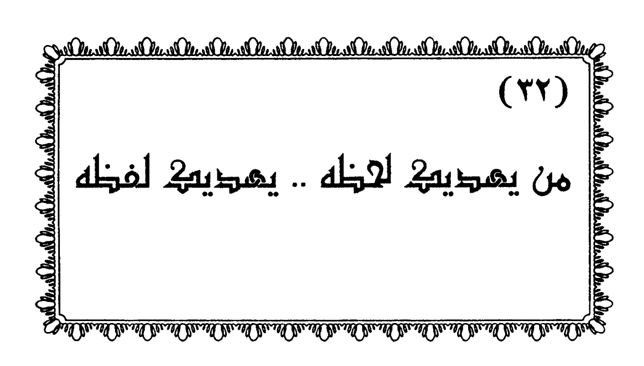
فهو منهم وهو إمامهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ولأهمية الصبر .. فقد أُمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالصبر فى القرآن الكريم ثمان عشرة مرة.

هذه أدوات ست للدعوة أُمر بها الرسول عليه الصلاة والسلام فى بداية الدعوة فكانت خير عون له، وأثمرت هذا النور الذى ملأ أرجاء الدنيا.

وعلى كل داعية إلى الله - تعالى - أن يأتمر بها ويتأسى برسول الله ﷺ وتنفيذه لها، وليرجع فى ذلك إلى سيرته العطرة التي هى ترجمان لهذه الآيات الست وليتذكر قول الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١].





(٣٢)

من يهديك لحظه .. يهديك لفظه

يقول تعالى فى أول سورة الصف :

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

هذا نداء من الله عز وجل للذين آمنوا يتضمن لومًا وتوبيخًا لمن يختلف فعله عن قوله، وأن الله ـ تعالى ـ يمقت هذا مقتًا شديدًا، والمقت هو شدة الكراهية.

فلماذا كان هذا اللوم والتوبيخ الشديد ؟

لأن المؤمن يجب عليه أن يكون تطبيقًا عمليًا للحق الذى هو عليه، ونموذجًا حيًا لدين الإسلام الذى يعتنقه، حيث أن هذا النموذج هو ما كان عليه المسلم الأول وخاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام. فقد كان خلقه القرآن كما أخبرت بذلك السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سُئلت عن خلق الرسول عليه الصلاة والسلام. فقد كان قرآنًا يتحرك ويمشى على رجلين.

وهكذا كان شأن الصحابة رضوان الله عليهم، وبهذا النموذج دخل الناس فى دين الله أفواجًا فى عهد الرسول والصحابة، وبهذا النموذج أيضًا دخل الإسلام على أيدى التابعين بإحسان بلادا كثيرة وانتشر فيها دون أن تتوجه إليها جيوش الفتح الإسلامى.

وعلى العكس من ذلك إذا خالف العمل القول، فإن هذا يطعن فى أصل إيمان المؤمن مصداقًا للقول المأثور: «ليس الإيمان بالتمنى، ولا بالتحلى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل». ويقال إنه من أقوال التابعى الكبير الحسن البصرى.

فالإيمان قول وعمل ولا يخلو موضع فى القرآن الكريم من الإشارة إلى «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» لأن العمل الصالح دليل على الإيمان، كما أن العمل الصالح لا يقبل عند الله يوم القيامة إلا إذا كان مسبوقًا بالإيمان، والإيمان والعمل الصالح كلاهما دليل على الآخر، وهما صنوان لا يفترقان.

إن اختلاف العمل عن القول لا يقتصر أثره على المؤمن، ولكنه يمتد إلى أن

يطعن الناس فى أصل الدين الذى هو عليه وهو الإسلام، فينفرون منه ومن دينه ويترتب على ذلك الصد عن سبيل الله.

وبدلاً من أن يكون المؤمن سبباً فى دخول الناس فى دين الله أفواجاً ـ كما كان الحال فى صدر الإسلام ـ يكون سببًا فى صدهم عن هذا الدين وطعنهم فيه وفى أتباعه.

من هنا كان المقت الكبير من الله ـ تعالى ـ واللوم والتوبيخ الشديد لمن يقول مالا يفعل، ولا يفعل ما يقول، فضلاً عن سوء الحساب يوم القيامة كما أخبرنا الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى يرويه أسامة بن زيد ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه (تخرج أمعاء بطنه) فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه» متفق عليه.

لذلك قالوا ينبغى على من يتصدر للدعوة إلى الله أن يراجع موقفه من الآيات التالية:

* ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾. [البقرة: ٤٤].

* ﴿... وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ...﴾ [هود: ٨٨].

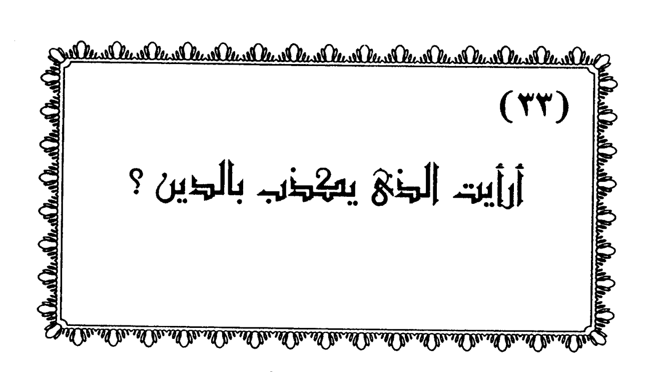
* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

فإذا ضمن لنفسه عدم الوقوع فى المحظورات التى وردت فى هذه الآيات البينات فيلدع إلى الله ـ تعالى ـ لأنه سوف يهدى الناس بقوله وفعله فيكون ذلك أوقع فى التأثير وأحرى بالاتباع وصدق من قال: «من يهديك لحظه، يهديك لفظه».

أما إذا لم يضمن ذلك فعليه أن يجاهد نفسه أولاً فى هذا الدين قبل أن يجاهد الناس فيه حتى لا يصدهم عن سبيل الله ويكون فتنة لهم بدلاً من أن يكون هادياً لهم ..

وذلك لأن ... من لا يهديك لحظه، لا يهديك لفظه.





(٣٣)

أرأيت الذي يكذب بالدين ؟

يقول تعالى :

* ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ① فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ② وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ١ - ٧].

* من هو المكذب بالدين ؟ وبأى شىء يكذب ؟ وما هو المقصود بالدين الذى يكذب به ؟

ثلاثة أسئلة تثيرها الآية الأولى من هذه السورة القصيرة، وأولها يتعلق بهذا المكذب الذى يلفت الله النظر إليه ويسلط عليه الأضواء لكى يتعرف عليه الناس ولا يختلف فى شأنه أحد ولا ينخدع عنه أحد.

إنه المكذب الذى يكذب بالدين .. وهذه هى إجابة السؤال الأول والثانى معاً.

أما المقصود بالدين وهو السؤال الثالث .. فإن الإجابة تشمل الآتى :

الدين : هو العقيدة التى تربط الإنسان بالكون وبخالق الكون، وبالإنسان الذى هو من جنسه، وبالمخلوقات التى تحيط به.

والدين : هو النظام الذى يضع الإطار المحكم لهذه الروابط والعلاقات المشار إليها، وهو الأوامر والنواهى الصادرة للإنسان من الله فإن أطاعها سعد فى الدنيا والآخرة، وإن عصاها شقى فى الدنيا والآخرة.

والدين : هو يوم الدين الذى يداين فيه مالك يوم الدين الخلائق، ويتداين فيه الخلائق بعضهم بعضاً، وهو البعث والحشر والحساب والجنة والنار.

* وتحمل لنا الآية الثانية والثالثة من السورة .. مفاجأة !! حيث إن الذى يتبادر إلى الذهن من الآية الأولى أن الذى يكذب بالدين .. هو الكافر بالله أو المشرك أو الذى يعبد الأصنام والأوثان، أو الذى ينكر البعث والحساب، أو الذى يكذب بالرسول الخاتم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والرسالة الخاتمة، أو الذى ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة .. وهذه هى الاحتمالات ـ ومثلها ـ التى تتبادر إلى الذهن.

ولكننا نفاجأ بأن الذى يكذب بالدين هو :

* ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾.

حيث إننا نظن أن من يفعل ذلك .. يدخل فى باب المعاصى أو حتى الكبائر، ولا يدخل فى باب التكذيب بالدين. ونكتشف أن فهمنا القاصر للدين هو الذى قادنا لهذا الظن، أما الحق فهو ما قاله الله و ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٣٦].

صحيح أن الدين هو كما عرَّفناه آنفًا .. ولكنه أيضًا كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام «الدين حسن الخلق» كما تواترت الأحاديث بذلك، وكما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن سبب بعثته: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» رواه أحمد والبيهقى ومالك.

فمن التزم بمكارم الأخلاق فهو مصدق بالدين، ومن اتصف بمساوئ الأخلاق فقد كذب بالدين. وبالتالى فإن الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين فقد كذب بالدين .. لأن الدين بهذا المفهوم لا يقتصر على أداء العبادات والفرائض، أو الاعتقاد دون أن يكون لهذا الاعتقاد الأثر البالغ فى السلوك .. فمن صدق بالدين عليه أن يكون محبًا للخير ومقدمًا له وداعيًا إليه، مادًا يد العون لكل ضعيف أو مسكين.

إنهن ثلاث آيات قصيرة .. ولكنها تضيف مفهومًا للدين شديد الأهمية وعظيم الشأن ولولاه لكان فهمنا للدين قاصرًا وناقصًا.

* وبعد هذه المقدمة التى أثارتها الآية الأولى من السورة .. تعال بنا نتوقف عند كل آية من الآيات التالية :

* ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ :

ودع اليتيم هو دفعه وزجره بشدة بدلاً من الرفق به وتقديم العون له. يقول تعالى فى معنى «الدع» عن المكذبين يوم القيامة :

* ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: ١٣].

وقد أوصى الله باليتيم فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، [الإسراء: ٣٤].

ومنع قهره فى قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩].

وتوعد من يأكل ماله ظلماً فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

وأوصى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى ولد يتيماً .. أوصى باليتيم كثيراً فى أحاديثه التى نذكر منها ما يلى:

* **«أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا»**، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما. رواه البخارى.

* **«من مسح على رأس يتيم لم يمسه إلا لله كان له فى كل شعرة مرت عليها يده حسنات»**، رواه أحمد وغيره.

* **«خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»**، رواه ابن ماجه.

وغير ذلك من الوصايا لله ـ تعالى ـ وللرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذلك لأن اليتيم هو من فقد أباه أو أبويه .. فهو الصغير الذى فقد السند والمعين، وكذلك كل ضعيف أو قاصر أو قليل الحيلة، أو مهيض الجناح لا ظهر له أمام الأقوياء ومستحق للحماية والرعاية.

من هنا يتبين لنا بشاعة سلوك من يدع اليتيم دعًا .. وهو سلوك ينم عن الإيجابية فى الشر .. لأنه فعل، ولا يفعل ذلك ومثله إلا مكذب بالدين .. لا يخاف سوء الحساب.

* ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾.

والحض .. هو الحث وإثارة الرغبة فى الفعل، والطعام .. هو الاحتياج الأول والأساسى لحياة الإنسان .. ومن بخل به بخل بما فوقه، والمسكين .. هو من أسكنه الاحتياج عن الحركة، أو من عنده ما لا يكفيه، أو افتقد الأسباب أو بعضها التى إذا توافرت أغنته عن غيره. ويتضح معنى المسكين من قوله تعالى :

* ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ... ﴾ [الكهف: ٧٩].

ورغم أن لهم سفينة .. فهم مساكين لا يكاد يكفيهم عملهم بها فى البحر.

إن عدم الحض على طعام المسكين .. هو تكذيب بالدين ويُقدم صاحب هذا السلوك المستنكر للنار .. فهو ممن سوف يأخذون كتابهم بشمالهم واستمع إلى قوله تعالى عن هذا التعيس :

* ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢]. لماذا ؟

* ﴿ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٣ - ٣٧].

ويجمع الله بين هاتين المخالفتين فى قوله تعالى :

* ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾.

[الفجر: ١٧، ١٨].

* ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾.

[البلد: ١١ - ١٦].

ومن هنا يتبين لنا أيضًا بشاعة من لا يحض على طعام المسكين، فهو سلوك ينم عن السلبية فى الخير .. لأنه امتناع عن فعل .. ولا يمتنع عن ذلك إلا مكذب بالدين.

وبذلك نستطيع من هذين المثلين أن نضع قاعدة تنطبق على كل الأحوال المماثلة.

وهى أن السلبية فى الخير مثل الإيجابية فى الشر ..

وأن الممتنع عن فعل الخير مثل فاعل الشر .. وأن كليهما مكذب بالدين .. إما بالعقيدة إن كان كافراً، وإما بالسلوك إن كان مؤمناً .. وكلاهما يتوعده الله بالعذاب .. فى يوم الدين.

* ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ :

إن هذا الاستطراد فى ذكر الصفات الذميمة .. يرجح أن السورة بأكملها لا تخص المكذبين بأصل الدين، ولكن تخص المؤمنين الذين يسلكون فى حياتهم .. فى معاملاتهم وعباداتهم .. سلوكًا ينافى الدين، وهذا السلوك يجعلهم يبدون وكأنهم يكذبون بالدين، لأن الإيمان والعمل الصالح صنوان لا يفترقان، والتفرقة بينهما تكذيب بالدين.

فبعد أن ذكر الله ـ تعالى ـ الذى يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، ذكر المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون .. ولا يصلى إلا المؤمن، ولا يوصف بالمصلين إلا المؤمنون .. ولكن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل .. العمل الصالح بطبيعة الحال.

يتوعد الله ـ تعالى ـ المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون بالويل وهو العذاب الشديد أو هو أحد أودية جهنم .. كما قيل.

والآيات لا تتحدث عن تاركى الصلاة، ولكن تتحدث عن نوع من المصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون .. والسهو هنا عن الصلاة وليس فى الصلاة لأن عدم السهو فى الصلاة لا يستطيعه أحد وشُرع له باب من أبواب الفقه، وقد سهى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى صلاته وهو أكمل الخلق.

ولقد ورد فى السهو عن الصلاة أقوال كثيرة نذكر منها :

* أن الساهين عن الصلاة هم اللاهون الذين يتغافلون عنها ويترتب على ذلك تضييعها أو تضييع أوقاتها والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣]. والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول لابن مسعود ﷺ عندما سأله: أى الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها» متفق عليه. وأفضل الوقت هو أوله.

* أو أن الساهين عن الصلاة .. هم اللاهون عن حكمتها.

* أو أن الساهين عن الصلاة .. هم المصلون الذين لا يتمون ركوعها وسجودها باطمئنان.

* أو أن الساهين عن الصلاة .. هم المصلون الذين إذا صلوا لا يرجون لصلاتهم ثوابًا ولا يخشون لتركها عقابًا.

وتأكيدًا لهذا المعنى يروى لنا أبو برزة الأسلمى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال عندما نزلت هذه الآية: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ :

* «الله أكبر هذا خير لكم من أن لو أعطى كل رجل منكم مثل جميع الدنيا .. هو الذى إن صلى لم يرج خير صلاته وإن تركها لم يخف ربه» رواه ابن كثير فى تفسيره.

* ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ :

وهذه صفة ذميمة أخرى للساهين عن الصلاة والمكذبين بالدين .. فهم يراؤون بصلاتهم، ويراؤون بعباداتهم .. والرياء هو طلب الدنيا بالعبادة، وطلب المنزلة فى قلوب الناس وعكسه الإخلاص، فمن شأن هؤلاء أنهم يراؤون الناس بصلاتهم وعباداتهم، فهم يصلون ليقال أنهم يصلون، أو يصلون تقية كالمنافقين .. والرياء محبط للعمل.

* ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ :

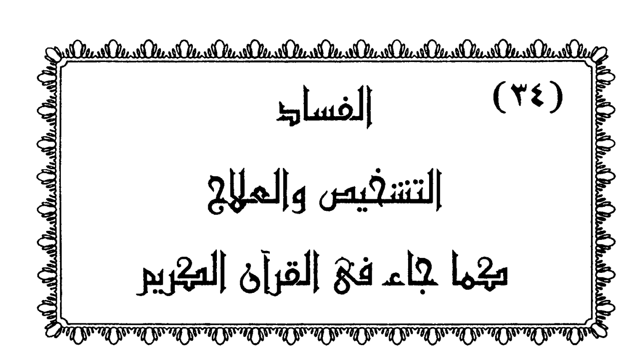
وهذه هي الصفة الذميمة الأخيرة في السورة .. وقد قيل في الماعون أقوال كثير نذكر منها :

أنه ما يستعان به مطلقًا، أو هو حق الغير عندك ومن أهمه زكاة الأموال لأنها فريضة، أو هو ما يستعيره البعض من البعض من لوازم المعيشة أو الحرفة، أو هو أي معونة مطلوبة للغير سواء كانت أموالاً.. جهداً .. علماً أو نصيحة أو شفاعة، أو هو ما لا يحل منعه كالماء والنار والكلأ فالناس شركاء فيها كما جاء في الحديث الشريف.

* فهؤلاء وهؤلاء لم يحسنوا عبادة ربهم ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ولم يخلصوا في عبادتهم له ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ولم يحسنوا إلى خلقه .. ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾.

* اللهم اجعلنا من المصدقين بالدين الذين يترفقون باليتيم ويحضون على طعام المسكين فضلاً عن إطعامه، والذين يقيمون صلاتهم حق الإقامة ويرجون ثوابها من الله ولا يراؤون بها الناس، والذين يقدمون كل عون يطلب منهم .. طالما كان ذلك في قدرتهم .. آمين.




(٣٤)
الفساد
التشخيص والعلاج
كما جاء في القرآن الكريم



١ - تعريف الفساد :

يُعرف الشيء بضده، والفساد هو عكس الإصلاح مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

٢ - أسباب الفساد :

يقول تعالى عن عاد وثمود وفرعون: ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ [الفجر: ١١، ١٢]. ويفهم من الآيات أن الطغيان يؤدى إلى الفساد.

٣ - تعريف الطغيان :

الطغيان هو تجاوز الحد، ويُفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٥]. أى الصيحة التى تجاوزت كل حد فى قوتها، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١]. أى تجاوز الماء فى ارتفاعه كل حد مألوف.

٤ - أسباب الطغيان وعلاجه :

يقول تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ [العلق: ٦ - ٨]. يطغى الإنسان ويتجاوز حده ويفسد فى الأرض عندما يتصور أنه مستغن بنفسه عن الله، وبالأولى عن خلق الله، وينسى أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، وأنه إذا كان قد أخذ بالأسباب وتحققت له النتائج المرجوة، فإن الله هو الذى سبَّب الأسباب ولو شاء لمنعها، وهو الذى حقق النتائج ولو شاء لعطلها.

إن هذه الآيات الثلاثة من سورة العلق تشير إلى المرض وهو الطغيان ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾، وتشخص أسبابه وهى توهم الاستغناء عن الله ﴿ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾، وتصف الدواء والعلاج فى إطار من التهديد غير المباشر بتذكير الإنسان

أنه راجع إلى ربه لا محالة﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ .. لأن هذه التذكرة سوف تردعه عن طغيانه، فإذا لم يرتدع فإن سوء العاقبة ينتظره عند الرجوع إلى ربه.

٥ ـ أشهر نماذج الطغيان والبغى الذي يؤدى إلى الفساد :

أ ـ فرعون والطغيان بالسلطان :

يقول تعالى :

* ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [النازعات: ١٥ - ١٧].

* ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

ويفهم من هذه الآيات أن الطغيان قاد فرعون إلى الفساد .. وبالتالى إلى الهلاك.

ب ـ قارون والبغى (من صور الطغيان) بالمال :

يقول تعالى :

* ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

[القصص: ٧٦، ٧٧].

ويفهم من الآيات أن بغى قارون .. وهو صورة من صور الطغيان قاده إلى الفساد وبالتالى إلى الهلاك، ومن طغيانه أنه رد على نصائح قومه بقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨]، فكان جزاؤه من الله: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾. [القصص: ٨١].

تعقيب من الله ـ تعالى ـ على هذين النموذجين من الطغاة والبغاة :

* ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

والعلو والفساد فى الأرض أكثر ما يكون بالمال والسلطان، واستمع إلى حسرة هذا الذى أخذ كتابه بشماله يوم القيامة وماذا يقول :

* ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

حيث لم يذكر هذا التعيس سببًا ثالثًا.

٦ ـ من قوانين الله وسننه فى شأن الفساد :

أ ـ تجمع الكافرين وتفرق المؤمنين يؤدى إلى الفساد :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

ب ـ ظهور الفساد يكون عقابًا للناس على ما ارتكبوه ولعلهم يرجعون :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

جـ ـ إن الله للمفسدين بالمرصاد :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١].

٧ - وصف قرآني دقيق لنموذج من نماذج المفسدين :

يقول تعالى :

* ﴿ وَمِنَ النَّاسِ من يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ ما في قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ في الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

وهو وصف يغني عن كل شرح ..



(٣٥)

مكر الله بالحب ، ومكر فرعون بالقتل

.. أيهما الذي نفذ ؟

يقول تعالى فى سورة طه :

* ﴿ ... وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩].

* لقد نفَّذت أم موسى ـ عليهما السلام ـ لله أمريه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ... ﴾ وانتهت عن نهييه ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ... ﴾ وصدقت ببشارتيه ﴿ ... إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

* بعد ذلك تلقفته يد امرأة أخرى هى امرأة فرعون ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٩]. والعين لا تقر إلا على كل مستحسن فتظل ناظرة إليه ولا تلتفت إلى غيره. وقرار العين قد يكون على المعنويات كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» رواه أحمد. وكما يكون على المرئيات مصداقًا لقول الله عز وجل على لسان عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وإذا تأملنا فى الآية التى تضمنت قول امرأة فرعون، نجد أن الله ـ تعالى ـ قد حفظ موسى عليه السلام بعد أن ألقته أمه فى اليم تنفيذًا لأمر ربها وتناولته أيدى كثيرة حتى وصل إلى يد امرأة فرعون وهذه الأيدى كان من الممكن أن يكون لها شأن آخر معه، فلما وصل إلى امرأة فرعون قالت قرة عين لى، وقد يكون ذلك بعاطفة الأمومة لدى المرأة، ولكن كيف تقول لفرعون .. ولك أنت أيضًا وهو على ما هو عليه من جبروت وطغيان ولا ينقصه أولاد مجهولو المصدر، وليس لامرأته تأثير أو سلطان عليه كما كان لامرأة عزيز مصر فى قصة يوسف عليه السلام، وما حكاه الله عنها يدل على أنها لم تكن إلا امرأة مستضعفة ويفهم ذلك من قوله تعالى على لسانها: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١]. هذا بالإضافة إلى أن فرعون كان يعلم أن زوال

ملكه سوف يكون على يد رجل من بنى إسرائيل فحاول أن يتوقى ذلك بقتل مواليدهم من الذكور واستحياء مواليدهم من الإناث، وهذا مولود ذكر مجهول المصدر، ولكن قد يكون من مواليد بنى إسرائيل ويكون زوال ملكه على يديه.

فكيف وافق امرأته على قولها وكان ينبغى له أن يحسب للأمر حسابه ؟

كل ذلك يرجع إلى قوله تعالى: ﴿ ... وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩].

فلما وقعت أعين الحراس الذين التقطوه من اليم أحبوه وقدموه لامرأة فرعون فأحبته، ودعت فرعون إلى حبه فأحبه ووافقها على رأيها.

وبذلك حُفظ موسى عليه السلام بالحب الذى ألقاه الله عليه، وبهذا الحب أحكم الله تدبيره لكى تتم باقى فصول القصة كما نعرفها، وقارن بين مكر فرعون وهو مخلوق، وبين مكر الله عز وجل وهو الخالق حتى يزداد يقينك بقوله تعالى: ﴿ ... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وأى مكر نفذ فى النهاية، مكر فرعون بالقتل، أم مكر الله بالحب ؟!

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى يرويه أبو هريرة رضي الله عنه :

* **«إذا أحب الله تعالى عبداً نادى جبريل إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه فيُحبه جبريل، فينادى فى أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض» متفق عليه.**

وهذا الحديث يدفعنا لكى نكون موضع محبة الله، والقرآن الكريم به كثير من الآيات التى تشير إلى الذين يحبهم الله مثل قوله تعالى :

* ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].
* ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ﴾ [آل عمران: ٣١].

* ﴿ ... وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿ ... وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

* ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ④ ﴾ [التوبة: ٤].

وقد يسأل السائل منا .. هل يحبنى الله ؟

لقد أحبك الله ابتداءً بأن ولدت من أبوين مسلمين وربياك على طاعة الله وأداء الفرائض، وعن طريقهما وبسببهما عرفت الله تعالى وباقى أركان الإيمان الستة وهى: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. وكان من الممكن أن تولد لأبوين كافرين أو مشركين أو يعبدان البقر كما فى الهند مثلاً.

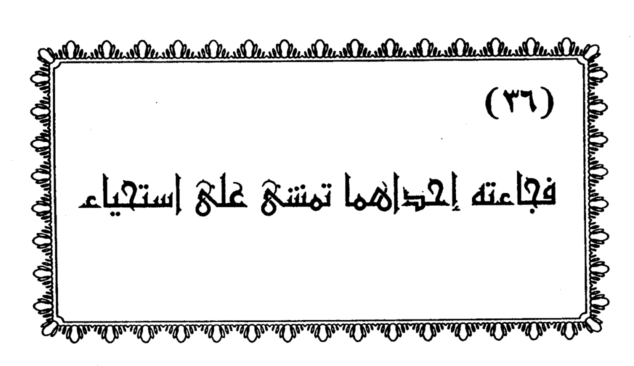
فهل حافظت على هذا الحب بالمحافظة على أداء الفرائض وعمل الصالحات والانتهاء عما حرم الله والابتعاد عما يبغضه؟ لقد بادرك الله ـ تعالى ـ بالحب وحرى بك أن تحافظ على حب الله حيث لا غناء لك عنه، وهو الغنى عنك وعن حبك، وما السعى الصحيح فى هذه الحياة الدنيا، وما السير على صراط الله المستقيم، وما الحرص على الاتصاف بالأوصاف التى جاءت فى الآيات التى ذكرناها آنفًا .. إلا لنوال هذا الحب والرضا.

* اللهم ارزقنا حبك، وحب من أحبك، وحب كل شىء يقربنا إلى حبك.

* اللهم ارض عنا ياربنا رضاءً لا سخط بعده.

.. آمين .





(٣٦)

فجاءته إحداهما تمشي على استحياء

يقول تعالى فى سورة القصص :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥].

لقد استمع موسى عليه السلام إلى نصيحة الرجل الذى قال له: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠]، وسار إلى أرض مدين، وسقى للمرأتين ثم تولى إلى الظل مفتقراً إلى الله وما عنده من خير.

* ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ... ﴾ .. من هذا الجزء من الآية سوف نبدأ موضوعنا حيث إن هذا التعبير يلفت النظر بشدة.

* فما الذى يريد الله أن يلقيه فى روع قارئها بهذا الوصف لمشيتها ؟

* وما هو الشعور الداخلى الذى تُدافعه وتخفيه حتى ظهر عليها فى شكل حياء فى هيئتها ومشيتها واطلع عليه العليم بذات الصدور وأثبته فى هذه الآية ؟

هذا الشعور هو عاطفة بدأت ونمت فى قلبها نحو موسى ـ عليه السلام ـ فصبغت مشيتها وكلامها بالحياء وهو فضيلة لكل أنثى بصفة خاصة ولجنس الإنسان بصفة عامة فـ «الحياء خير كله» كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه مسلم، و «الحياء شعبة من الإيمان» .. متفق عليه.

* فهل بادلها موسى ـ عليه السلام ـ بعاطفة مماثلة ؟

نعم .. والذى يرجح ذلك أنها أبلغته دعوة أبيها ليجزيه أجر ما سقى لهما، فاستجاب للدعوة ولم يتحفظ على قولها ـ وهو أمر يتوقع من مثله ـ لأن ما صنعه لهما كان معروفًا لا يطلب الشخص العادى أجراً عليه، فما بالك بنبى ـ ومن أولى

العزم من الرسل ـ لا يطلب من الناس أجراً على دعوته وعلى ما يقدمه لهم من معروف ـ كشأن الأنبياء جميعاً ـ وذهب معها لأبيها ليس ابتغاء الأجر ولكن مدفوعاً بعاطفة نحوها مماثلة للعاطفة التى أحسها منها نحوه .. فماذا حدث بعد ذلك ؟

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ .

[القصص: ٢٦] .

ونفهم من السياق أن التى قالت ذلك هى الفتاة التى أرسلها أبوها إليه، وجاءت الآية بهذه الصياغة محافظة من الله ـ تعالى ـ أيضاً على حيائها فى مواجهة قارئ القرآن فى كل زمان ومكان، وما الاقتراح باستئجاره إلا وسيلة مشروعة لنوال مراد مشروع.

* ولكن أنى لها معرفة أنه قوى أمين ؟

اما القوة .. فقد عرفتها من مزاحمته للرعاء الذين كانوا يسقون عيرهم وأغنامهم من البئر وتمكنه من ذلك .. وما ذلك إلا لقوة بنيان جسده.

واما الامانة .. فقيل أنه طلب منها وهو متوجه معها لتلبية دعوة أبيها أن تسير خلفه وتوجهه للطريق حتى لا تسير أمامه وما ينطوى عليه ذلك من احتمال رؤية مفاتنها بفعل هبوب الرياح على ثوبها فتفسر جسدها أو تكشف بعضه .. ولاشك أن هذا الوصف المختصر والحكيم يدل على نظرة ثاقبة لهذه الفتاة الجديرة بموسى عليه السلام .. فماذا حدث بعد ذلك ؟

* ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٧] .

القول لأب حكيم وهو والد الفتاتين، قاله لرجل قوى أمين وهو موسى عليه السلام. أما الأب فقد استمع إلى اقتراح ابنته باستئجار موسى ولمح فى كلامها رغبة

فيه فتجاوز الاقتراح إلى الرغبة المشروعة وبادر موسى أن عرض عليه الزواج من إحدى الفتاتين مراعاة لحياء ابنته صاحبة الاقتراح ـ على نمط قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ ـ ولأنه لن يتسنى استئجاره مع وجود الفتاتين فى بيت أبيهما وهما غير متزوجتين. وما عرضه الأب يعنى موافقته على استئجاره وعلى الزواج من إحدى ابنتيه لإمكان استئجاره، واقترح عليه صداقًا لابنته يتناسب مع حالته بعد أن قص عليه القصص، فقد خرج مُطاردًا من مصر لا يحمل إلا نفسه ويريد مأوًى آمنًا يأوى إليه. وعَرْض الأب يعنى تقديم المأوى والعمل ولقمة العيش والسكن والمودة والرحمة بالزواج.

ياله من أب حكيم .. ويا ليت كل الآباء الذين عندهم فتيات فى سن الزواج أن يكون لهم مثل هذه الحكمة وييسروا زواج بناتهم بمراعاة حال من يتقدم إليهم من الشباب وخاصة إذا كان الشاب الذى يتقدم للأب مرغوبًا من ابنته، على أن تكون هذه الرغبة المتبادلة نشأت فى جو من العفاف .. كالقصة التى نحن بصددها.

ونستطيع أن نستخلص من هذا الجانب من القصة ـ المتعددة الجوانب ـ ما يلى :

١ ـ أن العاطفة إذا نشأت بين الرجل والمرأة فى إطار من العفاف، وهادفة إلى الإحصان، ومحاطة بسياج عائلى .. فهى أمر يتوافق مع متطلبات الفطرة، ولا يتعارض مع مقاصد الدين.

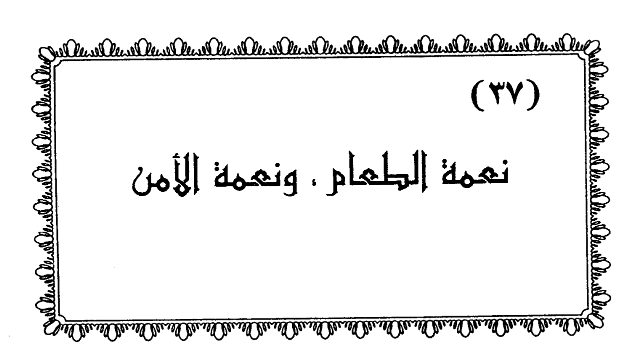
٢ ـ أن الأب الحكيم هو من يحسن اختيار الزوج لابنته، ولا حرج عليه أن يعرض زواجها أو يقبل طلبها للزواج ممن هو كفء لها .. سواء كان هذا الطلب تلميحًا أم تصريحًا.

٣ ـ أن التيسير فى أمور الزواج يحض عليه الشرع، وهذا التيسير يتناسب مع ظروف وأحوال الخاطب، فلا يطلب منه ما يشق عليه، مع المحافظة فى نفس الوقت على حق المرأة المطلوبة للزواج.

٤ ـ أن صفتى القوة والأمانة .. يجمعان كل ما هو مطلوب فى الخاطب، فالقوة ترجمانها قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ...**» رواه البخارى ومسلم، والأمانة ترجمانها قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**» رواه الطبرانى.

* وقوله: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ...**» رواه الترمذى. فالدين والأمانة وجهان لعملة واحدة.





(٣٧)

نعمة الطعام، ونعمة الأمن



أولاً : الأمن والطعام .. نعمتان أساسيتان :

مصداقًا لقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام فى دعائه للبلد الحرام وأهله :

* ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ... ﴾ [البقرة: ١٢٦].

ومصداقًا لقوله تعالى وهو يدعو قريش لعبادته ويمن عليهم بنعمته :

* ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٣، ٤].

* ﴿ ... أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧].

ومصداقًا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

* «من أصبح منكم آمنًا فى سربه معافًا فى جسده عنده قوتُ يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

وقد أضاف الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى نعمة الطعام، ونعمة الأمن، نعمة ثالثة وهى نعمة عافية البدن من الأمراض، لأن عافية البدن تمكن الإنسان من توفير الأمن والطعام لنفسه ولذويه إلى جانب الاستمتاع بهما .. فالمريض يمنعه مرضه من الاستمتاع بنعمة الطعام، ونعمة الأمن.

ثانيًا : الأمن والطعام نعمتان - إذا توفرتا - وهما محل لابتلاء الناس بهما .. وجودًا وعدمًا :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالخوف والجوع يقابلان الأمن والطعام .. ومن رحمة الله بالناس أنه يبتليهم بشىء من الخوف والجوع .. وليس بكلٍ لعلهم يصبرون وليأجرهم على الصبر وليزيد

إحساسهم بنعمة الأمن والطعام .. فكثيراً ما لا يشعر الإنسان بالنعمة إلا إذا فقدها .. فيتضرع إلى الله لكى يعيدها .. فإذا أعادها كان أكثر إحساساً بها وشكراً عليها.

ثالثًا : الكفر بأنعُم الله .. يأتى بالخوف والجوع، ويُذهب الأمن والطعام .. عقابًا من الله :

مصداقًا لهذا المثل الذى يضربه الله فى القرآن الكريم :

* ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾.

[النحل: ١١٢].

ولا أجد ما أقوله بعد هذا العنوان والآية التى تليه شرحًا للمقصود .. فالمعنى واضح.

رابعًا : لمن الأمن :

إجابة هذا السؤال فى قوله تعالى :

* ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

[الأنعام: ٨٢].

والظلم هنا هو الشرك مصداقًا لقوله تعالى على لسان لقمان :

* ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

والأمن المقصود .. يشمل أمن الدنيا والآخرة .. وإن كان أمن الآخرة هو الأبقى.

خامسًا : لمن الطعام :

لقد كفل الله ـ تعالى ـ الرزق لجميع خلقه بمقتضى ربوبيته لهم مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ... ﴾ [هود: ٦].

ولكن هناك فرق بين رزق الربوبية، ورزق الإيمان والتقوى، فهو إنعام عن استحقاق، وتصديق لوعد الله للمؤمنين المتقين .. مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ ... وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وإن أخذ ربك لشديد !!

سادسًا : استطراد هام :

١ ـ الطعام والأمن هما الشغل الشاغل للشعوب والحكومات والتنظيمات الإقليمية والدولية، وتوفيرهما يحقق الرضاء والرفاهية، ونقصهما يؤدى إلى الاضطرابات والصراعات والحروب لذلك نجد أنه على المستوى المحلى والإقليمى والدولى تنشأ تنظيمات تعنى بتوفير الطعام والأمن فى شكل وزارات محلية وأحلاف إقليمية وتنظيمات عالمية، فنجد فى كل دولة وزارات للأمن الغذائى (التموين) والأمن الداخلى (الداخلية) والأمن الخارجى (الدفاع)، ونجد فى كل إقليم تحالفات مثل حلف الأطلنطى، وحلف وارسو (سابقًا)، ونجد على المستوى العالمى هيئة الأمم المتحدة وتنظيماتها .. مثل مجلس الأمن، ومنظمة الأغذية والزراعة، ومجلس الغذاء العالمى.

ورغم كل هذه التنظيمات على المستوى المحلى والإقليمى والدولى فإن العالم يموج بالاضطرابات والصراعات والحروب، وتنتشر المجاعات، وتخرج إلينا الإحصائيات بأن مئات الملايين من البشر تحت خط الفقر ويعانون من سوء التغذية وتفتك بهم الأمراض .. لماذا؟

لأن الله ـ تعالى ـ واليوم الآخر لم يدخل فى حساباتهم .. فهى حسابات دنيوية لا شأن لها بالآخرة، وهى حسابات مصلحية لا علاقة لها بالمبادئ والأخلاق، ويحكمها هذا الشعار اللاأخلاقى .. «الغاية تبرر الوسيلة» .. وهو ما يعرف بالمكيافيلية.

٢ ـ الأمن يوفر الطعام، والخوف يؤدى إلى الجوع، وهذا ما نلاحظه على المستوى الفردى والجماعى، وكذلك على المستوى المحلى والإقليمى والدولى. لأن

توفر الأمن يصرف الأفراد والجماعات والحكومات إلى العمل والإنتاج وتقديم الخدمات وتتضاعف ميزانيات التنمية والتطوير والرفاهية وتتضاءل ميزانيات الدفاع والإنفاق العسكرى، والعكس صحيح فإن الخوف وانعدام الأمن يصرف الأفراد عن العمل والإبداع، ويدفع الحكومات إلى مضاعفة الإنفاق العسكرى وميزانيات الدفاع والأمن بشقيه .. الداخلى والخارجى، فتتضاءل فى نفس الوقت ميزانيات الإنتاج والخدمات فتنتشر البطالة ويقل المعروض من السلع وترتفع الأسعار وتنهار المرافق - ويخيم على المجتمع الأعداء الثلاثة .. الفقر والجهل والمرض .. وقبل كل ذلك وبعده الخوف وانعدام الأمن .. فهو السبب وهو النتيجة.

٣ - العدل أساس الملك .. فلا يستقر ملك إلا بالعدل .. وهذا الاستقرار يؤدى إلى توفر الأمن والطعام، واختفاء الخوف والجوع. لقد طلب أحد الولاة من عمر بن عبد العزيز - ﷺ - وهو خامس الخلفاء الراشدين .. أن يرسل إليه أموالاً لبناء سور حول المدينة لتحصينها، فكان رد أمير المؤمنين عليه: «حصنها بالعدل».

فإذا ساد العدل أمِن الناس وأنفقت الأموال فيما يحقق الرخاء بدلاً من إنفاقها فى إقامة الأسوار والتحصينات.

وهذه الحكمة البالغة التى أدركها عمر بن عبد العزيز - ﷺ - ليست بمستغربة عليه فهى موروثة من جده عمر بن الخطاب - ﷺ - الخليفة العادل، وثانى الخلفاء الراشدين الذى رآه أحد الفُرْس وكان موفداً إليه من قِبَل كسرى .. رآه نائمًا تحت ظل شجرة وهو حاكم الدولة التى قهرت الفرس والروم فقال: «حَكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر».

لقد ملأ عمر بن عبد العزيز - ﷺ - الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً مثل جده، فأمن الناس وزادت الخيرات حتى أن القائمين على بيت مال المسلمين كانوا يجدون مشقة فى العثور على مستحقى الزكاة. فلا سلام ولا أمان إلا بالعدل، ولا طعام ولا رخاء إلا بالعدل، ولا استقرار مُلْك إلا بالعدل، ولا عدل إلا بالإسلام، ولا

إسلام إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر.

٤ ـ الشعور بالأمن والشبع .. إحساس إنسانى وليس فقط واقع حياة.

وهذا الإحساس لا يتوفر إلا للمؤمنين بالله واليوم الآخر، فالمؤمن يشعر بالأمن لأنه يأوى إلى ركن شديد، فهو فى أمان الله، والمؤمن يشعر بالشبع لأنه راضٍ بما قسمه الله له مصداقًا لقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمن قال له: أريد أن أكون أغنى الناس فقال له الرسول: «ارض بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس».

وتأكيدًا لهذه الحقيقة قال رسول الله ﷺ :

«ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» رواه أبو ذر ـ متفق عليه.

وصدق هذا العابد الزاهد الذى قال: «نحن فى سعادة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف».

فكم من ملك يقبع خلف التحصينات والحراس ولكنه لا يشعر بالأمن، وعنده من الأموال والخيرات ولكنه لا يشعر بالشبع لأنه يطلب المزيد.

وهذا ينطبق أيضًا على كل فرد لا هم له إلا الدنيا وجمع ملذاتها والاستكثار منها .. ونسى الله واليوم الآخر ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: ١، ٢] . فأنساه الله نفسه حتى يباغته الموت ويأتيه اليقين .. بعد أن عاش حياته لا يشعر بالأمن ولا بالشبع.





(٣٨)

هل أدلكم على تجارة ؟

يقول تعالى فى سورة الصف :

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

هذا نداء من الله ـ تعالى ـ للذين آمنوا .. أى سبق لهم الإيمان وأسلموا وجوههم لله ويريد الله عز وجل أن يصعد بهم إلى ذروة سنام الإسلام وهو الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال .. ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى يرويه معاذ بن جبل ﷺ :

«رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» رواه الترمذى.

ومن حكمة الله البالغة ورحمته الواسعة أنه خاطب بالقرآن الكريم كل العقول والأفهام، وراعى كل النزعات والمشارب، ولبى كل المطامع والطموحات .. المشروعة بطبيعة الحال والله ـ العليم ـ يعلم أن النزعة التجارية متأصلة فى نفس الإنسان، وهذه النزعة قائمة على تبادل المنافع وتنمية المكاسب وتحقيق المصالح ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

وكما يسعى الإنسان لتحقيق مصالحه الدنيوية، فقد خاطب الله المؤمنين بما يتفق مع طبيعتهم البشرية التى خلقهم عليها لتحقيق مصالحهم الأخروية أيضًا فقال لهم: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم فصل بعد ذلك أساس هذه التجارة، وما هى البضاعة التى يستحث الله المؤمنين أن يعرضوها (الأموال والأنفس) وما هو الثمن الذى يعرضه الله لهذه البضاعة (النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة).

يا لها من رحمة من الله وحرص على أن يستجيب الناس لدعوة الإيمان، وحرص على تثبيت إيمان المؤمنين الذين سبق لهم الإيمان ورفع درجاتهم الإيمانية

حتى يجزل لهم العطاء فى الدنيا والآخرة فيخاطبهم بشتى الأساليب ولا يكتفى بإثبات حقه عليهم فى عبادته حيث إنه هو الخالق والرازق، والمحيى والمميت، مالك الملك والملكوت، ولا يقتصر على أسلوب الخطاب الذى يتناسب مع أولى الألباب منهم الذين قال عنهم: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ... ﴾ [الرعد: ٢٢] لأنه يعلم أنهم قلة فى كل زمان ومكان.

ولقد سار القرآن الكريم على هذا النهج الوارد فى سورة الصف فى كثير من الآيات ونذكر منها :

* ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

* ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤].

* ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... ﴾.

[التوبة: ١١١].

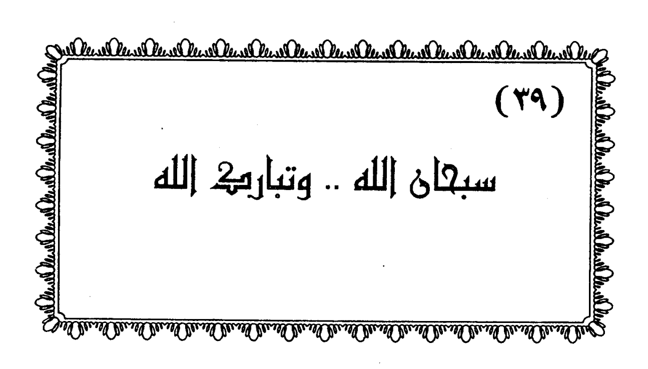


* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

* ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧].

وغير هذه الآيات كثير فى كتاب الله عز وجل .. لإقامة حجته البالغة وإعلان رحمته الواسعة .. وليوقن المؤمنون أن التجارة مع الله .. تجارة لن تبور.

❀ ❀ ❀



(٣٩)

سبحان الله .. وتبارك الله



إن التسبيح هو أنشودة الكون، إنه إثبات الكمال والجلال والجمال لله، وتنزيهه عن كل نقص أو صغار أو عيب أو قبح، وهو تنزيه يشمل آيات خلقه وقدرته وعظمته وحكمته وعلو شأنه التى عرفناه بها.

إنه تسبيح باسمه ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١]. لأن ذاته لا تدرك ولا يمكن تصورها وتخيلها ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

[الشورى: ١١].

إنه تسبيح المربوبين لربهم العالى المكانة .. ليس العالى فقط ولكنه الأعلى.

والرب هو الذى خلق فسوى ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى: ٢] .. خلق من عدم وعلى غير مثال سابق فهو الخالق وهم المخلوقون، وهو القديم وهم الحادثون، وهو المصور الذى صور فأحسن التصوير، وأحسن التقويم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٤]، [التغابن: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤].

وهو الذى قدر فأحسن التقدير: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٣] ..ولم يترك مخلوقاته هملاً بل هداهم سبلهم ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ [عبس: ١٩، ٢٠].

وهذا التقدير والهدى يشمل الإنسان والحيوان وكل ما يدب على الأرض، ويشمل الطير فى جو السماء، ويشمل الأسماك فى البحار والأنهار، ويشمل الملك والملكوت.

ومن تتبع آيات قدره وهدايته للمخلوقات لامتلأ عقله وقلبه ووجدانه إحساسًا بعظمة الخالق البارئ المصور وما وجد تعبيراً عن هذا الإحساس سوى .. سبحان الله.

وكلمة التسبيح أبلغ من كل قول، وهى كلمة السر التى علّمها الله لعبده لكى يفرغ فيها شحنة إحساساته ببديع صنع الله وروعة آياته فى الكون والنفس. يقولها فتصل إلى ربه الأعلى الذى لا يعرف مقدارها غيره ولا يثيب عليها سواه. يقولها عند

ركوعه وسجوده فى الصلاة، ويقولها عند فراغه من الصلاة، ويقولها عندما يقرأ آيات الله التنزيلية لما فيها من إعجاز فى اللفظ والمعنى والتشريع، ويقولها عندما ينظر ويتأمل آيات الله الكونية لما فيها من كمال وجمال، ويقولها عندما يتفكر فى خلقه من نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظام ثم كسوة العظام لحمًا .. حتى ينشأ خلقًا آخر .. ويقول أيضًا مع التسبيح .. تبارك الله أحسن الخالقين.

وتبارك هذه أقرب ما يكون من سبحان .. فتبارك الله، وسبحان الله .. علّمنا إياها الله لمعرفته أننا سوف نعجز عن التعبير فجعلها رمزًا بيننا وبينه .. نقولها عجزًا، ويثيبنا عليها فضلاً .. وهى من الكلم الطيب الذى قال الله تعالى عنه: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠]، ونشترك بقولها طوعًا مع الكون المسبح لربه طبعًا مصداقًا لقوله تعالى:

* ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله تعالى:

* ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

وقوله تعالى:

* ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد: ١٣].

وقوله تعالى عن داود عليه السلام:

* ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ [ص: ١٨].

فيا أيها الإنسان .. ويا من أسلمت وجهك لله .. عليك أن تنتظم مع الكون وتردد معه هذه الأنشودة الكونية، ولا تتخلف عن هذا الركب المبارك ..

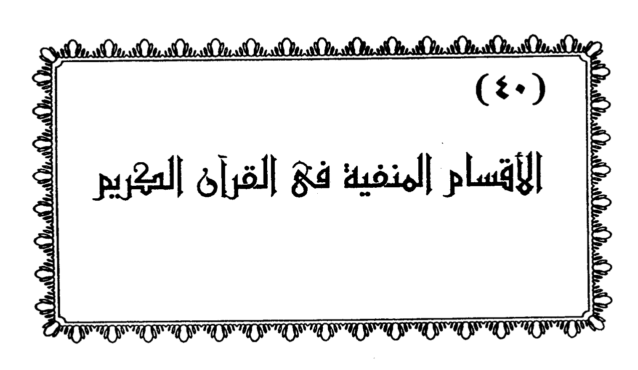
ينطقها لسانك، ويهتز لها كيانك، يتفكر فيها عقلك، ويمتلئ بها قلبك،

واستمع إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام الذى يدلك على العمل اليسير الذى لك عليه من الله الثواب الكبير :

* «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». متفق عليه







(٤٠)

الأقسام المنفية في القرآن الكريم

يقول فضيلة الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن فى المعنى المراد من الأقسام المنفية ما يلى :

* المعنى المراد من الأقسام المنفية هو التلويح بالقسم دون إمضائه إذا كان الأمر المقسوم عليه أوضح من أن يُدل عليه وأن يُؤكد فى الدلالة عليه بقسم. إنه ينزل منزل البدَهيات، وتوكيد البدهيات، لا يزيدها عند الذين لا يؤمنون بها إلا إنكاراً. والتلويح بالقسم إشارة إلى أنه لو كان الأمر يحتاج إلى قسم لمضى القسم إلى غايته، ولما سُلط عليه النفى الذى حال بينه وبين أن يقع على المقسم عليه».

وعموماً .. فإن الأقسام المنفية هى صيغة من صيغ القسم فى القرآن الكريم. فإذا تتبعنا هذه الأقسام المنفية سوف نجد أن غالبيتها تقع فى الجزء التاسع والعشرين والثلاثين من القرآن الكريم وقسم واحد منها يقع فى الجزء السابع والعشرين.

وفيما يلى نستعرض هذه الأقسام المنفية .. القسم وجوابه ودلالته :

١ - يقول تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾.

[الواقعة: ٧٥ - ٧٩].

يقسم الله - تعالى - بمواقع النجوم ويصف القسم والمقسوم به بأنه عظيم وهو وصف لم يتكرر فى القرآن الكريم لأى قسم سواء كان مثبتاً أم منفياً. وهذه الآيات أول ما نزلت على قوم لا يعلمون عن مواقع النجوم إلا أقل القليل .. لذلك قال تعالى: ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾.

والآن وقد تقدمت علوم الفلك والفضاء بدرجة مذهلة للتطور الهائل فى المناظير المقربة والأقمار الصناعية التى تجوب فى الفضاء لتجمع المعلومات وترسلها إلى المراصد الأرضية ومراكز الأبحاث لكى يحللها العلماء عن طريق الحاسبات الإلكترونية الضخمة «السوبر كمبيوتر».

ولا ننس هذا المشهد المثير عندما وصل الإنسان إلى القمر وسار عليه خطوات وجمع منه بعض الأحجار وعاد إلى الأرض بثروة ضخمة من المعلومات.

وكل يوم يمر يأتى لنا بجديد فى هذا المجال، وسوف يظل قوله تعالى: ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ سارى المفعول ـ إن جاز التعبير ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما وصل إليه الإنسان وما سوف يصل إليه من علم عن النجوم ومواقعها ما هو إلا قطرة فى محيط الحقيقة والعلم. إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التى لا تحصى فى الفضاء الهائل الذى لا نعرف له حدوداً. مجموعة واحدة ـ هى المجرة التى تنتسب إليها أسرتنا الشمسية ـ تبلغ ألف مليون نجم وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

إن ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد كثير ولكن نكتفى بهذا القدر الذى يوضح عظمة القسم والمقسوم به لبيان عظمة المقسوم عليه أو جواب القسم .. فما هو جواب القسم ؟

هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾.

فهل هناك أعظم من القرآن الكريم الذى أنزله الله ـ تعالى ـ من اللوح المحفوظ الذى لا يمسه إلا الملائكة المطهرون ؟

نقول: ما أعظم من أقسم .. وهو الله، وما أعظم المقسوم به .. وهو مواقع النجوم، وما أعظم المقسوم عليه .. وهو القرآن الكريم.

٢ ـ يقول تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٣].

هذا قسم يعرف منه الإنسان أن مخلوقات الله ـ تعالى ـ لا تقتصر على ما نراه أو ما نعرفه ولا نراه مثل الملائكة والجن، وذلك لتعظيم ما خلقه الله من مخلوقات غير

محصورة فيما تراه أعيننا ولتعظيم القسم ذاته وبالتالى المقسوم عليه. هو قسم بكل ما خلقه الله .. ما نبصره وما لا نبصره.

وهو قسم أشمل من القسم بمواقع النجوم. والمقسوم عليه أيضًا .. هو القرآن، فما قول الرسول عليه الصلاة والسلام إلا القرآن .. وقد جاء ذكر القرآن من خلال ذكر الرسول تشريفًا له مع وصف الرسول عليه الصلاة والسلام بما وُصف به القرآن .. فهو هناك فى سورة الواقعة قرآن كريم، وهوهنا فى سورة الحاقة رسول كريم .. وهو وصف كريم من الله الكريم.

ونستطيع أن نقول هنا أيضًا .. ما أكرم من أقسم .. وهو الله، وما أكرم المقسوم به .. وهو مخلوقات الله جميعها ما نبصره منها وما لا نبصره، وما أكرم المقسوم عليه، وهو القرآن الكريم الذى نطق به وبلغه الرسول الكريم.

٣ ـ يقول تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١].

يقسم الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى .. وهو الرب .. مع خصيصة من خصائص الربوبية وهو أنه رب المشارق والمغارب .. إشارة إلى الزمان والمكان، وأنه خالق الزمان والمكان، وأنه رب الزمان والمكان.

فالشرق والغرب يشيران إلى جهات الأرض الأصلية مضافا إليهما الشمال والجنوب .. وهذا ما نعنيه بالإشارة إلى المكان. والإشارة إلى الشرق والغرب لم تأت هكذا فى نص الآية ولكنها جاءت بلفظ المشارق والمغارب للإشارة إلى مشرق الشمس ومغربها وبالتالى تعاقب الليل والنهار. وهذا ما نعنيه بالإشارة إلى الزمان. كما جاء اللفظ بالجمع للإشارة إلى أن للشمس مشارق وليس مشرقًا واحدًا، فإذا أشرقت فى مكان أشرقت بعده فى مكان آخر، وبعده فى مكان ثالث .. وهكذا تبعًا لدوران الأرض حول نفسها قبالة الشمس.

وهكذا الأمر بالنسبة لمغرب الشمس.

لقد أخذنا هذا القسم لندور مع الأرض شرقًا وغربًا، ولكى نتعرف على الزمان والمكان، ونؤمن بقدرة رب المشارق والمغارب، ونشعر بأهمية القسم والمقسوم به والمقسوم عليه.

فما هو المقسوم عليه ؟

﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ ، وتنتهى الآية (٤٠) لتبدأ بعدها الآية (٤١) بقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ .

وحكمة النظم على هذا النحو لإثبات قدرة الله المطلقة دون تخصيص، ثم ذكر مظهرًا من مظاهر هذه القدرة المطلقة وهو تبديل المكذبين بخير منهم من المؤمنين المصدقين بالغيب دون منازع يسبقه لمنع نفاذ مشيئته.

وهذا القسم ينطوى على تهديد رهيب للمعاندين والمكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويلحقوا بركب الإيمان ويسبقوا إلى الخير قبل أن يسبقهم الله فى إنفاذ تهديده.

٤ ـ يقول تعالى: ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ١ ـ ٤].

يقسم الله ـ تعالى ـ بيوم القيامة وهو أمر غيبى، ويقسم بالنفس اللوامة وهى أمر محسوس أما عن القسم بيوم القيامة .. فكما أقسم الله ـ تعالى ـ بالمشهود مثل الشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، والتين والزيتون .. وهى مشهودات لا سبيل لإنكارها، فقد أقسم بيوم القيامة فهى واجبة الوقوع (الواقعة) وهى حقيقة (الحاقة) مثل الحقائق المشهورة التى أقسم بها الله .. بل هى أشد شهودًا منها .. ولكن عند المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾، ﴿ ... وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .

لذلك كان يكفى التلويح بالقسم .. وهل يكون قسم بوهم وخيال، وكذب وافتراء، أم يكون بحقيقة راسخة كرسوخ الجبال، بل أشد منها رسوخًا ؟

وأما عن القسم بالنفس اللوامة : فالنفس اللوامة ليست شيئًا ملموسًا، ولكنها أمر محسوس والارتباط بينها وبين يوم القيامة ارتباط وثيق.

إن النفس لتلوم صاحبها على اقترافه ذنبًا أو وقوعه فى إثم، أو أمره بمنكر أو نهيه عن معروف، أو تركه فريضة أو واجب أو مستحب.

وكل هذه المفردات التى ذكرناها تتعلق بالدين ويوم الدين .. أى يوم القيامة.

فلا نفس لوامة دون قيامة، ففيم اللوم والتلاوم إذن لو لم تكن قيامة وحساب وجنة ونار ؟!

والنفس اللوامة نعمة عظيمة يؤتاها المؤمنون بالله واليوم الآخر .. فهى أداة تصحيح الأخطاء، وهى وسيلة الرجوع إلى الحق، وهى الآلة التى ترفع يد المؤمن بالدعاء إلى الله بالعفو والمغفرة والتوبة، وهى جهاز الصيانة لإيمان المؤمنين، وهى الدواء الذى يشفى النفوس من عللها والأدران التى تعلق بها.

مما سبق يتبين لنا أهمية القسم وأهمية المقسوم به .. وذلك لأهمية المقسوم عليه وهو البعث من القبور .. وهو أول وقائع يوم القيامة بعد النفخة الثانية فى الصور حيث يتلوه الحشر ثم الحساب ثم الصراط ثم الجنة أو النار.

لقد أشارت الآيات إلى البعث في قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٣ - ٤].

ومن نماذج المنكرين للبعث هذا المشرك الذى جاء للرسول عليه الصلاة والسلام وبيده عظم قد رمّ وتفتت سائلاً: هل يعود هذا العظم إنسانًا حيًا مرة أخرى ؟ فيسجل الله - سبحانه وتعالى - هذا المشهد فى قرآن يتلى إلى يوم تقوم الساعة .. يقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

ويأتى التأكيد فى سورة القيامة ردًا على هذا الإنسان الذى يظن أن الله - تعالى - لن يجمع عظامه - كناية عن البعث - برد حاسم بأن الإعادة مرة أخرى لن تكون

بجمع العظام فحسب بل سوف يعود أدق ما كان فى جسده إلى ما كان عليه وهو البنان .. أى أطراف الأصابع وما فيها من تعرجات دقيقة تسمى «البصمة» التى لا تتشابه بين الخلائق منذ أن خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا الرد الإلهى على المنكرين للبعث يشبه قول أحدهم للآخر ـ ولله المثل الأعلى ـ هل تستطيع أن تعيد جدران البيت المتهدمة إلى ما كانت عليه ؟

فيكون رد الآخر : بل أستطيع أن أعيد النقوش والزخارف التى كانت تزين هذه الجدران إلى ما كانت عليه .. إثباتًا لقدرته الفائقة على إعادة البناء إلى ما كان عليه.

ولو أردنا الاستطراد فى هذا القسم والمقسوم به والمقسوم عليه لطال الحديث .. ولكن نكتفى بهذا القدر بعد أن اتضحت أهميته .. وسبحان من هذا كلامه.

٥ ـ يقول تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾.

[التكوير: ١٥ – ٢٥].

يقسم الله ـ تعالى ـ بما فى السماوات من كواكب ونجوم تجرى فى مداراتها تبدو لامعة إذا أقبل الليل بظلمته فإذا سرى الليل وانقضت ساعاته أقبل النهار بضوئه يؤذن بميلاد يوم جديد يتنفس كتنفس المولود الجديد عقب ولادته، فإذا ولد النهار وتنفس اختفت الكواكب والنجوم وانطفأ نورها وكأنها ظباء دخلت كناسها (الكناس: بيت الظباء).

إنها جولة فى ملكوت الله ـ تعالى ـ من خلال هذا القسم والمقسوم به، أما المقسوم عليه فهو رسول السماء، ورسول الأرض، والرسالة .. أى جبريل عليه السلام، ومحمد عليه الصلاة والسلام، والقرآن الكريم. فقد أرسل الله ـ تعالى ـ رسول السماء ودنيا الناس مظلمة بظلمات الشرك والوثنية، أرسله بنور الرسالة ﴿ ... قَدْ

جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]. إلى رسول الأرض ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. ليخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ﴿ .. كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

من هذا السرد تتضح لنا العلاقة بين المقسوم به والمقسوم عليه فإذا قابلنا بين المقسوم به والمقسوم عليه فسوف نجد أن الارتباط وثيق بينهما وتبين لنا حكمة هذا القسم الذى أكد الله ـ تعالى ـ فيه حقيقة الرسالة، وحقيقة الرسول، وحقيقة الملائكة، وقبل كل ذلك حقيقة الإله الذى أرسل، ووصف فيه جبريل بالكرم والقوة والأمانة، ونفى فيه عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الجنون، ونفى فيه عن الرسالة أن تكون من أقوال الشياطين مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾.

[الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

والنفى فى كتاب الله تعالى لا يقل أهمية عن الإثبات .. ويكفى فى الدلالة على ذلك أن شهادة التوحيد تبدأ بالنفى ثم الإثبات .. لا إله إلا الله.

٦ ـ يقول تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: ١٦ - ١٩].

يقسم الله ـ تعالى ـ ببعض الظواهر الكونية التى لا تغيب عن أحد .. وأولها الشفق وهو ما نراه فى السماء وقت الغروب إيذانًا بقدوم الليل وهو المقسوم به الثانى وما يحمله هذا الليل للخلائق وما يخفيه فى ظلماته، ثم القمر فى حالة اكتماله بدراً فى منتصف الشهر.

إنها ظواهر كونية تنتقل من حالة إلى حالة وهى من خلق الله، مثل الإنسان الذى ينتقل من حالة إلى حالة .. من صغر إلى هرم إلى شيخوخة، ومن صحة إلى

مرض، ومن رخاء إلى شدة، ومن يسر إلى عسر، ومن غنى إلى فقر .. العكس صحيح أيضًا، حتى ينتقل من حياة إلى موت ثم إلى بعث فيلقى الله ـ تعالى ـ ولابد ملاقيه .. فهو كادح إلى ربه كدحًا فملاقيه ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وهذاهو معنى المقسوم عليه وهو قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

من هنا يتضح لنا أيضًا العلاقة الوثيقة بين المقسوم به والمقسوم عليه وحكمة هذا القسم الذى يهدف أيضًا لإثبات حقائق الإيمان لذلك يقول الله ـ تعالى ـ بعد ذلك: ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٠ – ٢٤].

وفى هذه الآيات تهديد ووعيد للمكذبين لعلهم يثوبون إلى رشدهم.

٧ ـ يقول تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ١ – ٤].

يقسم الله ـ تعالى ـ بالبلد وهى مكة التى بها أول بيت وضع للناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا...﴾ [آل عمران: ٩٦]. وهذا البيت هو الكعبة، وهذه الكعبة حيث بيت الله الحرام جعلت مكة حرمًا آمنًا .. يأمن فيه الإنسان والحيوان والطير والنبات ويجبى إليه ثمرات كل شىء مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ [القصص: ٥٧].

ومن أجل هذا البيت وفدت إلى البلد (مكة) وفود الحجيج من كل فج عميق وما وراء ذلك من رزق وفير لأهل هذا البلد وشرف ومكانة بين العرب، وعلى أساس خدمة هذا البيت وخدمة الحجيج .. توزعت مناصب الشرف على كبراء هذا البلد مثل السدانة والسقاية والرفادة، ومن أجل ذلك أمنت قوافل تجارتهم إلى اليمن فى الشتاء وإلى الشام فى الصيف.

ومن أجل هذا البيت أيضاً وصفت مكة بأنها أم القرى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: ٧].

وثبت حديثاً أن مكة هى مركز الكرة الأرضية، ونكتفى بهذا القدر لبيان أهمية القسم وعظمة المقسوم به.

ومما يزيد فى هذه الأهمية والعظمة أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد حل أى سكن هذا البلد .. وهذا من باب التكريم والتشريف للرسول لأن حلوله فى هذا البلد جُعل جزءاً من هذا القسم .. وهذه الإضافة كقول أحد الناس لآخر: بيتك هذا جميل وسكناك فيه يزيده جمالاً.

ثم عطف الله على البلد قسماً آخر بوالد وما ولد مع التنكير .. وهذا التنكير فتح باباً واسعاً للمفسرين لتعدد التفسيرات فمنهم من قال أن الله ـ تعالى ـ بعد أن أقسم بالمساكن أقسم بالساكن، ومنهم من قال أن الله ـ تعالى ـ بعد أن أقسم بالمبانى ـ وأولها الكعبة ـ أقسم بالبانى وهو إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، ومنهم من أطلق المعنى فجعله كل والد وكل مولود، وكل والد كان مولوداً، وكل مولود سوف يكون والداً .. والله أعلم بمراده.

هذا عن القسم والمقسوم به .. فماذا عن المقسوم عليه ؟

أما عن المقسوم عليه ـ أو جواب القسم ـ فهو قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾. أى فى تعب ومشقة. وأول هذا الكبد .. تكبد نطفته فى شكل علقة أى قطعة من الدم تكبدت مثل الكبد ـ وهو دم متجمد ـ وتعلقت فى جدار الرحم ثم تطورت فى أطوار خلقها، وهذه الأطوار ذكرها الله فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ⑫ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ⑬ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ⑮ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٦].

والطفل يكابد بعد ذلك آلام الجوع حتى يلتقم ثدى أمه، وآلام تبوله وتغوطه فى لفائفه، وآلام خروج الأسنان والأضراس.

ثم يكابد بعد ذلك مراحل استقامة عوده ودبيبه على الأرض وهى تبدأ بالجلوس ثم بالحبو ثم المشى بعد التعثر.

وتنتهى مكابدات الطفولة بالفطام لتبدأ مكابدات الصبا من تعليم وتأديب، ثم المراهقة وما أدراك ما المراهقة وما فيها من مكابدات جسمية ونفسية وعاطفية.

بعد ذلك تبدأ مرحلة الشباب ثم الرجولة ثم الكهولة والشيخوخة حيث أرذل العمر .. وما فى هذه المراحل من مكابدات تحصيل العلم والمعرفة وتعلم الصنائع المختلفة، وتحصيل لقمة العيش قليلها وكثيرها، وكذلك مكابدات تقلب الأحوال فيكابد الفقر والغنى، والمرض والصحة، والضراء والسراء، والشر والخير، والشدة والرخاء، والمعصية والطاعة، .. وغيرها من المكابدات حتى يستوفى أجله.

فيكابد سكرات الموت، ثم يكابد سؤال الملكين وضغطة القبر ووحشته حتى يكون له بعد ذلك إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

فإذا انتهت حياته البرزخية بعث من قبره ليكابد الحشر والعرض والحساب .. ثم بعد ذلك ليس له من دار .. إلا الجنة أو النار فإن كانت الجنة فبها ونعمت حيث الراحة الحقيقية والراحة الأبدية حيث لا مكابدات مطلقًا .. جعلنا الله من أهلها.

وإن كانت النار فبئس القرار حيث المكابدات أبدًا .. أعاذنا الله منها؛ لذلك تنتهى سورة البلد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ [البلد: ١٧ - ٢٠].

وأخيرًا .. بعد أن انتهينا من هذه الجولة مع الأقسام المنفية فى القرآن الكريم التى ذكرناها على سبيل الحصر وبترتيب ورودها فى كتاب الله .. نستطيع أن نستخلص الآتى :

١ ـ أن الأقسام المنفية شأنها كشأن الأقسام المثبتة تهدف إلى تأكيد حقائق الإيمان.

٢ ـ أن أهمية المقسوم عليه تُعرف من أهمية المقسوم به.

٣ ـ أنه وإن كان القسم وجوابه ينطوى ـ غالبًا ـ على تهديد ووعيد للمكذبين فإنه ينطوى ـ فى نفس الوقت ـ على توجيه نظر المؤمنين إلى أهمية وعظمة المقسوم به للتأمل والتدبر والاتعاظ.

٤ ـ أن هذه الأقسام تهدف إلى إقامة الحجة على المكذبين والمعاندين.

٥ - أن هذه الأقسام تصل المشهود بالغيب، والدنيا بالآخرة، والمقدمات بالنتائج، والبدايات بالعواقب.

ونسأل الله حسن العاقبة.





(٤١)

نسبة البنات (الملائكة) لله

ادعاء باطل، ورد مفحم، وتعقيب هام

يقول تعالى فى سورة الزخرف :

* ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ⑮ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ⑯ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ⑰ أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ⑱ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٥ - ١٩].

* الشرك .. ضلال وضياع وانحراف، وهذه الآيات تعرض لنا لونًا من ألوان الفكر المنحرف للمشركين، وشكلاً من أشكال التخبط يظلون فيه طالما ارتضوا لأنفسهم البعد عن حصن الأمان وهو حصن التوحيد. والكافرون قد حددوا موقفهم منذ البداية .. وكفروا بالله واليوم الآخر.

أما هؤلاء المشركون فقد عرفوا أن لهذا الكون إلهًا قادرًا، خلقهم، ورفع فوقهم السماوات، وبسط تحت أقدامهم الأرض، وأنزل من السماء ماءً فيه حياتهم وحياة أنعامهم ونماء زروعهم وهو الذى خلق الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم. وقد أثبت الله - تعالى - عليهم ذلك فى كتابه العزيز على النحو التالى :

* ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ [العنكبوت: ٦١].

* ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

* ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩].

* ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ورغم هذه المعرفة، فقد أشركوا مع الله آلهةً مُدَّعاةً من الأصنام والأوثان، أو من

الكواكب والنجوم، ونسبوا لله الولد واختاروا له ما يكرهونه لأنفسهم، فقد جعلوا الملائكة بنات الله.

فهل هذا يتفق مع التوقير الواجب والتعظيم اللازم للإله الخالق المعبود ؟

وإن كان هذا الادعاء عجيبًا فى بطلانه، فإن الرد الإلهى أعجب فى نصاعة حقائقه، ووضوح أدلته .. وهو نموذج يلفت النظر لحلم الحليم، وحكمة الحكيم، وصبر الصبور .. سبحانه وتعالى .. يتعلم منه كل داع إلى الله كيف يكون التطبيق الصحيح لقوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

[النحل: ١٢٥].

لقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، وهذا ادعاء لا دليل عليه ولا بينة ولا علم موثق، فهم لم يشهدوا خلقهم فيكون ادعاؤهم هذا بمثابة شهادة الزور وسوف يكتبها الله ـ تعالى ـ فى صحفهم ويسألهم عنها يوم القيامة. والملائكة من خلق الله وهم عباد الرحمن ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، جعلهم هؤلاء المشركون بنات الله فنسبوا لله الولد وجعلوهم إناثًا .. أى نسبوا لله ما يكرهون لأنفسهم كما قال تعالى فى هذه السورة وفى سورة النحل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

[النحل: ٥٨، ٥٩].

ولم يقف ضلالهم عند هذا الحد بل إنهم أشركوا الملائكة مع الله فى العبادة وهم جزء من خلق الله وعباده، وهو لون من الألوان المتعددة لشرك المشركين، ولقد وصف الله الإنسان الذى يفعل ذلك بأنه: «كفور مبين» لأن الكفر كله ملة واحدة طالما انحرف الإنسان عن ملة التوحيد، ولأن كفر الكافر وشرك المشرك ـ بعد إقامة الحجة البالغة عليه من الله ـ يكون قد كفر أو أشرك وهو على بينة من أمره ولا عذر

له عند الله يوم القيامة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ ۝ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٧].

إن تصوراتهم الخاطئة لا تنتهي عند حد وتخرصاتهم الضالة لا نهاية لها واستمع إلى قولهم بعد ذلك: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٠]. فهم ينسبون عبادتهم للملائكة إلى مشيئة الله لأنه لو شاء غير ذلك ما عبدوهم. فكيف عرفوا هذه المشيئة ؟!

إنهم يقدمون هذا الادعاء الباطل مبررًا لعبادتهم الباطلة ولو عرفوا الله حق المعرفة ما أشركوا معه فى عبادتهم له جزءًا من مخلوقاته، وما نسبوا له الولد، وما جعلوا أولاده ـ وتعالى الله عن الولد ـ بناتًا .. ولوحدوه مع الموحدين.

* قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ .

[الزخرف: ١٨].

لقد أفردنا لهذه الآية جزءًا مستقلاً رغم أنها ضمن الآيات التى أسلفناها نظرًا للوصف المعجز الذى ورد بها للإناث .. والوصف يبدأ بصيغة الاستفهام الإنكارى لنسبتهم البنات لله ونسبة البنين إليهم. فهم يرتضون لله ما لا يرضونه لأنفسهم رغم أنه لا يجوز نسبة الولد لله أصلاً. فالبنات نظرًا لطبيعة خلقهن ولأسلوب تنشئتهن وتربيتهن القائم على التدليل والتزين بألوان الحلى والزينة لإبراز أنوثتهن فى مراحل نموهن منذ الطفولة حتى تصل الواحدة منهن إلى سن البلوغ فتحجب عذراء فى خدرها حتى تنتقل من بيت أبيها إلى بيت زوجها فى كامل بهائها وزينتها فتلبس الحرير وتتزين بالذهب والحلى وتتجمل بما هو سائد من أدوات التجميل وإبراز الحسن فى كل عصر، وليس لها باع فى الجدال والقتال والصراع وأقصى ما أثبته الله للنساء هو الكيد ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨]. فالكيد هو الأسلوب الذى يتناسب مع تكوينهن ونشأتهن فى الحلية .. إن أردن الدفاع أو الهجوم.

أين هذا من الفتى الذى ينشأ على الفتوة والنزال والجدال، ويُعلَّم فنون الفروسية والقتال والنزال بالسيف أحياناً وبالكلمة أحياناً أخرى. وهو رصيد مدخر لقومه إذا دعى الداعى للدفاع أو الهجوم، وإذا حمى وطيس المعركة مع الأعداء. وحماية النساء فى هذه الحالة يكون من أكبر دوافع الحرب والبسالة فى القتال حتى لا يقعن سبايا فى أيدى الأعداء فيجلبن لقومهن العار الذى لا يمحى إلا بقتال ينتصرون فيه ..

فهل يليق بعد ذلك نسبة البنات لله ونسبة البنين لهم ؟!

* بعد هذا الوصف البديع للبنات فى كلمات قليلة .. ورغم ذلك فهو الأشمل والأكمل، فإن لنا تعقيبًا بشأن تربية البنات وأثرها بعد ذلك فى بيوت أزواجهن. فالبنات اللاتى أُحسن تربيتهن ديناً وخلقاً، شكلاً وموضوعاً وصفهن الله وصفاً بديعاً أيضاً فقال: **﴿ ... فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ... ﴾.**

[النساء: ٣٤].

ووصفهن الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: **«ما استفاد المؤمن ـ بعد تقوى الله عز وجل ـ خيراً من زوجة صالحة: إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله»** رواه ابن ماجه عن أبى أمامة رضي الله عنه.

واللاتى لم يُحسن تربيتهن أشار إليهن الله فى قوله تعالى:

﴿ ... وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾.

[النساء: ٣٤].

وهذه الآية تقسم النساء من حيث النشوز إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ينتفع بالموعظة لأن الزوجة فى هذه الحالة لم تتعلم فى بيت أبيها أو نسيت، فإذا وُعظت من زوجها وعلمت خطأها أو تذكرت .. رجعت عنه ولا تعود إليه.

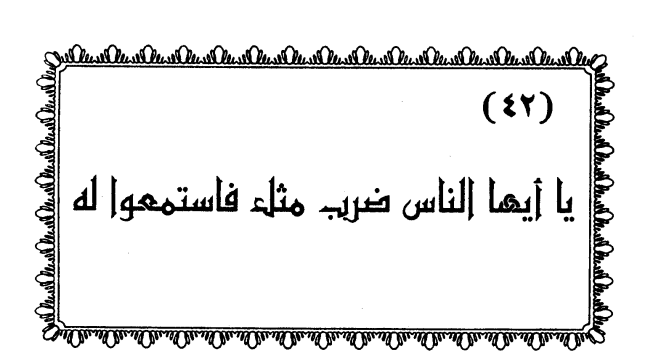
القسم الثانى : لا يرتدع إلا بالهجر فى الفراش وهو إيذاء معنوى، فلا يكسر عنادها ولا يُقيم عوجها إلا حاجتها الغريزية لزوجها .. فتسترضيه وترجع عن خطئها.

القسم الثالث : لا يرتدع إلا بالضرب، وهو إيذاء بدنى .. حدد الشرع حدوده وشروطه. وغالبًا ما يكون هذا النوع من النساء قد تربت فى بيت أبيها على هذا الأسلوب فى التربية والتقويم.

وهذه الأقسام الثلاثة للنساء فى بيوت أزواجهن مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأسلوب تربيتهن فى بيوت آبائهن .. فلينتبه الآباء إلى ذلك، وليختاروا لبناتهم نوعًا من هذه الأنواع الثلاثة إذا انتقلن إلى بيوت أزواجهن .. وكل نوع أو قسم مرتبط كما قلنا بأسلوب التربية .. فليتقوا الله فى تربية بناتهن حتى يكنّ صالحات قانتات حافظات للغيب، ولا يكنّ من الناشزات.

وخير ما نختم به هذا التعقيب قول الرسول عليه الصلاة والسلام فى حسن تربية البنات وثواب ذلك عند الله تعالى: «**من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان، أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة**» رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ ، وأبو داود إلا أنه قال: «**فأدبهن، وأحسن إليهن، وزوجهن فله الجنة**».




(٤٢)
يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له

يقول تعالى فى سورة الحج :

* ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

* للأمثال شأن كبير فى كتاب الله، وهى وسيلة هامة من وسائل توضيح المعانى لقارئ القرآن الكريم، وتيسير فهمه، واستجلاء مقاصده ومراميه، وبدونها قد تستغلق المعانى، ويصعب الفهم، ويغيب المقصد.

وإذا كانت آيات القرآن الكريم قد وُصِفَت بأنها بينات فإن ضرب الأمثال أحد وسائل هذا البيان .. أى الوضوح.

* وقد قال تعالى فى أسباب ضرب الأمثال للناس فى القرآن الكريم ما يلى :

* ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

[الزمر: ٢٧].

* ﴿ ... وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

أى أن ضرب الأمثال للناس فى القرآن الكريم للتذكر والتفكر .. التذكر المانع للنسيان والغفلة، والتفكر الجالب لليقين والحكمة.

وقد وصف الله ـ عز وجل ـ من يعقل هذه الأمثال بالعلم مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وتتباين مواقف الناس إزاء الأمثال التى يضربها الله تبعًا لمواقفهم من الإيمان به وبكتبه ورسله ويتضح هذا التباين فى قوله تعالى :

* ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

فالذين آمنوا يعلمون أنه الحق من ربهم، والذين كفروا يستهينون بالمثل، وكيف يُضرب المثل ببعوضة حقيرة الشأن فى نظرهم وكل ما يعرفونه عنها أنها إما تسبقهم فتلدغهم وإما يسبقونها فيتفادون لدغتها أو يقتلونها. فيكون نصيب الذين آمنوا الهدى من ضرب المثل، ويكون نصيب الذين كفروا الضلال .. لأنهم فاسقون.

* بعد هذه المقدمة اللازمة لموضوع الأمثال فى القرآن الكريم، وهو موضوع يطول الحديث عنه، ولكن حديثنا يقتصر فى هذا المقال على هذه الآية الكريمة من سورة الحج التى صدرنا بها هذه السطور.

* تبدأ الآية بنداء من الله ـ تعالى ـ إلى الناس، والمقصود من الناس هم هؤلاء المشركون الذين يدعون من دون الله آلهة أخرى، وهى فى نفس الوقت دعوة لكل الناس لتأمل هذا المثل. والمؤمنون يجدون فيه مثلاً مذهلاً يُثبت التوحيد فى قلوبهم ويفخرون بأنهم يعبدون هذا الإله الواحد الأحد القادر المتحدى، ويحمدون الله ـ تعالى ـ أن نجاهم من موارد الشرك فهى مُهلكة فى الدنيا والآخرة.

يقول ابن القيم: «حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه». وصدق ابن القيم.

* يضرب الله ـ تعالى ـ المثل بمخلوق من أضعف مخلوقاته يستقذره الناس ويضيقون به فيذبونه كلما حط على أحد منهم .. ولذلك سمى ذباباً.

والإله الحق الذى نعبده بحق من أعظم صفاته أنه الخالق لكل المخلوقات .. كبيرها وصغيرها، عظيمها وحقيرها، قويها وضعيفها، وله حكمة بالغة فى خلق هذا وذاك من المخلوقات .. وهذه الحكمة لا تغيب على أولى الألباب.

فهل تستطيع الآلهة المدعاة إذا اجتمعت كلها أن تخلق ذبابة ؟ .. لن تستطيع أبداً، والتحدى قائم حتى تقوم الساعة. وإذا كان الأمر كذلك فهل ينتهى المشركون عن شركهم ؟ ألا يستحيون من ضلالاتهم وأباطيلهم ؟!

* ولا ينتهى المثل عند هذا الحد، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يزيد المشركين

إحساساً بعجز آلهتهم المدعاة وسخف عبادتهم لها، فيقول إن هذه الذبابة الضعيفة إن سلبت من آلهتهم شيئًا لا تستطيع هذه الآلهة أن تسترده منها، فهي عاجزة عن دفع الأذى عن نفسها، وعاجزة عن استرداد ما سلب منها .. فهل تعبد هذه الآلهة العاجزة ؟

من هنا نفهم لماذا كان ضرب المثل بالذبابة وليس بمخلوق ضخم كالفيل مثلاً حتى تتضح المفارقة، وتتجلى المقارنة .. فهل يثوب هؤلاء المشركون إلى رشدهم ؟

* ويبقى سؤال هام .. من الطالب والمطلوب الذى ساوى الله ـ تعالى ـ بينهما فى العجز ؟

جاء فى كتاب التفسير القيم الذى يتضمن تفسير ابن القيم لبعض آيات القرآن الكريم ما يلى :

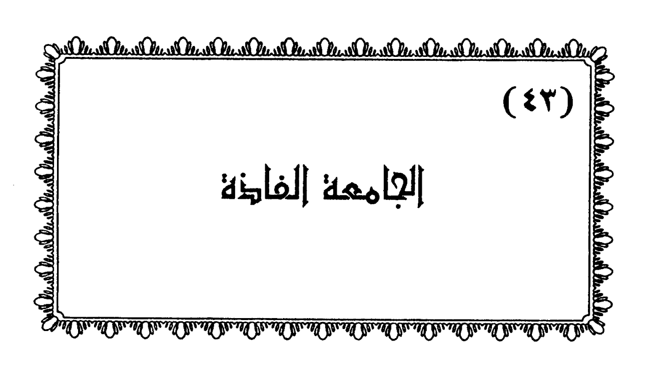
* قيل أن الطالب هو العابد، والمطلوب هو المعبود .. فهو عاجز متعلق بعاجز.

* وقيل أن الطالب هو الإله (المسلوب منه)، والمطلوب هو الذباب (السالب) فهما متساويان فى العجز والضعف.

* وقيل أن الطالب هو الذباب، والمطلوب هو الإله .. فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه وكلاهما متصف بالضعف.

* وكل هذه المعانى دليل على الأسلوب المعجز للقرآن الكريم الذى يطلق العنان لتداعى المعانى وكلها يحتملها المعنى ويستسيغها العقل .. وسبحان من هذا كلامه.





(٤٣)

الجامعة الفاذة



قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وتأكيداً لهذا المعنى الوارد فى هاتين الآيتين .. يقول تعالى :

* ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

* ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

* ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

وهذه الآيات وغيرها من مقتضى العدالة الإلهية عند الحساب فى الآخرة، فضلاً عما يعجل به الله من ثواب وعقاب فى الدنيا.

وكان رسول الله ﷺ يسمى هاتين الآيتين من سورة الزلزلة «الجامعة الفاذة» كما جاء فى تفسير القرطبى .. وتفسير هذا القول يتضح فيما يلى من مرويات وردت فى تفسير القرطبى :

* روى أن رجلاً جاء إلى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: علمنى مما علمك الله، فدفعه لرجل يعلمه فعلمه سورة الزلزلة فقال الرجل بعد أن استمع إلى الآيتين الأخيرتين منها: حسبى .. (أى يكفينى ذلك). فأخبر النبى بما قال الرجل. فقال: «دعوه فإنه قد فقه» رواه معمر عن زيد بن أسلم.

* وقدم رجل على النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستمع إليه وهو يتلو سورة الزلزلة فقال الرجل: لا أبالى ألا أسمع من القرآن غيرها، حسبى فقد انتهت الموعظة. ذكره الثعلبى عن الحسن.

* وروى أن أعرابيًا سمع النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقرؤها فقال: يا رسول الله أمثقال ذرة قال: نعم. فقال الأعرابى: واسوأتاه .. قالها مرارًا، ثم قام وهو يقولها فقال النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان».

* قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ هذه أحكم آية فى القرآن.

قال القرطبى: صدق، والآية المُحكمة .. هى التى لا يُختلف فى تأويلها ولم تأت بعدها آية تنسخها.

* وقال كعب الأحبار: لقد أنزل الله على النبى آيتين أحصتا ما فى التوراة والإنجيل والزبور .. وذكر الآيتين.

* وروى أن مسكينًا استطعم السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وبين يديها عنب فقالت لأحد الناس: خذ حبة فاعطه إياها. فجعل ينظر إليها ويتعجب. فقالت: أتعجب ؟! كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة ؟!

* وروى عن سعد بن أبى وقاص ـ رضي الله عنه ـ أنه تصدق بتمرتين .. فقبض السائل يده (امتناعًا عن أخذهما) فقال للسائل: ويقبل الله منا مثاقيل الذر، وفى التمرتين مثاقيل ذر كثيرة.

من كل هذه المرويات يتبين لنا معنى تسمية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهاتين الآيتين من سورة الزلزلة «الجامعة الفاذة».

ويضيف الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى كل ما سبق وتأكيدًا للمعنى .. قوله:

* «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلق أخاك بوجه طليق» رواه مسلم عن أبى ذر ـ رضي الله عنه ـ.

* «اتقوا النار ولو بشق تمرة» متفق عليه ـ رواه عدى بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ.

وصدق رسول الله ﷺ.

(٤٤)

الجمال وصف لخلق وخلق الرسول ﷺ ووصف للخالق وما خلق من مخلوقات

سُئلت السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام ..

فقالت: كان خلقه القرآن، وقال هو عن نفسه: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»، وشهد له الله - تعالى - فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، ثم لخص صلوات الله وسلامه عليه سبب بعثته فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

تعالوا بنا بعد ذلك .. نستعرض كيف كانت أخلاق الرسول القرآنية وكيف أدبه ربه فأحسن تأديبه حتى استحق بذلك شهادة الله له بالخلق العظيم .. فأتم بذلك مكارم الأخلاق وذلك من خلال كلمة «الجمال» فى القرآن الكريم. فكما أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتصف بجمال الخلْق، كان يتصف أيضاً بجمال الخُلُق.

١ - قال تعالى فى سورة المعارج: ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ [المعارج: ٥].

فالصبر الجميل هو الصبر المطمئن الذى لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك فى صدق الوعد. صبر الواثق من العاقبة. الراضى بقدر الله. ا لراضى بحكمته من وراء الابتلاء. وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب دعوة الحق .. فهى دعوة الله، وهى دعوة إلى الله.

٢ - وقال تعالى فى سورة المزمل: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ [المزمل: ١٠].

فالهجر الجميل الذى يسبقه الصبر ويلزمه .. لا عتاب معه ولا غضب، أى كن رفيقاً بهم، متودداً إليهم، ولا يحملنك ما يرمونك به عن سفاهة أو جهل على الدعاء عليهم، بل ارفق بهم والتمس العذر لهم، فهذا هو شأن العالم مع الجاهل والطبيب مع المريض. لذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو لقومه ويقول: «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون». وكان هجره لهم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، وفى شعب أبى طالب، ثم إلى المدينة المنورة .. كان هجراً جميلاً اتباعاً لأمر الله - تعالى - له فى هذه الآية.

٣ ـ وقال تعالى فى سورة الحجر: ﴿ ... فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾.

[الحجر: ٨٥].

فالصفح الجميل الذى لا ضغينة فيه ولا حقد، ولا إضمار سوء للمصفوح عنه.

ولقد نزلت هذه السورة المكية فى عام الحزن الذى ماتت فيه السيدة خديجة ﷺ وعمه أبو طالب، وفقد الرسول عليه الصلاة والسلام الأنيس والنصير، فاشتد إيذاء المشركين فسرى عنه الله ـ تعالى ـ برحلة الإسراء والمعراج، ونزول بعض السور مثل سورة يوسف.

وهذه السورة التى تشتمل على قصص الأنبياء من قبله وما لاقوه من إيذاء من أقوامهم مع شيء من التفصيل لقصة لوط عليه السلام مع قومه، فمهما فعلت قريش فلم تفعل معه مثلما فعل قوم لوط مع نبيهم فانتهكوا الحرمات وخالفوا الناموس، وجاءوا لينتهكوا حرمة بيته وضيوفه ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ [الحجر: ٦٨، ٦٩].

وكان هؤلاء الضيوف من الملائكة فى هيئة الإنسان .. جاءوا بالبشرى للوط عليه السلام ومن آمن معه، وبالهلاك لمن عاندوه وآذوه.

واتباعًا لهذا التوجيه الإلهى .. عندما جاء ملك الجبال للرسول عليه الصلاة والسلام وهو لا يزال فى مكة وقال له: «لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين» .. أى جبلا مكة فما كان من الرسول عليه الصلاة والسلام إلا أن قال له: «لا .. لعل الله يُخرج من أصلابهم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». وقد كان فعلاً ما تمناه الرسول عليه الصلاة والسلام وخرج من أصلابهم من جاهدوا فى سبيل الله لكى تكون كلمة الله هى العليا ففتحوا البلاد ونشروا نور التوحيد الذى بدد ظلمات الشرك والكفر فى أرجاء الأرض وكان قمة الصفح الجميل عندما فُتحت مكة فى العام الثامن من الهجرة وقال لأهلها: «ماذا تظنون أنى فاعل بكم» قالوا: خيراً .. أخ

كريم وابن أخ كريم. فقالها مدوية وحفظها له التاريخ في موقف لا نظير له : «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

٤ ـ وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾.

[الأحزاب: ٢٨].

والسراح الجميل .. هو مفارقة الزوج لزوجته بالحسنى إذا استحالت المودة والرحمة بينهما.

وهذا الأمر عرضه الرسول عليه الصلاة والسلام على أزواجه عندما تغلب عليهن طبع النسوة وطالبنه بزيادة النفقة ورغد العيش، فأنزل الله عليه هذه الآية .. والآية التى بعدها: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٩]. وانتهى الأمر بأزواجه أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فكنَّ من المحسنات اللاتى أعد الله لهن أجراً عظيماً فى الآخرة .. وهكذا ينبغى أن يكون اختيار الزوجة الصالحة.

ولا عجب أن يكون الجمال فى كل خُلُق أدب الله ـ تعالى ـ به رسوله عليه الصلاة والسلام وفى كل أمر أمره به، فإن كان المأمور .. جميل الخلْق والخُلُق، فإن الآمر «جميل يحب الجمال» كما جاء فى الحديث المشهور الذى رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ .

والعبرة التى ينبغى أن يلتفت إليها كل مسلم يتأسى بالرسول عليه الصلاة والسلام أن الجمال أمر مقصود فى الخلْق والخُلُق .. وهو من مطلوبات الدين .. وكل جميل فهو من الدين، وكل قبيح ليس من الدين.

وتعالوا بنا نقرأ آيات بينات من سورة النحل تلفت نظرنا إلى الجمال، وتؤكد لنا أن الجمال قيمة من قيم الدين، وليس ـ فقط مبحثاً من مباحث الفلسفة.

* ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: ٥ - ٦].

* ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

[النحل: ٨].

* ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ... ﴾ [النحل: ١٣].

* ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ... ﴾ [النحل: ١٤].

فالأنعام فيها جمال، والخيل والبغال والحمير زينة .. والزينة جمال، واختلاف ألوان ما يخرج من الأرض وما ينتشر فيها .. واختلاف الألوان جمال، واستخراج الحلية من البحر ولبسها .. شكل من أشكال الجمال.

وبذلك تكتمل صور الجمال فى الدين ..

* فالله جميل يحب الجمال.

* والرسول عليه الصلاة والسلام .. جميل الخلْق والخُلُق.

* والجمال .. أمر مقصود فى صنع الله وفى خلق الله.

فتعالوا بنا ننشد الجمال فى كل شىء، وننبذ القبح فى كل شىء.

❀ ❀ ❀

(٤٥) الاستكبار .. داء وبيل

أخرج إبليس من الجنة

وحرم على أتباعه دخولها



يقول تعالى فى سورة الأحقاف :

* ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١].

هذه الآية تعرض لنا صورة من صور استكبار الكافرين بغير الحق .. وهذا الاستكبار هو السبب الذى جعل الله الكبير المتعال يصرف هؤلاء المستكبرين عن آياته ـ التنزيلية والكونية ـ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فقد رأى هؤلاء أن الذين اتبعو الرسول عليه الصلاة والسلام هم الفقراء والضعفاء والعبيد والإماء فوقع فى ظنهم ـ وساء ما يظنون ـ أن الإسلام ليس خيراً، لأنه لو كان خيراً ما سبق إليه هؤلاء ولسبقوا هم إليه. وهذه تزكية لنفوسهم لا يستحقونها وكأنهم أصبحوا ـ فى نظرهم لأنفسهم ـ الميزان الذى يوزن به الخير والشر، والفرقان الذى يُفرق بين الحق والباطل. وهذا خطأ فادح وقعوا فيه .. وصدق من قال: «يُعْرف الرجال بالحق ولا يُعْرف الحق بالرجال». والذى أوقعهم فى هذا الخطأ الفادح أنهم رأوا أنفسهم أهل الثراء وأهل الشرف والمكانة فى أعراف الجاهلية وبالتالى فهم أولى بالخير من غيرهم، وإذا كان موقفهم من الإسلام هو الإنكار والإعراض والتكذيب .. فهو إذاً ليس بخير.

والمستكبر إذا كان ثريًا .. يرى أنه مستحق لهذا الثراء دون غيره، وإذا كان ذا سلطان يرى أنه مستحق لهذا السلطان دون غيره، وكذلك الأمر إذا كان ذا علم أو منزلة رفيعة من منازل الدنيا .. وكأن ألوان الخير جميعها لم تخلق إلا له، أو لم تخلق إلا من بعد وجوده، أى أن هناك تلازمًا بينه وبينها .. وإن لم يوجد هو لم توجد هى.

والقرآن الكريم يتضمن أمثلة لهذا الاستكبار .. نذكر منه :

* قوله تعالى على لسان صاحب الجنتين: ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ ثم استطرد قائلاً بعد ذلك: ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٤، ٣٦].

ويتضح من كلام هذا المستكبر أنه يرى فى نفسه أنه محبوب الأقدار وأنه المرشح دائمًا للسعادة وألوان الخير كلها، وإذا كان الأمر كذلك فى الدنيا، فإن كانت هناك آخرة فإن نصيبه منها سوف يكون خيراً من نصيبه فى الدنيا .. فإذا سألناه من أين أتيت بهذا الحكم، وكيف وصلت إلى هذه النتيجة؟! قال: أنه بذاته مستحق لكل خير أينما حل فى كل وقت وحين سواء كان ذلك فى الدنيا أو فى الآخرة.

* وتأكيداً لهذا المثال .. يقول تعالى على لسان الإنسان .. كل إنسان مصاب بداء الاستكبار: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ... ﴾ [فصلت: ٥٠].

وهيهات .. هيهات أن يجد الأمر كما يظن ..فالحسنى لمن أحسن، والسوأى لمن أساء. مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الروم: ١٠].

* واستمع إلى قوله تعالى على لسان قارون رداً على نصائح قومه له: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ... ﴾ [القصص: ٧٨].

* ونختم بأشهر نماذج الاستكبار فى الأرض بغير الحق .. فرعون وملئه .. الذين قال تعالى عنهم: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥]. وقال أيضًا: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥، ٤٦].

وكان من نماذج استكباره قوله لموسى عليه السلام: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وقوله لملئه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا

أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨]. وقوله لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]. وقوله لهم أيضًا: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١]. وقوله لهم عن موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧]. ثم ختم أقواله الفاجرة والمستكبرة بقوله: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾.

[النازعات: ٢٤].

* فماذا كانت عاقبة كل هؤلاء المستكبرين وغيرهم ؟

أما عن صاحب الجنتين فقال تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾.

[الكهف: ٤٢].

وأما عن قارون فقال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

وأما عن فرعون فقال تعالى: ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠].

لقد كانت تلك العاقبة في الدنيا .. أماعاقبة الاستكبار في الآخرة فيصورها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

* فإذا رجعنا إلى آية الأحقاف مرة أخرى فسوف نجد أن الشطر الثانى من الآية ﴿ . . . وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ يؤكد ما ذهبت إليه ظنون المستكبرين فى الشطر الأول منها .. فكما قالوا أن هذا الدين ليس بخير لأن الذى سبق إليه هم الفقراء والضعفاء، قالوا عندما لم تنشرح صدورهم إليه وإلى آيات القرآن الكريم .. إن هذا القرآن إفك قديم .. أى كذب يردده الناس عن القدماء .. أو كما قالوا فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم ..

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤].

أى أن العلة فى القرآن وليست فيهم .. فكيف تكون فيهم وهم ـ فى نظرهم لأنفسهم ـ ميزان الخير والشر، وفرقان الحق والباطل ؟!! .. فهذا الشطر الثانى من الآية دليل آخر على استكبارهم فى الأرض بغير الحق .. والاستكبار داء وبيل يحول بين الإنسان والحق، وما كان إبليس إبليسًا إلا بهذا الاستكبار مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]. أو كما قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢، ١٣].

* وقد نهى الله تعالى عن الكبر فى أكثر من موضع من القرآن الكريم مثل قوله عز وجل :

* ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٧].

* ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

* ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

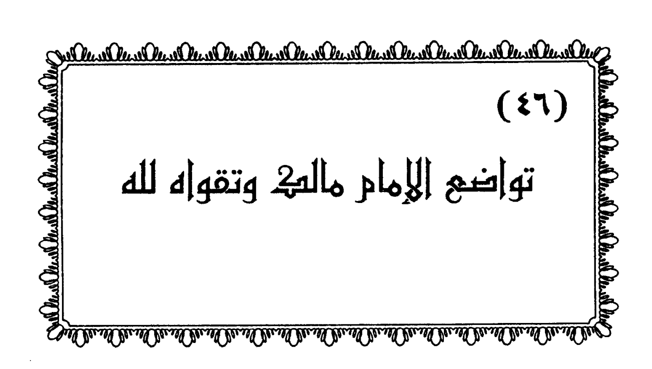
* كذلك جاء فى السنة أحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام تنهى عن الكبر نذكر منها :

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: **«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: إن الرجل يحبُ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس»** رواه مسلم.
وبطر الحق: دفعه ورده على قائله. وغمط الناس: احتقارهم.

* وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله عز وجل: العز إزارى والكبرياء ردائى، فمن نازعنى فى واحد منهما فقد عذبته»** رواه مسلم.

فليحذر المستكبرون فى الأرض بغير الحق .وليتفكروا فيما حدث لأمثالهم السابقين من المستكبرين وليتدبروا ما جاء فى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام الذى قال عن التواضع الذى هو الدواء لداء الاستكبار: **« ... وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»** رواه مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه .





(٤٦)

تواضع الإمام مالك وتقواه لله



يقول تعالى فى ختام سورة المرسلات :

* ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٨ - ٥٠].

هذه الآيات البينات التى تختتم بها سورة المرسلات هى التى سوف تقودنا إلى هذا الموقف الرائع الذى يُظهر لنا تواضع الإمام مالك - رحمه الله - وتقواه لله عز وجل وأن وصف الإمام لا تخلعه الأمة الإسلامية على أحد من علمائها إلا إذا كان جديراً بهذا الوصف علماً وعملاً وخلقاً.

إن هذا القول الذى ورد فى الآيات قيل للمكذبين بحقائق الإيمان وأساسها الإيمان بالله واليوم الآخر .. واختلف المفسرون بشأن هذا القول إلى فريقين.

الأول : أن هذا القول يقال للمكذبين فى الآخرة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢].

والركوع والسجود إشارة إلى الصلاة، ومن لم يركع ويسجد لله فى الدنيا فلن يستطع ذلك فى الآخرة.

والثانى : أن هذا القول يكون فى الدنيا فيكون معناه أنه إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس لم يؤمنوا، فالركوع إشارة إلى الصلاة، والصلاة علامة الإيمان وهى عماد الدين كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ويعرف بها المؤمنون مصداقًا للحديث: «إذا رأيتم الرجل يعتادُ المساجدَ فاشهدوا له بالإيمان» رواه الترمذى.

والصلاة بركوعها وسجودها دليل على الخضوع لله وإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى، وامتناع الكافرين عن الصلاة - أى عن الإيمان دليل على التمرد واتباع الهوى الذى يهوى بأصحابه فى النار.

واستمع إلى سؤال أصحاب اليمين والموجه للمجرمين: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٤٢]، واستمع إلى الإجابة التى توضح الأسباب وأولها: ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) ﴾ [المدثر: ٤٣]، وتأتى بعد ذلك باقى الأسباب.

ومما يذكر فى شأن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴾ أن الإمام مالك رضي الله عنه دخل المسجد بعد صلاة العصر وجلس فقال له غلام كان يجلس بجواره دون أن يعرفه: يا شيخ قم فاركع (والغلام يقصد أن يقوم فيصلى ركعتين تحية للمسجد) فقام الإمام مالك فصلى ركعتين تحية للمسجد. فقيل للإمام: لقد عُرف عن مذهبك أنك لا تصلى تحية المسجد فى أوقات الكراهة (ومنها الوقت ما بين العصر وأذان المغرب) فقال لسائليه: خشيت أن أكون ممن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾ فقمت وصليت ركعتين ولم أحتج على الغلام بمذهبى.

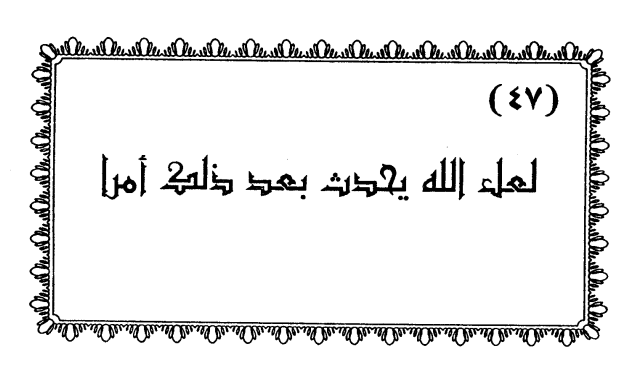
يا له من موقف رائع للإمام مالك فيه عبرة وعظة للمتشنجين والمتمذهبين، فإن خشيته لله غلبت رأيه ومذهبه، وأن تواضعه دفعه وهو إمام أن يأتمر بأمر هذا الغلام.

وتختم السورة بكلمة أخيرة للمكذبين الذين توعدهم الله تعالى بالويل والعذاب الشديد عشر مرات فى هذه السورة. تختم السورة بقوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات: ٥٠]. أى فبأى حديث بعده يصدقون. وقد تحداهم الله فى مواضع كثيرة فى القرآن الكريم أن يأتوا بمثله إلى أن قال عز وجل ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ [البقرة: ٢٣- ٢٤]

فمن لم يهتد بالقرآن لا يهتدى بغيره أبدا. وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا قرأ سورة المرسلات قال عند ختامها بهذه الآية : آمنت بالله وبما أنزل.

ونقول معه : آمنا بالله وبما أنزل.





(٤٧)

لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا



يقول تعالى فى أول سورة الطلاق :

* ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق: ١].

* الزواج من سنن الفطرة، وسنة الأنبياء والمرسلين ـ إلا البعض منهم لحكمة ـ وعن طريقه تتم الإرادة الإلهية بعمران الأرض بالذرية، وبه يكون إحصان الفروج من الزنا والمحافظة عليها من الوقوع فى الفاحشة، وبه يعف كلٌ من الزوجين نفسه عن الحرام، وبه يكون سكن الرجل للمرأة، والمرأة للرجل، ويدوم هذا السكن بالمودة والرحمة، وينتهى بالكراهية والغلظة فيكون الفراق ويكون الطلاق.

وعقد الزواج وصفه الله وصفًا يلفت النظر لم يصف به عقداً آخر سوى ميثاقه مع النبيين. واستمع إلى قوله تعالى ناهيًا من أراد أن يستبدل زوجًا مكان زوج أن يأخذ منها مالاً سبق له أن أعطاه لها من صداق وغيره كشرط لطلاقها وعدم تعليقها ..

* ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

واستمع إلى قوله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام عن الميثاق الذى أخذه من النبيين جميعًا :

* ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧].

لقد وصف الله ـ تعالى ـ عقد الزواج وميثاقه مع النبيين .. بالميثاق الغليظ،

ولهذا دلالته القوية التى ينبغى أن يلتفت إليها كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر عندما يتعامل مع عقد الزواج .. عقداً عند الزواج وحلاً عند الطلاق بكل اعتبار واحترام ويتقى الله فى الحالتين؛ لأن تقوى الله هى الضمان الوحيد لإتمام الزواج أو إنهائه بالطلاق على الوجه الذى يرضاه الله دون ظلم أو إجحاف بحق أحد الطرفين. لذلك يتكرر التذكير فى السورة بتقوى الله عز وجل عند الطلاق، وإحصاء العدة، وحقوق الزوجة المطلقة فى النفقة، وأجر الإرضاع إذا كانت تُرضع وقت وقوع الطلاق أو بعده إن كانت من أولات الأحمال.

* تبدأ السورة بنداء من الله عز وجل للنبى عليه الصلاة والسلام يأمره بأوامر وينهاه عن نواهٍ فى شأن طلاق النساء، رغم أن الرسول لم يطلق أحداً من نسائه اللاتى دخل بهن، فيكون الأمر للمسلمين فى شخص الرسول فهو الذى سوف يبلغهم، وهو الذى سوف يراقب تنفيذهم الأمر، وهو الذى سوف يستجيش تقواهم لله عند التنفيذ ..

وفى نفس الوقت فهو أسلوب لإظهار أهمية الأمر، والأهمية الكبرى التى يوليها الله ـ تعالى ـ للرابطة الزوجية، وكل ما يتعلق بأحكام الأسرة لأنها هى الخلية الأولى فى المجتمع، فإذا صلحت صلح المجتمع، وإذا فسدت فسد المجتمع .. فبماذا أمر الله سبحانه؟ وعن أى شىء نهى؟

* أمر الله ـ تعالى ـ المسلمين فى شخص الرسول عليه الصلاة والسلام .. إذا طلقوا النساء أن يطلقوهن وهن يستقبلن عدتهن أى فى طُهر لم يمسهن فيه أزواجهن. وهذا الأمر له حكمة بالغة. فمن امتنع عن زوجته وهى حائض يكون مترقباً لطهرها ومشتاقًا إليها ـ وهى كذلك ـ فتنعدم بذلك ـ غالبًا ـ فرص الخلاف بينه وبينها الذى قد يترتب عليه طلاقها. وبالتالى فمن طلق زوجته فى طهر لم يمسها فيه فإن ذلك يكون دليلاً قوياً على زهده فيها ونفوره منها، واحتمال التسرع والغضب والانفعال الشديد يكون بعيداً كسبب للطلاق بل يكون إذا وقع نتيجة تفكير متأن

وحساب دقيق وإرادة لا يشوبها مؤثرات طارئة.

* وأما من طلق زوجته وهى حائض أو فى طهر مسها فيه فإن الاحتمالات التى استبعدناها فى الحالة الأولى تكون متوافرة فى الحالة الثانية، وبالتالى فإن إرادة الزوج الذى يطلق زوجته قد تكون مشوبة بمؤثرات طارئة، واحتمال التسرع وعدم التروى يكون كبيراً .. والأسباب مفهومة.

وهناك سؤال يطرح نفسه .. هل يقع الطلاق إذا حدث والمرأة حائض أو فى طهر مسها فيه زوجها؟

والإجابة التى عليها الفتوى هذه الأيام أنه يقع ويسمى فى هذه الحالة طلاقًا بدعيًا، وليس سنيًا كما جاء الأمر فى الآية، ومع وقوعه يأثم الزوج ويعاقب من الله.

* فإذا كان الطلاق رجعيًا لا تخرج الزوجة من بيتها خلال فترة العدة، والتفت إلى نص الآية ﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ .. فالبيت لازال بيتها لأنها لازالت على ذمة زوجها ويستطيع أن يراجعها دون عقد أو مهر جديدين، وإذا مات زوجها خلال فترة العدة .. فإنها ترثه.

والنهى عن الخروج له استثناء ورد فى الآية ﴿ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ... ﴾ فإذا حدث من الزوجة ما تشير إليه الآية فإنها تخرج من بيت زوجها لأنه سوف يترتب على وقوع الفاحشة المبينة أن يتلاعن الزوجان، فإذا اعترفت الزوجة أقيم عليها الحد وهو الرجم حتى الموت، وإذا أنكرت تم التفريق بينها وبين زوجها تفريقًا أبديًا سواء كانت زوجة أو مطلقة طلاقًا رجعيًا عندما أتت الفاحشة المبينة.

* ونعود إلى النهى عن الخروج بعد أن أوضحنا الاستثناء حيث يؤكد الله ـ تعالى ـ على ضرورة الالتزام بذلك .. فهى حدوده التى لا ينبغى لأحد من المؤمنين ـ إن كان مؤمنًا بالله واليوم الآخر ـ أن يتجاوزها أو يتعداها، ومن تعداها يكون قد ظلم نفسه لأن تطبيق هذا النهى له حكمة وله بركة سوف نوضحها بعد قليل ولأنه يكون

قد عرَّض نفسه لغضب الله ـ سبحانه ـ وعقابه .. وكان الأولى به أن يقف عند حدود الله ولا يتعداها.

أما عن حكمة هذا النهي فيشير الله إليها في الآية بقوله تعالى: ﴿ ... لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ .. فما الأمر الذى قد يحدثه الله بعد ذلك ؟

لا يغيب هذا الأمر عن نظر الأزواج، فالزوج الذى طلق زوجته طلاقًا سنيًا أو بدعيًا وكان رجعيًا ولم تخرج من بيتها ولم يُخرجها هو بدوره، وانفصل كل واحد منهما بفراش مستقل عن الآخر داخل البيت، فلابد أن أحدهما سوف يحتاج إلى الآخر في شأن من الشئون فيتكلمان ويتعاملان ويكون الغضب ـ الذى غالبًا ما يكون سببًا للطلاق فى كثير من الأحوال ـ بدأ يقل تدريجيًا وفى نفس الوقت يكون شوق كل منهما للآخر بدأ يزيد تدريجيًا. ويسعى أحدهما أو كلاهما للآخر ملاطفًا أو معتذراً عما بدر منه، فإذا لمس الزوج زوجته وهو يلاطفها فإنه يكون بمجرد لمسها قد راجعها فى رأى بعض الفقهاء، أما إذا قَبَّلها أو جامعها فإن رجعتها إليه تكون قد تأكدت حتى ولو لم يتلفظ بألفاظ الرجعة فإنما الأعمال بالنيات .. والنية أصبحت واضحة بلاشك.

وهذه هى حكمة الله البالغة فى نهيه عن خروج الزوجة المطلقة طلاقًا رجعيًا من بيتها خلال فترة العدة .. وسبحان من هذا نظامه، وسبحان من هذا كلامه.

* يبقى من الآية الأولى من سورة الطلاق قوله تعالى : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ ..

فإن عدة المرأة التى تحيض ثلاثة قروء .. أى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار، وعدة المرأة التى لا تحيض لمرض أو لكبر السن ثلاثة أشهر ﴿ وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ . أما المرأة الحامل فعدتها أن تضع حملها .. ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... ﴾ وهذا الإحصاء تؤتمن عليه الزوجة فهى فيه أميرة نفسها، ولذلك احتاج الأمر إلى الإشارة إلى تقوى الله فى الآية التى تتضمن هذه الأحكام، وفى كل الأحكام الواردة

في السورة ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ... ﴾.

[الطلاق: ٢، ٣].

* وبالإضافة إلى الإشارة إلى التقوى التى تشيع فى جو السورة كله .. فاستمع أيضاً إلى ما قاله الله ـ تعالى ـ بين ثنايا أحكامها :

* ﴿ ... وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ... ﴾ [الطلاق: ٦].

* ﴿ ... وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ... ﴾ [الطلاق: ٦].

* ﴿ ... لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾.

[الطلاق: ٦].

وهذه الإشارات الربانية بين ثنايا الأحكام لا يلتفت إليها إلا تقى، والتقى ينزلها من نفسه منازل الأحكام ذاتها .. لذلك كان لابد أن يشيع جو التذكير بالتقوى فى السورة كما سبق القول وبدون التقوى لن تطبق هذه الأحكام على الوجه الذى يرضى الله ويحقق حكمته من فرضها.

وخير ختام لهذا الحشد من الإشارات والتنبيهات والتحذيرات التى وردت فى سورة الطلاق أن ننقل هذه السطور أو هذه الانفعالات لصاحب الظلال .. رحمه الله :

«يقرأ (القارئ) هذا كله تعقيبًا على أحكام الطلاق. و يجد سورة كاملة فى القرآن من هذا الطراز، كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان فى المجال الكونى والنفسى. وهى حالة تَهَدُّم لا حالة بناء، وحالة انتهاء لا حالة إنشاء .. لأسرة .. لا لدولة .. وهى توقع فى الحس أنها أضخم من إنشاء دولة علام يدل هذا؟ إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشرى على وجه التأكيد. حتى لو لم تكن

هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة!؟.

إنها كلمات من نور لمسلم أضاء الله له بصيرته فأيقن بحقائق الإيمان، وعدالة النظام، وحكمة التشريع، وسمو الدين، فأراد أن ينقل إلينا هذا اليقين فيكون بذلك أهدى إلينا نعمة من أعظم النعم مصداقًا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

«سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتى أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة» أخرجه الترمذى وابن حبان من حديث أبى بكر الصديق ﷺ.



(٤٨) آل داود . وقوم سبأ

اعملوا آل داود شكرا

وقليل من عبادي الشكور

يقول تعالى فى سورة سبأ :

* ﴿ ... اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

لولا هذه الآية ما علمنا أن الشكر عمل،وليس مجرد قول. أما أن قليلاً من العباد شكور فهو معنى متكرر كثيراً فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وبتعبير آخر قوله تعالى: ﴿ ... فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩].

فما هو الشكر :

إن المعنى اللغوى لهذه الكلمة يساعدنا كثيراً على فهم معنى الشكر.

تقول العرب: «شكرت الناقة» .. أى امتلأ ضرعها حتى تساقط منه اللبن دون حلب، و«شكرت البئر» .. أى امتلأت حتى فاض على جانبيها الماء وأتيح لطالبه دون تدلية الدلو.

فإذا طبقنا هذا المعنى اللغوى المادى على الشكر المعنوى نجد أن المعنى يتطابق. فالعبد عندما يمتلئ بما أفاض الله عليه من النعم ثم تفيض هذه النعم عن حاجته .. عليه أن يفيض على عباده من هذا الفائض .. فإن فعل فقد شكر الله على نعمائه.

ونعم الله ليست أموالاً وأشياءً مادية فقط توفى حاجة الإنسان أو تفيض عنها، ولكنها تشمل أيضًا نعمًا ليست مادية مثل أنواع المعارف الدينية والدنيوية، وأنواع المواهب والملكات. فمن أفاض الله عليه بنعمة المال أو أى متاع من متاع الدنيا فعليه أن يفيض ببعضه على من ليس عنده مصداقًا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «من كان معه فضل ظهر (دابة)فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» يقول أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه وهو راوى الحديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل (ما فاض عن الحاجة) - رواه مسلم.

ومن أفاض الله ـ تعالى ـ عليه بنعمة العلم عليه أن يعمل وينتفع به، وعليه أيضاً أن يُعلّم غيره ويفيض عليه من علمه فيكون بذلك من خير الناس مصداقًا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلم العلم وعلّمه»، «وخيركم من تعلم القرآن وعلمه» رواه الستة وغيرهم.

وطبقًا لهذا المفهوم للشكر .. كان أمر الله لآل داود أن يعملوا شكراً. وقد أمرهم بذلك بعد أن عدد لهم ألوان النعم التى أفاض بها عليهم حتى امتلئوا بها وفاضت عن حاجتهم ..

* ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٣].

ومما يؤكد معنى أن الشكر عمل قول الرسول عليه الصلاة والسلام رداً على السيدة عائشة رضي الله عنها عندما رأته يقوم الليل حتى تتفطر قدماه فقالت له: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر (تريد منه أن يهوّن على نفسه) فقال لها: «أفلا أكون عبداً شكوراً» رواه البخارى ومسلم. ولم يقل لها أفلا أكون عبداً حامداً.

* ولكن ما الفرق بين الحمد والشكر ؟ سؤال يطرح نفسه.

لقد أثبتنا أن الشكر عمل، أما الحمد فهو قول مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١].

ومن أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» متفق عليه.

وحمد الله بالقول لا يقل أهمية عن شكر الله بالعمل .. فكلاهما تعبير عن امتنان العبد لنعم الله التى لا تعد ولا تحصى.

ويكفى لإبراز هذه الأهمية التذكير بأن كتاب الله يبدأ بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١]، وأن آخر دعوى المؤمنين فى الجنة: ﴿... وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وأن اسم الرسول عليه الصلاة والسلام مشتق من الحمد فهو محمد، وأحمد، وهو حامل لواء الحمد يوم القيامة.

ونسأل الله سبحانه وتعالى باسميه الحميد والشكور أن يجعلنا من الحامدين بالقول والشاكرين بالعمل، وأن يجعل آخر دعوانا ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

* وفى مقابل هذه الصورة الوضيئة للشكر والشاكرين، نجد صورة أخرى قاتمة معتمة للبطر والجحود لنعمة الله .. وبضدها تتميز الأشياء.

فى مقابل آل داود الشاكرين نجد قوم سبأ المتبطرين الجاحدين .. وهذه هى طريقة القرآن الكريم فى المقابلة بين الأضداد حتى تصل المعانى المقصودة واضحة جلية لقارئ القرآن .. والسعيد من وعظ بغيره.

* فماذا عن قوم سبأ ؟ وماذا قال عنهم القرآن الكريم ؟

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ

مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

[سبأ: ١٥ - ٢١].

وسبأ كانوا قوماً يسكنون أرض اليمن، وكانت لهم جنتان عن اليمين والشمال .. دليلاً على وفرة الخير، فهم مرزوقون من الرازق برزق، أما عن الرازق فهو رب غفور، وأما عن الرزق فهو بلدة طيبة تطيب فيها الثمار، وأما عن المرزوقين فهم جاحدون للنعمة ومتبطرون، ويُقبحون هذه الصورة الجميلة التى رسمها الله عن أحوالهم لكى يبدو جحودهم وبطرهم واضحاً ومقبحاً.

وعاجلنا الله ـ تعالى ـ بذكر جزاء إعراضهم وبطرهم بأن أرسل عليهم سيلاً عارماً دمر وخرب جنتيهم الطيبة الثمار وبدّلهما بجنتين ثمارهما ردىء (الخمط)، وشجر لا ثمر له (الأثل)، وشجر النبق الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع (السدر) .. وهذا جزاء كل من يتبطر ويجحد نعمة الله.

لقد جاءت آيات الجزاء كجملة اعتراضية، لأن الله ـ تعالى ـ استطرد بعد ذلك فى سرد ألوان النعيم التى كانوا ينعمون بها قبل الدمار الذى لحق بهم. فقد كانوا يحملون الثمار التى تفيض عنهم فى رحلة تجارة إلى الشام وهى القرى التى بارك الله فيها لأنها مبعث الأنبياء ومهبط الرسالات. وفى الطريق الذى بينهم وبين الشام قرى ظاهرة يستريحون فيها من عناء السفر وقد أمّن الله لهم طريقهم من غارات قطاع الطرق بوجود هذه القرى فلا يشعرون بطول السفر ويأمنون من الخوف.

فهل شكروا الله ـ الشكور ـ على ذلك بعملهم، وهل حمدوا الله ـ الحميد ـ بقولهم ؟

إن طبيعة الجاحد لنعمة الله طبيعة نكدة، ونفسه ليست سوية فيصدر عنها ما لا يُعقل ولا يتوقع .. فبدلاً من أن يشكروا الله ويحمدوه على كل هذا النعيم والتيسير

والأمن .. سألوا الله ـ تعالى ـ أن يباعد بين أسفارهم لكى تكون أكثر مشقة، فلم يرتضوا الراحة وطلبوا المشقة. ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه وطلب لها الهلاك بدلاً من النجاة والأمان، فما كان من الله ـ تعالى ـ إلا أن أرسل عليهم هذا السيل العارم، وما قصه الله علينا فى الآيات التى ذكرناها آنفًا، وجعل ما حدث لهم أحاديث تسير بها الركبان عن عاقبة من يجحد نعمة الله فأصابه البطر، ومزقهم الله كل ممزق .. إما فى أرضهم، وإما بتشتيتهم فى الأرض حتى يباعد بين أسفارهم كما طلبوا لأنفسهم .. وجعل قصتهم آية لكل صبار شكور لكى يحمد الله على نعمة الصبر والشكر التى حُرم منها قوم سبأ .. فكانت عاقبتهم ما قصه الله ـ تعالى ـ علينا.

* إن قوم سبأ وأمثالهم من المتبطرين والجاحدين لنعمة الله هم الذين يتساقطون فى الشباك التى نصبها لهم إبليس، وهم الذين تحقق بهم الوعد الذى قطعه على نفسه أمام الله عندما قال: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وحتى لا يظن أحد أنهم كانوا مقهورين على اتباع إبليس .. قال تعالى: ﴿ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. لإثبات أنهم اختاروا لأنفسهم طريق الكفر والجحود واتباع إبليس، لأن هناك فريقًا منهم رفضوا السير فى هذا الطريق، ولم يستجيبوا لدعوة إبليس واستجابوا لدعوة الله ـ تعالى ـ فآمنوا وشكروا وحمدوا له نعمته عليهم.

ويؤكد الله تلك الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾.

وإبليس نفسه سوف يؤكد لهم هذه الحقيقة يوم القيامة حينما يقول لهم: ﴿ ... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ... ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

بعد هذا العرض القرآنى الواضح والجلى .. اتضحت لنا المقابلة بين شكر الشاكرين، وكفر الكافرين.

وما القصص القرآنى إلا لخدمة الهدف الأسمى، والغرض الأرفع، وإثبات الحقيقة الكبرى التى لا مراء فيها، والنبأ العظيم الذى لا جدال فيه، واليوم الآخر الذى لا ريب فيه .. لذلك ختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

فسوف يحفظ الله للشاكرين شكرهم، ويحفظ للكافرين كفرهم .. حتى يكون الحساب جزاءً وفاقًا .. فالجنة للشاكرين، والنار للكافرين.

اللهم أعنَّا على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك.

.. آمين .



(٤٩) سليمان عليه السلام

نموذج باهر للشكر والشاكرين

ومثل يحتذى به للتواضع والمتواضعين

يقول تعالى فى سورة النمل :

* ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٧ - ١٩].

* سليمان عليه السلام .. كان نبياً ورسولاً وملكاً، وكذلك كان أبوه داود عليه السلام ومُلْك داود وسليمان لم يكن مُلْكًا عاديًا فكما جاء في سورة النمل على لسان سليمان عليه السلام قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦]. وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مثلما قال تعالى عن ذى القرنين: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥].

وقد ذكر مُلْكَ داود وسليمان عليهما السلام فى سور أخرى من القرآن الكريم نكتفى منها بقوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥] فاستجاب الله ـ تعالى ـ لدعائه ووهبه ملكاً لم يكن لأحد من بعده ويُفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٣٦ - ٤٠]. ونعتقد أن هذا المُلْك لم يؤته أيضًا أحد من قبل سليمان عليه السلام .. إذاً فهو مَلِكٌ كان له مُلْكٌ لا نظير له من قبله ولا من بعده.

* إن هذا التعريف المقتضب لمُلْك سليمان عليه السلام كان لازمًا للتمهيد للحديث عن شكره وتواضعه .. فالشكر والتواضع لا يُلتفت إليهما ممن كان عارياً من المال أو السلطان أو الجاه، ولكن ينظر إليهما ممن كان له بعضٌ من ملك سليمان

عليه السلام فيُحمد له حيث إن الجحود والاستكبار كثيراً ما نجدهما من صفات أصحاب المال والسلطان.

* **أما عن سليمان عليه السلام .. النبى والرسول والملك .. فهو نموذج باهر للشكر والشاكرين ومثل يحتذى للتواضع والمتواضعين، ولا غرابة فى ذلك فهو إلى جانب ملكه .. كان رسولاً نبياً.**

والنموذج والمثل يوضحهما تلك الآيات التى صدرنا بها هذا الموضوع وتحكى لنا طرفًا من ملك سليمان عليه السلام. فقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطير فهم مجموعون له لا يتفلت منهم أحد ولا يخرج عن المهمة التى أوكلت إليه، ولا يشذ عن الصف. وبينما هم كذلك حدثت آية من آيات ملكه العريض، وآية من آيات علمه الواسع والذى أشار إليه الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علمًا ..﴾. والإشارة إلى هذا العلم دون تعريف يوحى باتساعه فقد استمع إلى نملة لها سلطة الأمر والنهى فهى قائدة لوادى النمل. استمع إليها وهى تأمر النمل أن يدخلوا مساكنهم حتى لا يحطمنهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. لقد عرفت النملة أن هذا سليمان عليه السلام وأن هؤلاء جنوده وأنهم سوف يمرون على واديهم، فإذا حدث ذلك فسوف يتحطم النمل تحت أقدام الجنود وهم لا يشعرون بذلك، أو لا يشعرون بكلامها إلى النمل وبالتالى لا يتسنى لهم تفادى تحطيمه أما سليمان عليه السلام فسوف يستمع إلى قولها ويأمر جنوده بتفادى السير فوق وادى النمل.

* يتبسم سليمان عليه السلام ضاحكاً من قولها .. فما الذى أضحكه؟

الذى أضحكه إما انزعاج النملة مخافة التحطيم لها ولساكنى وادى النمل وما حدث من تحركات بعد ذلك بعد الأمر بالدخول إلى المساكن، وإما مدى حرص النملة على النمل، كحرص القائد على رعيته، وإما شهادتها له بالرحمة والعدل حيث أنه لو شعر بالنمل لتجنب تحطيمه،، ولو تحطم النمل أو بعضه فسوف يكون ذلك لعدم شعور سليمان عليه السلام وجنوده بالنمل .. والله أعلم.

* بعد ذلك تتجلى لنا آية شكر سليمان عليه السلام وتواضعه حيث قال: ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾.

يا لها من كلمات من نور تعلن عن أدب النبوة، وهدى المهتدين، وخلق المرسلين الذين اصطفاهم رب العالمين. لقد نسب هذه النعمة للمنعم سبحانه وتعالى فحق عليه شكره بل إنه دعا الله عز وجل أن يجعله دائم الشكر له وممنوعًا من الغفلة عن الشكر على نعمه التى لا تحصى ولا تعد والتى اختصه منها بالكثير دون غيره من عباده الصالحين، واستطرد فى الدعاء فطلب من الله ـ تعالى ـ أن يعينه على العمل الصالح الذى يقبله ويرضيه، فكم من أعمال تبدو لأصحابها أنها حسنة ولكنها ليست كذلك عند الله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨]، وكم من أعمال حسنة فعلاً ولكنها لا ترضى الله تعالى لأنها لم يُقصد بها وجهه فلا تُقبل عنده ولا يؤجر صاحبها عليها .. لذلك قال سليمان عليه السلام ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾، ثم يختم دعاءه بأن يدخله فى زمرة عباده الصالحين.

يا له من تواضع من نبى ورسول وملك آتاه الله ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده ويدعو الله أن يجعله واحدًا من عباده الصالحين وأن يحشره فى زمرتهم برحمته لا بعمله .. هؤلاء الذين وعدهم الله بحسن الثواب، وجنات تجرى من تحتها الأنهار، ورضوان من الله أكبر مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢]

ولم ينس وهو يدعو لنفسه أن يذكر والديه وبنعمة الله عليهما وقد نال منها فى حياتهما وامتدت إليه من بعدهما وأعظمها نعمة النبوة والرسالة عن أبيه داود عليه السلام.

وحيث أنه بضدها تتميز الأشياء .. وتتضح أكثر، فإن عظمة شكر وتواضع سليمان عليه السلام تتضح أكثر إذا قارناها بوصف للإنسان كما جاء فى القرآن

الكريم ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) ﴾ [العلق: ٦ - ٨]، وبإنسان عيّنه الله تعالى وجعله نموذجًا للجحود والاستكبار .. ألا وهو قارون الذى آتاه الله تعالى - علمًا غزيرًا ومالاً وفيرًا فماذا قال ردًا على نصيحة قومه؟ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ... ﴾ [القصص: ٧٨]. فماذا كانت عاقبته؟ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ... ﴾ [القصص: ٨١].

* ويبهرنا سليمان عليه السلام بنموذج آخر من نماذج الشكر فى نفس السورة .. سورة النمل فقد طلب من أهل مجلسه وهم من ذوى الشأن من رعيته أن يأتوه بعرش بلقيس ملكة سبأ التى أخبره الهدهد عنها وعن عرشها وعن قومها .. ولنترك آيات الله البينات تخبرنا عما حديث ..

* ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠].

* وقبل أن نتكلم عن شكر سليمان عليه السلام، فإننا نلحظ فى الآيات مظاهر قوة ملكه، وتنوع هذه القوى وتنافس الملأ من رعيته على تلبية طلباته وتنفيذ أوامره. ففى مجلسه كان هذا العفريت من الجن الذى عرض أن يأتى بالعرش قبل أن ينفض المجلس، ونافسه فى ذلك هذا العالم بالكتاب فعرض أن يأتيه بالعرش قبل أن يرتد إليه طرفه أى فى «لا زمن» .. والنص القرآنى يأتى متوافقًا مع هذا العرض المذهل حيث نفاجأ باستقرار العرش عند سليمان عليه السلام قبل أن يبت فى أى العرضين أفضل .. فالأفضلية واضحة والبت يحتاج إلى زمن مهما قل - والعرش قد حضر فى «لا زمن».

* ولا نريد أن نتكلم عن هذه القدرات الخارقة وكيف حضر العرش فليس هذا هو موضوعنا ولكن ما يعنينا هو الموقف الباهر لسليمان عليه السلام الذى لو حدث

مع غيره من الملوك لاختال وافتخر ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، كذلك يقول تعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧]، وكذلك يقول تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]

* لقد نسب سليمان عليه السلام الفضل لصاحب الفضل، كما نسب قبلها النعمة للمنعم بعد استماعه للنملة، وعرف أن هذا إلى جانب كونه فضلاً فهو ابتلاء له بالخير والفضل ليرى هل يشكر الفضل أم يكفره؟

حقًا .. إن أشد الناس بلاءً الأنبياء كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه» رواه ابن كثير فى تفسيره - سورة الأنبياء -.

فلا يصمد فى مثل هذه المواقف وينجو من الاختيال والفخر إلا أولو العزم وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل. وقد اجتاز سليمان عليه السلام الاختبار وشكر الله عز وجل بما هو أهله ولم يكتف بذلك بل إنه توجه إلى أهل مجلسه وإلينا بعظة بالغة وسنة ماضية، وهى قوله تعالى: ﴿ ... وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾. وعلى نمط هذه الآية يقول تعالى:

* ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

[النساء: ١١١].

* ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾

[الأنعام: ١٠٤].

* ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

[الإسراء: ١٥].

* ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾.

[العنكبوت: ٦].

* ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

[لقمان: ١٢].

* ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾. [فاطر: ١٨].

* ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾.

[فصلت: ٤٦]، [الجاثية: ١٥].

* ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾.

[محمد: ٣٨].

* ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ... ﴾ [الفتح: ١٠].

لقد ذكرنا هذه الآيات لنثبت هذه القاعدة المضطردة، وهذا القانون القرآنى فى أحواله المختلفة .. الشكر والكفر، البصر والعمى، الهدى والضلال، الصلاح والسوء، وغير ذلك من الأحوال، فكلها تعود على أصحابها، أما الله تعالى فإنه غنى كريم حميد. غنى عن العالمين، وأكرم من أن يحتاج لمخلوقاته، وحميد فى ذاته بلا حاجة لحمد الحامدين.

ونرى أن هذه الآيات، هى خير ختام للنموذج الباهر للشكر والشاكرين، والمثل الذى يحتذى للتواضع والمتواضعين .. سليمان عليه السلام.

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

.. آمين.

(٥٠) يا من أمام دعوة الحق تتردد

تعال واستمع إلى موعظة الهدهد

لعل قلبك ينشرح وغشاوة عينيك تتبدد

* وقف سليمان عليه السلام يستعرض جنوده من الجن والإنس والطير وغير ذلك من الجنود من مختلف الأجناس ويتفقد الحاضر من الغائب منهم، فلم يقع نظره على أحد الهداهد .. فتساءل .. هل الهدهد حاضر وهو لا يراه أم هو غائب وبالتالى فهو لا يراه ؟ وهذا التساؤل للتحوط حتى لا يجزم بغيابه فقد يكون حاضراً وهو لا يراه. فلما تبين له غيابه وكان ينبغى أن يكون حاضراً .. توعده قائلا: ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ٢١]. وياله من ملك عادل وحازم فى نفس الوقت .. فقد تأكد أولاً من غيابه وأعلن على الحاضرين عقوبة من يغيب من الجند دون إذن مسبق وهذه العقوبة تتراوح ما بين العذاب الشديد والذبح، وذلك حسب فداحة أثر الغياب، ولا يعفى من توقيع العقوبة سوى تقديم عذر مقبول مقروناً بالأدلة الواضحة التى لا يتطرق إليها شك.

ولم يمض وقت طويل حتى حضر الهدهد وألقى بيانه .. ولنفسح المجال لهذا الهدهد العجيب ولنستمع إلى ما يقول :

* ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢].

ويقف الإنسان مشدوهاً أمام ما افتتح به الهدهد بيانه .. فقد تكلم بلهجة الواثق من نفسه فى مواجهة من ؟ فى مواجهة نبى ورسول وملك آتاه الله ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده وفى حضور حشد من الجنود من كل جنس، ولا ننسى أن المتكلم هو هدهد ضئيل الحجم، وضعيف الخلْق، ولكنه قوى بحجته ومنطقه، فأخبر سليمان عليه السلام بأنه أحاط بما لا يحيط به .. يا لها من جرأة فى مخاطبة الملوك الذين لا يُسلِّمون ـ عادة ـ بأن أحداً من الرعية يعرف ما لا يعرفونه .. فإن سلَّم ملك بذلك بينه وبين نفسه فإنه لا يسمح لأحد بأن يُصرح بذلك فى مواجهته. ولكن علينا ألا نتعجب من منطق الهدهد إذا علمنا أن مملكة سليمان عليه السلام .. هى مملكة الحق والعدل، والقوة والحزم، والعزة والكرامة.

إنه مُلْك مأذون به من الله الذى يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، إنه مُلْك بالله ولله وليس ملكاً مغتصباً أو عضوضاً كشأن كثير من الممالك.

فما الذى جاء به الهدهد لسليمان عليه السلام ؟!

جاء له من سبأ بنبأ يقين **اما عن سبا** .. فهى مملكة فى اليمن كان لها حضارة عريقة حتى أنهم عرفوا فى هذا الزمن السحيق بناء السدود لتنظيم الرى والزراعة فبنوا سد مأرب، وقص الله ـ تعالى ـ علينا بعضًا من أحوالهم فى سورة من سور القرآن سميت باسمهم هى سورة سبأ.

اما عن النبا :

فلنستمع إليه من مقالة الهدهد :

* ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤].

* لقد طار الهدهد فوق أرض عرف أنها مملكة، وأن هذه المملكة تسمى سبأ، وأن من يتولى المُلْك على هذه المملكة امرأة، وأن هذه الملكة أوتيت من كل أسباب الملك ما يجعلها تحكم قبضتها على الرعية، وأوتيت من الثراء ما يجعلها على رأس دولة قوية يهابها من حولها ويخطبون ودها .. وفوق كل ذلك لها عرش عظيم.

مما سبق يتضح لنا أن هذا الهدهد العجيب يعرف المرأة من الرجل، ويعرف الملكة من الرعية، ويعرف أركان الملك وأسباب القوة، ويعرف أن لكل ملك عرش هو رمز للمُلْك، ويميز الملك عن حاشيته، وأن هذه الملكة لها عرش عظيم يدل على مُلْك عظيم .. لقد رأى كل ذلك بعين بصره .. ولكن الأعجب هو ما رآه بعين بصيرته .. فقد رأى أن هؤلاء القوم يسجدون للشمس وهى مخلوقة مثلهم، وكان الأولى بهم أن يسجدوا للخالق .. وهو الله رب العالمين .. فما الذى قادهم إلى هذا الضلال ؟

لقد عرف الهدهد أنه الشيطان الذى زين لهم هذه العبادة الباطلة فرأوها حسنة

مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ... ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وبهذا التزيين للضلال، فقد صدهم الشيطان عن سبيل الله وصراطه المستقيم .. فضلوا ولم يهتدوا، وإذا كان هذا هو الضلال وأسبابه .. فما هو الهدى والطريق إليه ؟

يتحول منطق الهدهد من ذكر ما رآه بعين البصر والبصيرة .. إلى إلقاء موعظة على ضوء معرفته بالله ـ جل وعلا ـ ولنتابع معه هذه الموعظة.

* ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾.

[النمل: ٢٥ – ٢٦].

* لم يكتف الهدهد بذكر النبأ عن أحوال سبأ، ولكنه تحول إلى الموعظة التى تثبت لنا أنه مؤمن لنفسه وواعظ وناصح لغيره.

لقد عرف الهدهد أن السجود تعظيم وأن التعظيم لا يكون إلا لله عز وجل، فكيف يسجد هؤلاء للشمس وهى مخلوقة مثلهم وسجود المخلوقين لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى مصداقًا لقوله جل وعلا: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ... ﴾ [الحج: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

لقد اهتدى هذا الهدهد بالحنيفية السمحاء والحجة البالغة التى أقامها خليل الرحمن على قومه وأعلنها مدوية بعد أن رأى الكوكب ثم القمر ثم الشمس .. فماذا قال ؟

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٧٩].

ونعود إلى الهدهد الذى بدأ موعظته بهذه الحقيقة الأولية من حقائق العقيدة وهى أن السجود والخضوع والخشوع لله وحده الذى أنعم على ملكة سبأ وقومها بهذا الملك وهذا الثراء وهذه القوة وهذا العرش العظيم. وعبر عن ذلك بمنطق الهداهد التى خلق الله لها القدرة على رؤية الدود وهو يسرح فى باطن الأرض ولا يراه غيره من الطيور والمخلوقات فينقض على هذا الدود فيخرجه من باطن الأرض ليأكله ويكف ضرره عن الذين يفلحون الأرض ولذلك سمى (صديق الفلاح).

لقد عبر الهدهد بما يدور فى خلده واصطبغ تعبيره بذاتيته .. فهؤلاء القوم أولى بهم أن يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون.

لقد وصف الله ـ تعالى ـ بما يطيق عقله بوصف صحيح ختمه بشهادة التوحيد ـ الله لا إله إلا هو ـ ولم ينس أنه سبق له أن وصف عرش ملكة سبأ بأنه عرش عظيم .. فأثبت لله أنه هو رب العرش العظيم .. فهو واهب العظمة لكل عظيم .. وعظمته وعظمة عرشه عظمة حقيقية وذاتية ودائمة لا يصح مقارنتها بأى عرش من عروش الدنيا مهما بدت عظمته فهو موهوب من الواهب فضلاً عن أنه زائل هو ومن يجلس فوقه .. فالدوام لله وحده ومن لم يقر فى الدنيا بهذه الحقيقة الأزلية، فسوف يقر بها فى الآخرة ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

فالملك لله ـ جل وعلا ـ فى الدنيا والآخرة .. وما ملوك الدنيا إلا مستخلفون

ومبتلون بملكهم، وسوف يحاسبون عليه يوم القيامة .. حافظوا أم ضيعوا، أصلحوا أم أفسدوا، أقاموا العدل أم ظلموا.

* وبعد أن انتهى بيان الهدهد بما تضمنه من معلومات وعظات انتظر حتى يحكم سليمان عليه السلام فى شأنه .. أيقبل عذره أم يرفضه ؟

فقال سليمان عليه السلام :

* ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل: ٢٧، ٢٨].

إذا تأملنا ما قاله سليمان عليه السلام فإنه يعنى قبولاً مبدئيًا لعذر الهدهد وتكليفه بمهمة جديدة سوف يتضح بعدها أصدق أم كان من الكاذبين.

وما حدث بعد ذلك يدل على أن الهدهد كان من الصادقين.

ويبقى بعد ذلك سؤال .. هل كان ذهاب الهدهد إلى مملكة سبأ بتكليف من سليمان عليه السلام ؟ وهل غياب الهدهد كان لتأخره فى أداء هدا التكليف عن الوقت المحدد للعودة ؟ أم كان مكلفًا بمهمة أخرى فصادفه ما رأى وكان سببًا فى تأخيره عن ميعاد عودته ؟ أم كان فى مهمة استطلاعية دورية أو فى جولة حرة قادته للطيران فوق مملكة سبأ دون قصد منه ؟

إن النص القرآن لا يجيب بشكل قاطع على هذه الأسئلة، بل إنه يفتح الباب لكل هذه الاحتمالات، وما يهمنا فى هذا الصدد أننا قد عرفنا ..

* كيف كانت تدار الأمور فى مملكة سليمان عليه السلام ؟

* وكيف أنها مملكة قائمة على الحق والعدل، والقوة والحزم، والعزة والكرامة.

* وكيف أن بطل هذه القصة .. طائر صغير، وجندى من الجنود .. ألا وهو الهدهد ؟

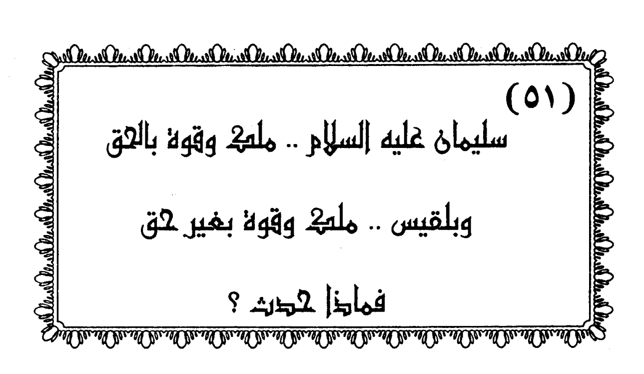
* وكيف أننا علمنا وتعلمنا الكثير من هذا الهدهد العجيب.

* وكيف أن هذا الهدهد كان سببًا فى هداية ملكة سبأ وإسلامها وقومها لله تعالى.

ولهذا الأمر الأخير .. حديث آخر.

سلام عليك أيها الهدهد، وسلام على الملك الذى أنت من رعيته وجنده، وسبحان من علمك وهداك، وسبحانه من خلق فسوى وقدر فهدى.





(٥١)

سليمان عليه السلام .. ملك وقوة بالحق

وبلقيس .. ملك وقوة بغير حق

فماذا حدث ؟



* إن ثراء المعانى فى هذه الآيات البينات من سورة النمل عن سليمان عليه السلام تجعلنا نتوقف ونتأمل، بل ونطيل التوقف والتأمل لعلنا نستوعب هذه المعانى ونهتدى بهديها ـ وقد سبق لنا أن توقفنا مع سليمان عليه السلام كنموذج للشكر والشاكرين، ومثل يحتذى للتواضع والمتواضعين، كما توقفنا معه فى موقفه مع الهدهد وما جاء به من معلومات عن ملكة سبأ، والدرس الذى ألقاه علينا عن العقيدة الصحيحة وحقيقة التوحيد.

والآن .. نتوقف مع سليمان عليه السلام الذى يُمثل المُلْك والقوة بالحق فضلاً عن النبوة والرسالة، وقصته مع بلقيس ملكة سبأ .. التى تمثل المُلْك والقوة بغير حق.

إن هذه القصة تبدأ مع نهاية قصة سليمان عليه السلام والهدهد .. لقد انتهت مهمة الهدهد عند إلقاء الرسالة التى كلفه سليمان عليه السلام بتوصيلها إلى ملكة سبأ .. فماذا حدث ؟

* ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾.

[النمل: ٢٩ - ٣١].

* إن ما يلفت النظر فى هذه الآيات وصف بلقيس للكتاب بأنه كريم .. فهل هذا الكرم شكلاً أم موضوعاً ؟

أما عن الشكل فلا نعرف عنه شيئاً ولكنه لن يزيد عما يتبادله الملوك من رسائل وأن يطيق الهدهد حمله.

أما عن الموضوع فهو معروف نصًا من الآية وهو مختصر اختصاراً مذهلاً بأسلوب البرقيات العاجلة. وهو كتاب كريم من وجهة نظر قارئ القرآن لأنه من نبى كريم ولأنه يبدأ بالبسملة ولأن الله ـ تعالى ـ وصفه بذلك. ولكن كيف يكون كريمًا من وجهة نظر بلقيس وهو مكتوب بلهجة آمرة ؟ كما أنه بمثابة طلب استدعاء، على أن يأتى المستدعى مسلمًا ومستسلمًا .. فأين الكرم فى كل هذا ؟

هل هو أدب الملوك فى استقبال رسائل الملوك ؟ أم هو أسلوب لطمأنة الرعية ؟

أم هو تأثير البسملة التى تضمنها الخطاب ويكون ذلك إرهاصًا بقرب إسلامها واستجابتها لدعوة سليمان عليه السلام أن تسلم معه لله رب العالمين ؟ .. الله أعلم.

* ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾.

[النمل: ٣٢ - ٣٣].

* لقد استشعرت بلقيس من اللهجة الآمرة والحاسمة والمختصرة لرسالة سليمان عليه السلام بالخطر الداهم عليها وعلى مملكتها وعرشها، فطلبت مشورة الملأ .. فهل كان ذلك دأبها مع الملأ ؟ أم ألجأتها لهجة الخطاب إلى طلب الفتوى والرأى على غير عادتها مثلما حدث من فرعون عندما جاءه موسى عليه السلام بالبينات من ربه ودار بينه وبين ملأه الحوار التالى :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) ﴾ [الأعراف: ١٠٩ - ١١٢].

إن الأمر يحتمل هذا وذاك. فما كان من الملأ إلا أن ردوا إليها الأمر مكتفين بالإشارة إلى قوة المملكة وشدة بأسهم فى الحرب.

* ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾.

[النمل: ٣٤ - ٣٥].

* ذكَّرتهم بلقيس بالقاعدة المعروفة أن الحرب إذا دارت سجالاً بين ملكين من ملوك الدنيا فلابد من منتصر ومهزوم، وأن المنتصر إذا دخل قرية المهزوم داس بجحافله على كل ما يصادفه وخرب ودمر كل أسباب القوة التى كانت للمهزوم، ثم يأخذ ما

بقى منها غنائم حرب، وما بقى من الجنود فإنه يأسر من يأسر ويقتل من يقتل، وأما من وراءهم من النساء والأولاد فهم سبايا ورقيق. وأخيراً يقع فى يده الملك المهزوم ويلقى على يديه كل ألوان الذلة والهوان .. وإن شاء قتله. ذكرتهم بكل ذلك حتى يتحسبوا للأمر حسابه.

ونلحظ فيما قالته أن هذه لهجة من انهزم داخليًا .. وبأى شيء ؟ برسالة مقتضبة ولكنها أحست أن من ورائها - كما قلنا - ملكاً قادراً.

وهذا يُذكّرنا برسائل خلفاء المسلمين فى عصور العزة الإسلامية رداً على مناوشات الأعداء أو تعرضهم لإيذاء المسلمين، منها ما قاله أحدهم لملك الأعداء: «لأبعثن إليك جيشًا أوله عندك وآخره عندى»، وتصور معى مدى الرعب الذى يصيب ملكاً تصله من ملك آخر مثل هذه الرسالة وخاصة إذا علم أنه قادر على إنفاذ تهديده.

وبعد أن قلّبت بلقيس الأمر على وجوهه المختلفة، أبلغت الملأ برأيها وهى أنها سوف ترسل إليهم بهدية وليس إلى سليمان عليه السلام فقط، وذلك كعادة الملوك الذين يرسلون الهدايا للملوك وللحاشية أيضًا لاستمالة أفرادها لما يريدون ولتأثيرهم المعروف على الملوك مثلما فعل رؤوس الشرك فى مكة مع النجاشى ملك الحبشة وبطارقته لاستعادة المسلمين الذين هاجروا إلى بلده بناءً على ما أشار به عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام .. فخاب مسعى وفدهم ورد إليهم النجاشى هداياهم على غير رضا البطارقة ورفض تسليم من لجأوا إلى حماه وعدله.

إن هذا الرأى الذى انتهت إليه بلقيس يدل إما على أنها لم تكن تعرف سليمان عليه السلام، أو تعرفه كمجرد ملك وليس نبيًا ورسولاً، وإما يدل على أنها أرادت اختبار هذا الملك هل يقبل هذه الرشوة الواضحة فيكون مثل كثيرين غيره أم لا يقبلها فيكون له شأن آخر غير الملوك الذين يقبلون هذه الرشاوى .. أو الهدايا إذا أردنا تجميل المعانى .. فماذا حدث ؟

* ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧].

* بهذا الرد من سليمان عليه السلام عرفت بلقيس أى نوع من الملوك يكون هذا الملك، وعرفت أن ما كانت تحذر منه أوشك على الوقوع، ولا مفر من تنفيذ ما جاء فى كتابه المقتضب .. بل والمسارعة إلى ذلك فهى لا تعرف ماذا يجرى على الجبهة الأخرى .. وتعالوا بنا نعرف الذى لن يتسنى لبلقيس أن تعرفه :

* ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠].

* لقد تأكد سليمان عليه السلام أن بلقيس وقومها آتية لا محالة، ولكنه أراد أن يفاجئها بأمر خارق حتى لا يطول الجدل بينها وبينه عند حضورها، فطلب من الملأ وهم جنود من جميع الأجناس ـ إنس وجن وطير وغير ذلك ـ أن يأتوا إليه بعرشها. فتقدم إليه أشد جنس الجن قوة وهو عفريت من الجن، وكان عرضه أن يأتى بعرش بلقيس قبل أن ينفض المجلس. ولكن كان هناك عرض آخر ممن عنده علم من الكتاب أن يأتى بالعرش قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه، أى الوقت الذى يستغرقه غمض العين، أى فى «لا زمن» تقريباً.

ومعنى ذلك أن العرش قد حضر قبل أن يرد عليه سليمان عليه السلام.

وقيل أن الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام نفسه، وأن خطابه كان للعفريت من الجن، فبالرغم من العرض المذهل الذى عرضه عليه العفريت فإن سليمان بعلمه من الكتاب قادر على أن يأتى بالعرش قبل أن يرتد للعفريت طرفه.

وقد يسأل سائل .. لماذا إذن طرح سليمان عليه السلام الأمر على الملأ ولديه هذه القدرة الفذة ؟

نقول ـ والله أعلم ـ: أنه طرح الأمر على الملأ استغلالاً للطاقات المتاحة واختباراً لها، ولاعتبارات الجندية .. وليس لعجز عن التصرف.

وقد سبق لنا أن تناولنا ما قاله سليمان عليه السلام عندما وجد العرش مستقراً عنده ونكتفى بذلك، ونتابع بعد ذلك ما حدث بعد حضور العرش وحضور صاحبة العرش .. بلقيس.

* ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

[النمل: ٤١ - ٤٣].

* لقد كان رد بلقيس على السؤال غاية في الذكاء والحصافة والدقة والثبات، فرغم هول المفاجأة لم يزد ردها عن ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ .. كلمتان لا أكثر تعبران عن حقيقة ما رأت وهو العرش بعد تنكيره أى تغيير بعض ملامحه .. فهو العرش بلا تنكير، وكأنه العرش بعد التنكير. أما عن الشق الثانى من الإجابة وقولها: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

فأى علم أتاها ؟ ومن قبل ماذا ؟ ومتى أسلمت هى وقومها ؟

(بترجيح الرأى الذى نسب هذا القول إليها).

وإجابة على هذه الأسئلة نقول ـ والله أعلم ـ: أن العلم الذى أتاها من قبل هو :

١ ـ خطاب سليمان عليه السلام الذى ألقاه إليها الهدهد.

٢ ـ رسالة سليمان عليه السلام الشفهية التى نقلها حامل هداياها إليه.

٣ ـ ما يتناقله الركبان عن سليمان عليه السلام ومملكته التى لابد أن يكون قد

ذاع صيتها فى البلاد .. وخاصة البلاد المجاورة.

وكل ذلك علم أتاها من سليمان عليه السلام وعنه قبل أن تحضر إليه، والذى جاء بها وقومها هو إيمانها بدعوته فأتوا إليه مسلمين كما طلب منهم فى رسالته الأولى مع الهدهد.

وحتى هذه اللحظة لم يلتق سليمان عليه السلام مع بلقيس .. فماذا حدث عند اللقاء وبعده ؟

* ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل: ٤٤].

* لقد قيل لبلقيس أهكذا عرشك، وقيل لها ادخلى الصرح .. وكل هذا تهيئة لها لمقابلة سليمان عليه السلام، ولم تتم المقابلة إلا عندما قال – وليس قيل التى تنسب للحجّاب على الأرجح –: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

وهذا الصرح كان مفاجأة أخرى لها بعد مفاجأة العرش .. وهو صرح صنع من الزجاج الشفاف وتجرى من تحته المياه ويُهيأ لمن ينظر إليه أنه سوف يخوض فى الماء .. مما اضطر بلقيس أن ترفع ملابسها عن الأرض مخافة أن تبتل بالماء فكشفت عن ساقيها .. عندئذ – فقط – ظهر سليمان عليه السلام وقال لها: أرسلى ملابسك كما كانت فلن تبتل لأنه صرح مصنوع من زجاج شفاف يكشف ما يجرى تحته من ماء.

فاجتمعت مفاجأة العرش مع مفاجأة الصرح مع رؤية سليمان عليه السلام فما كان منها إلا أن أسلمت مع سليمان – وليس لسليمان – لله رب العالمين، وتوحد العرشان على الحق وبالحق.



(٥٢)

أسئلة لم ترد إجابتها في التفاسير

تعال بنا نحاول الإجابة عليها

قد يعن لقارئ القرآن بعض الأسئلة فيرجع إلى التفاسير لكى يعرف الإجابة عليها فلا يجد لأن هذه الأسئلة إما أنها لم ترد على خاطر المفسر، وإما أنها ليست من بين اهتمامات المفسر الذى يهتم باللغة من حيث النحو والصرف والبلاغة، أو بالأحكام الشرعية، أو بسرد آراء من سبقوا .. وغير ذلك من الاهتمامات التى تغلب على طابع كل تفسير.

ولقد عنّت لى بعض الأسئلة ولم أجد لها إجابات فى التفاسير .. فحاولت الإجابة عليها مع الحذر الشديد حتى لا أقول فى القرآن برأيى،و عرضت هذه الإجابات على أهل الذكر فأقروها .. وشجعنى هذا الإقرار على عرضها عليك أيها القارئ الكريم لكى تعم الفائدة، وحتى لا أكون من الذين يكتمون ما آتاهم الله من فضله، وحتى أثير عندك الرغبة فى التأمل عند قراءة القرآن الكريم .. لعل الله يعطيك من فضله ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء: ٢٠].

تعال بنا أيها القارئ الكريم .. نطرح بعض الأسئلة وإجاباتها.

أولاً: هل كان لابد أن يكون الرجل أعمى فى سورة عبس؟

يقول تعالى فى أول سورة عبس:

* ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس: ١ - ١١].

وإجابة على السؤال الموضح بعاليه نقول .. والله أعلم:

١ ـ المؤمن كيِّس فَطِن، ولو كان السائل رجلاً مؤمنًا مبصراً لحتمت عليه كياسته وفطنته ـ وهو يرى الرسول عليه الصلاة والسلام منشغلاً بدعوة كبار القوم إلى الله ـ أن ينتظر حتى يفرغ الرسول عليه الصلاة والسلام من ذلك ثم يسأله عما يريد، ولكن الأعمى لم ير ذلك فسأل سؤاله وهو غير متهم بعدم الكياسة أو الفطنة لأنه أعمى ولكى تنزل هذه السورة ونتعلم مع الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الدرس القيم الذى تحتويه السورة.

٢ ـ الأعمى لم ير عبوس الرسول عليه الصلاة والسلام وإلا كان ذلك مدعاة لحزنه على نفسه، وحزنه على مضايقة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الدرجة التى جعلته يعبس فى وجهه وهو الحريص على أن يلقى أصحابه بوجه بشوش، ولو كان الرجل مبصراً لرأى هذا العبوس على وجه الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ ما حدث كان تطبيقًا عمليًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالرسول عليه الصلاة والسلام قد انصرف عن هذا الرجل المؤمن الفقير الأعمى الهين على الناس فى واقع الحال .. انصرف عنه إلى كرام الناس عند الناس فى هذا الزمان وهؤلاء وهؤلاء من المشركين. ولكن إذا كان معيار

الكرامة عند الناس يقوم على أوضاع دنيوية من جاه أو مال أو سلطان، فإن معيار الكرامة عند الله هو التقوى، وهو معيار ينبغى أن يلتزمه كل مؤمن بالله واليوم الآخر، فالتقوى هى الميزان الذى توزن به أقدار الناس فى الدنيا والآخرة، هو ميزان الله - تعالى - وينبغى أن يكون ميزان عباد الله، فالكريم عند الله هو الكريم عند المؤمنين، ومن لا كرامة له عند الله لا كرامة له عند المؤمنين، وعلى ذلك فإن الرجل المؤمن الفقير الأعمى هو الأكرم عند الله من هؤلاء المكذبين المعاندين ولو كانوا من كبار القوم بمعيار هذا الزمان وهو الأولى بالاهتمام. ولو كان هذا الرجل المؤمن مبصراً ومن كبار الصحابة مثل أبى بكر أو عمر ما اتضح لنا هذا الدرس الذى استوعبه الرسول عليه الصلاة والسلام وترجمه فى أفعاله وأقواله.

٤ - يروى لنا سهل بن سعد الساعدى ﷺ حديثًا يعتبر تطبيقًا للدرس الذى نتعلمه من هذه السورة قال: مر رجل على النبى عليه الصلاة والسلام فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك فى هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس هذا والله حَرِىٌّ إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يُشفَّع. فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك فى هذا؟ فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حَرِىٌّ إن خطب أن لا يُنكح وإن شفع أن لا يشفع. وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا». متفق عليه.

بأى ميزان وزن به الرسول عليه الصلاة والسلام الرجلين ؟

بميزان الله .. بميزان التقوى، وهو ميزان الكرامة عند الله .. وصدق رسول الله ﷺ فيما يرويه لنا أبو هريرة ﷺ أنه قال: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره» رواه مسلم. وذلك لكرامته عند الله بتقواه.

ألا ترى معى بعد كل ذلك .. أن الرجل المؤمن الذى هو محور القصة كان لابد أن يكون أعمًى وفقيراً وقليل الشأن فيما يبدو للناس ؟

رحم الله الصحابى الجليل عبد الله بن أم مكتوم - صاحب هذه القصة، وهو

من المهاجرين الأوائل، استخلفه الرسول عليه الصلاة والسلام على المدينة مرتين، وكان مع بلال بن رباح ﷺ يؤذنان للصلاة، وكان كلما قابله الرسول عليه الصلاة والسلام رحب وقال له: «أهلاً بمن عاتبني فيه ربي».

ولو افترضنا أننا قابلناه لرحبنا به وقلنا له: أهلا بمن كان سببًا في نزول سورة عبس.

ونسأل الله أن نلقاه في الجنة إن شاء الله .. يبصرنا ونبصره.



ثانياً: لماذا مَنَّ الله على الإنسان بقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد: ٨، ٩]

دون باقي الحواس والجوارح

نقول ـ والله أعلم ـ أنهما الأداتان اللتان لهما غطاء يمنعهما من العمل إذا أراد الإنسان ذلك، ويرفع عنهما الغطاء إذا أراد لهما العمل، فالعيون غطاؤها الجفون واللسان غطاؤه الشفتان، وبالتالي فإن المسئولية عن العينين واللسان أكثر من المسئولية عن الأذنين والأنف، لأن الأذن تسمع رغماً عنها، وكذلك الأنف تشم رغماً عنها، ولا يكون حساب إلا بتكلف الاستماع لما لا يجوز، وتكلف الشم لما لا يجوز.

ومن ناحية أخرى .. فإن العين أداة إدراك واستقبال، واللسان أداة تعبير وإرسال، وما حياة الإنسان وتعاملاته مع غيره من مخلوقات الله إلا سلسلة من الإدراك والتعبير والإرسال والاستقبال وهو محاسب على هذا وذاك، وخاصة العين واللسان لأن له إرادة في استخدامهما ووسيلة لضبط هذا الاستخدام. وكتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيهما كثير من التوجيهات والمحاذير للعين واللسان .. فهما نعمتان إذا أحسن استخدامهما، وهما نقمتان إذا أسيء استخدامهما.

اما العين .. فيقول تعالى:

* ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

* ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴾.

[النور: ٣١].

* ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾.

[الإسراء: ٣٦].

* ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

* «كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ذلك ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه» متفق عليه ـ رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

* «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه» حديث قدسي رواه ابن مسعود وذكره ابن كثير في تفسيره.

اما عن اللسان فيقول تعالى :

* ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

* ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الملك: ١٣].

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

* «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» رواه البخاري ومسلم.

* «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يُلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقى لها بالاً يهوى بها في جهنم» رواه البخاري.

* ويقول أيضاً فى نهاية حديثه المشهور مع معاذ بن جبل رضي الله عنه:

«قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم؟ فقال: ثكلتك أمك، وهل يكُب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» رواه الترمذى.

وغير هذه الآيات والأحاديث كثير فى كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام اخترنا ما سبق للدلالة على خطورة أمر العين واللسان .. فلا غرابة بعد ذلك أن يذكرهما الله دون غيرهما من الحواس والجوارح في معرض المن على الإنسان بما أنعم عليه من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].



ثالثاً : لماذا جمع الله بين الليل والنهار والذكر والأنثى في قسم واحد في سورة الليل ؟

يقول تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل: ١ - ٤].

نقول والله أعلم :

١ ـ لأن الله كما خلق الليل والنهار متكاملين غير متضادين، كذلك خلق الذكر والأنثى متكاملين غير متضادين.

٢ ـ لأن الحياة كما أنها لا تستقيم إلا بالليل والنهار، فإنها لا تستقيم إلا بالذكر والأنثى.

٣ ـ لأن الليل كما جُعل لباساً، وجُعل النهار معاشاً، كذلك فإن للذكر دوراً في الحياة وللأنثى دور آخر. فإذا كان دور الرجل يختص أساساً بالإنتاج المادى وعمارة الأرض فإن دور المرأة يختص أساساً بالإنتاج البشرى وعمران الأرض بالذرية .. هو خارج البيت وهى داخله .. ولكل قاعدة استثناء .. ولكن لا ينبغى أن يتحول الاستثناء إلى قاعدة.

٤ ـ لأن من صفات الليل أنه مظلم، ومن صفات النهار أنه مضيء، كذلك فإن للذكر صفات، وللأنثى صفات. وبالتالى لا يجب أن يتشبه الرجال بالنساء، ولا يتشبه النساء بالرجال .. ومن فعل ذلك فهو ملعون كما جاء فى الحديث الشريف.

ونكتفى بهذا القدر من أسباب الجمع .. فهل بعد ذلك يصح أن يثار بين حين وآخر ما يسمى بقضية المرأة، وقضية الرجل .. إن الأمر محسوم بهذه الافتتاحية الفذة، والعميقة المغزى لسورة الليل، وعلى المشتغلين بهذه القضايا الجدلية، ومثيرى الفتن أن يرجعوا إلى كتاب الله إن أرادوا الهدى وابتعدوا عن الهوى.

رابعاً: ما هى العلاقة بين القسم وجوابه في سورة العاديات؟

أما عن القسم .. فيقول تعالى:

* ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ١ - ٥].

يقسم الله - تعالى - بالخيل .. وهذا على أرجح الأقوال .. يقسم بها فى أحوالها المختلفة عندما تخرج مع الفرسان المجاهدين فى سبيل الله .. فهى عادية من العدو أى الجرى، وهى ضابحة وهو صوت تنفسها أثناء العدو، وينقدح الشرر عندما تحتك حوافرها بالصخر وهى تعدو، وهى مغيرة على الأعداء عادة مع أول ضوء للصباح لتباغتهم، وهى المثيرة لغبار المعارك بحركة أرجلها الرشيقة والسريعة والمتتابعة، وهى الجسورة التى لا تهاب المعارك إذا حمى وطيسها فهى فى الوسط وهى فى البؤرة وليست فى الأطراف.

أما عن جواب القسم .. فيقول تعالى:

* ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٦ - ٨].

فما العلاقة بين الخيل المقسوم بها وببعض أحوالها وبين الإنسان المقسوم عليه فى بعض أحواله ؟

* إنها المقابلة بين الخيل المجاهدة فى سبيل الله .. وهى المقسوم بها، وبين الإنسان القاعد، والجاحد، والمتشبث بالحياة الدنيا وزينتها.

* إنها المقابلة بين عالم الحيوان الذى سُخِّر لخدمة الإنسان فأطاع، وبين عالم

الإنسان الذى كرمه الله وحدد له أشرف غاية فلم يحافظ على هذه الكرامة، وتقاعس عن شرف الغاية.

* إنها المقابلة بين وسيلة الجهاد غير الموعودة بإحدى الحسنيين وبجنات تجرى من تحتها الأنهار، وبين الإنسان الموعود بالنصر أو الشهادة، وبحياة الكرامة فى الدنيا والآخرة ثم إذا هو يتخاذل عن الجهاد فى سبيل الله ويؤثر الحياة الدنيا على الآخرة، يؤثر العاجل الفانى، على الآجل الباقى لأنه جحد فضل ربه عليه واثّاقل إلى الأرض وأحب الدنيا.

* إن هذه المقابلة مقصود بها أن تستحث الإنسان على الجهاد فى سبيل الله وتستثير حماسته ليرغب فيما عند الله فهو خير وأبقى، وتستنهض همته لكى يقدم نفسه وماله ابتغاء مرضاة الله لكى تكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا فإن حدث كل ذلك فبها ونعمت .. حيث لا يليق أن تسبقه الخيل إلى كل ذلك، فهو المجاهد وهى وسيلة الجهاد، وهو الموعود من الله بإحدى الحسنيين وهى ليست كذلك.

وإن أصر على القعود فقد قامت عليه الحجة وسوف يشهد على نفسه بذلك فى يوم لا ريب فيه .. والله على كل شىء شهيد.

إن كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيهما الكثير من الآيات والأحاديث .. للحث على الجهاد فى سبيل الله والوعد بموفور العطاء، وفيهما أيضاً التشنيع على القاعدين والمتثاقلين والوعيد بشدة الجزاء، وعلى كل مسلم أن يرجع إلى هذه النصوص ويقرأ قصص المجاهدين فى سبيل الله الذين سطروا بدمائهم أروع صفحات البطولة والفداء لعل الله يحيى موات الأمة الإسلامية ويقيلها من عثرتها بعد أن تكاثرت عليها الأمم بعد أن ترك المسلمون الجهاد فى سبيل الله .. وأحبوا الدنيا وكرهوا الموت.



خامساً : لماذا ضُربت ثمود مثلاً للطغيان دون سواها من الأقوام في سورة الشمس ؟

يقول تعالى بعد أطول قسم فى القرآن الكريم .. وهو افتتاح سورة الشمس :

* ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [الشمس: ١١ - ١٥].

* لقد ذكر الله ـ تعالى ـ عاداً وثمود وفرعون فى سورة الفجر ووصفهم جميعاً بالطغيان : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

فلماذا ضربت ثمود مثلاً للطغيان دون سواها من الأقوام فى سورة الشمس ؟

هل كانت ثمود أكثرهم طغياناً ؟

نقول ـ والله أعلم ـ أن سنة الله عز وجل أن يرسل الرسل ومع كل رسول آية هى دليل وبرهان على صدقه، وهى فى نفس الوقت حجة على قومه.

ولقد أرسل الله ـ تعالى ـ صالحًا عليه السلام إلى قومه ثمود وأخّر عنه الآية التى هى دليل صدقه لأن الله قد علم أزلاً أنهم سوف يطلبونها، فإذا طلبوها وأجابهم إلى طلبهم، كان هذا أدعى إلى تصديق رسولهم وأوقع فى إقامة الحجة عليهم، فلما طلبوا من صالح عليه السلام أن يخرج لهم ناقة عشراء من بطن الجبل وهم بذلك يظنون أنهم يعجزونه فيما يطلبون. فأجابهم صالح عليه السلام إلى طلبهم بأمر الله

وخرجت لهم الناقة العشراء من بطن الجبل، وزادهم الله فوق طلبهم المُعجز بأن جعل ماء البئر الذى يشربون منه قسمة بينهم وبين الناقة .. هم يشربون منه يومًا وهى تشرب منه يومًا ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾[القمر: ٢٨] وفى اليوم الذى لا يشربون فيه من البئر .. يشربون لبن الناقة بما يغنيهم عن الماء.

فهل آمنوا بعد ذلك ؟

كلاّ .. لقد أصروا على عنادهم وتكذيبهم لرسولهم وتمادوا فى غيهم وطغيانهم وعتوا عن أمر ربهم ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧] فذبحوا ناقة الله، وآية الله إليهم، فكانوا بذلك أول من جمع بين إيذاء رسولهم وذبح آيته.

ولم يحدث ذلك من أى قوم قبلهم أو بعدهم، فإيذاء الرسل أمر معتاد، ولكن ذبح الآية التى طلبوها كان أمرًا تفردوا به، فكانوا بذلك مثلاً فريدًا فى الطغيان .. فاستحقوا بذلك عقاب الله ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾، وكما قال تعالى أيضًا: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والدليل على تفردهم بفعلتهم الشنعاء .. أن الله تبارك وتعالى أفردهم بالذكر فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

ولم يذكر الله ـ تعالى ـ غيرهم كنموذج فريد فى التكذيب .. والطغيان.

والطغيان هو تجاوز الحد .. فلما تجاوزت ثمود كل حد فى التكذيب، عاقبهم الله تعالى بالصيحة التى تجاوزت كل حد فى قوتها، فالجزاء من جنس العمل فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٥].

وكما تدين تدان.



سادساً : لماذا انتقلت الاستعاذة من التعميم إلى التخصيص فى سورة الفلق ؟

يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾.

[الفلق: ١ - ٥].

قبل طرح السؤال .. الذى هو عنوان هذا المقال، ومحاولة الإجابة عليه .. سوف نشرح المفردات التى وردت فى هذه السورة بإيجاز .. تمهيداً لطرح السؤال والإجابة.

* الاستعاذة : معناها الاستعانة، وأعوذ بمعنى أستعين، وألتجئ، وأعتصم، وألوذ، وأحتمى.

* رب الفلق : أى رب الخلْق، وأول معانى الربوبية أنه الخالق، والفلْق هو الخلْق .. ويعرف ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ ... ﴾ [الأنعام: ٩٦].

* غاسق إذا وقب : أى الليل إذا أقبل .. حيث يقال غسق الليل إذا أظلم ومنه قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ... ﴾ [الإسراء: ٧٨]. والوقوب .. هو الدخول والإقبال.

* النفاثات فى العقد : النفث هو النفخ مع الريق وهو دون التفل، والنفث فى العقد من أساليب السحرة لإعمال سحرهم.

* حاسد إذا حسد : والحسد هو تمنى زوال نعمة الله عن المحسود يستوى فى ذلك أن تتحول إلى الحاسد أو لا تتحول .. فالمهم أن تزول عن المحسود.

بعد هذا الشرح الموجز لمفردات السورة .. نطرح الأسئلة التالية :

لماذا انتقلت الاستعاذة من عموم الشر إلى شرور ثلاثة بصفة خاصة ؟

ولماذا انصب التخصيص على هذه الشرور الثلاثة ؟

وهل هناك رابطة تجمع بين هذه الشرور الثلاثة ؟

وهل ذكر هذه الشرور الثلاثة على سبيل الحصر أم على سبيل المثال ؟

بعون الله وتوفيقه سوف نحاول الإجابة على هذه الأسئلة .. التى لم يتعرض المفسرون لطرحها والإجابة عليها.

إن كل إنسان يتوقى أنواع الشرور المختلفة بأسباب يتخذها، فيتوقى حرارة الشمس بأن يستظل ويتوقى برودة الشتاء بارتداء الملابس الثقيلة، ويتوقى الأمراض بالتطعيم وبأسباب الوقاية المختلفة فالوقاية خير من العلاج، ويتوقى سرقة أمواله باتخاذ الحراس والخزائن، ويتوقى الاعتداء على حياته من إنسان معتدى، أو حيوان مفترس، أو زواحف سامة، أو حشرات ضارة .. يتوقى كل ذلك بحمل السلاح، وبناء الأسوار، وإغلاق الأبواب، ورش المبيدات .. وغير ذلك من أسباب الحماية .. والأمثلة كثيرة تتجاوز الحصر.

وفى عالم المعانى .. فإن الإنسان يتوقى غضب الله وعذاب جهنم بالطاعات وأداء الفرائض وشتى القربات .. وهذه هى التقوى. ويتوقى الجهل بالتعلم، ويتوقى الغضب بالتحلم، ويتوقى الخيانة والغدر بالحذر والتحوط، ويتوقى الفقر بالإدخار، ويتوقى السوء بالإحسان ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت: ٣٤]، ويتوقى الفواحش بالإحصان والإعفاف .. والأمثلة لا حصر لها أيضاً فى عالم المعانى.

ولكن .. ما هى الأسباب والوسائل التى يمكن أن يتخذها الإنسان لكى يتوقى شر الليل إذا أقبل، وشر السحر والسحرة، وشر الحاسد إذا حسد ؟

لا توجد أسباب أو وسائل سوى الاستعاذة بالله، فالإنسان لا يستطيع أن يمنع

إقبال الليل وظلمته .. تلك الظلمة التى تتعطل معها حاسة البصر ـ أو تكاد ـ وتتحرك معها ألوان من الشرور ما كان لها من ظهور فى ضوء النهار، كما لا يستطيع الإنسان أن يمنع الساحر من إعمال سحره، كذلك لا يستطيع أن يمنع الحاسد من إطلاق حسده .. ولا يستطيع أن يتخذ من الأسباب والوسائل المادية لمنع كل ذلك، وشر كل ذلك ..

إلا بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى، فيلجأ إليه ويلوذ به ويحتمى بحماه من هذه الشرور الثلاثة.

وبذلك نكون قد أجبنا ـ دفعة واحدة ـ على الأسئلة الثلاثة الأولى.

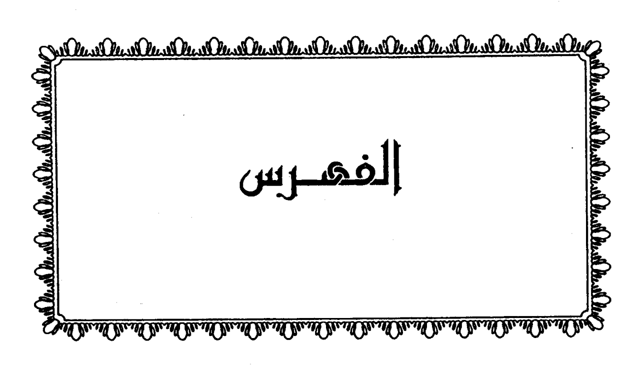
وتبقى الإجابة على السؤال الأخير .. هل هذه الشرور الثلاثة على سبيل الحصر أم على سبيل المثال ؟

نقول ـ والله أعلم ـ أن هذه الشرور الثلاثة على سبيل الحصر مع إضافة الوسواس الخناس الذى ورد ذكره فى سورة الناس كشر رابع .. لا سبيل لتوقى شره إلا بالاستعاذة بالله عز وجل .. ونعنى بذلك الشيطان الرجيم الذى نستعيذ بالله منه فى كل وقت وحين.

وعموماً .. فإن الاستعاذة بالله واجبة من كل أنواع الشرور سواء اتخذنا لها أسباباً لتوقيها أم لم نتخذ .. فالاستعاذة بالله عبادة .. وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قالها الرسول عليه الصلاة والسلام لابن عباس ﷺ، ويقولها كل مسلم عند قراءة الفاتحة فى الصلاة وفى غيرها ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].






الفهرس

موضوع	صفحة

رقم الايداع : ٨٠٣٨ / ٩٨

I.S.B.N.977-9.6780-4